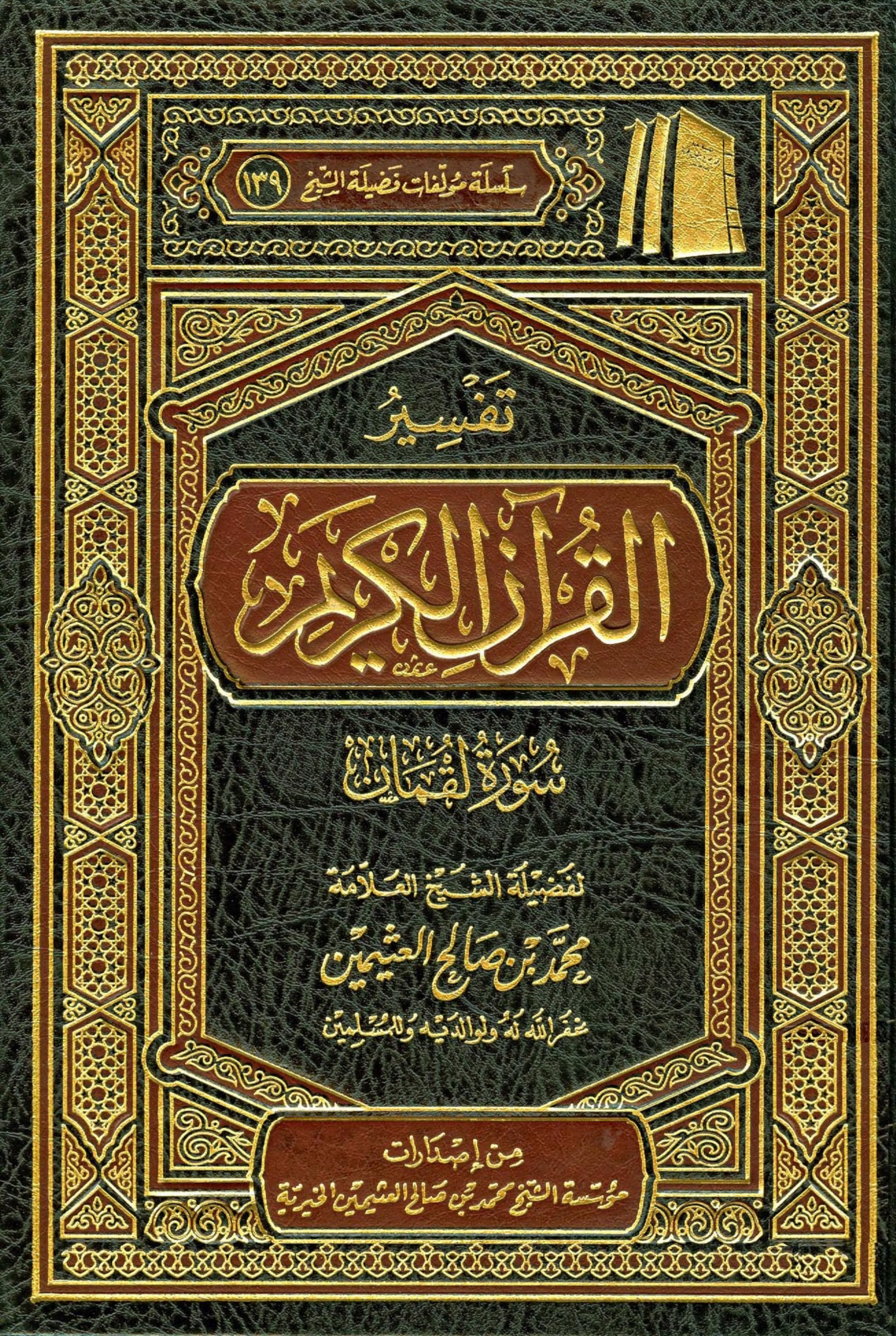


سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٩)
تفسير
القرآن الكريم
سورة لقمان
لفضيلة الشيخ العلامة
محمد بن صالح العثيمين
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين
من إصدارات
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية

سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (١٣٩)

تفسير القرآن الكريم

سورة لقمان

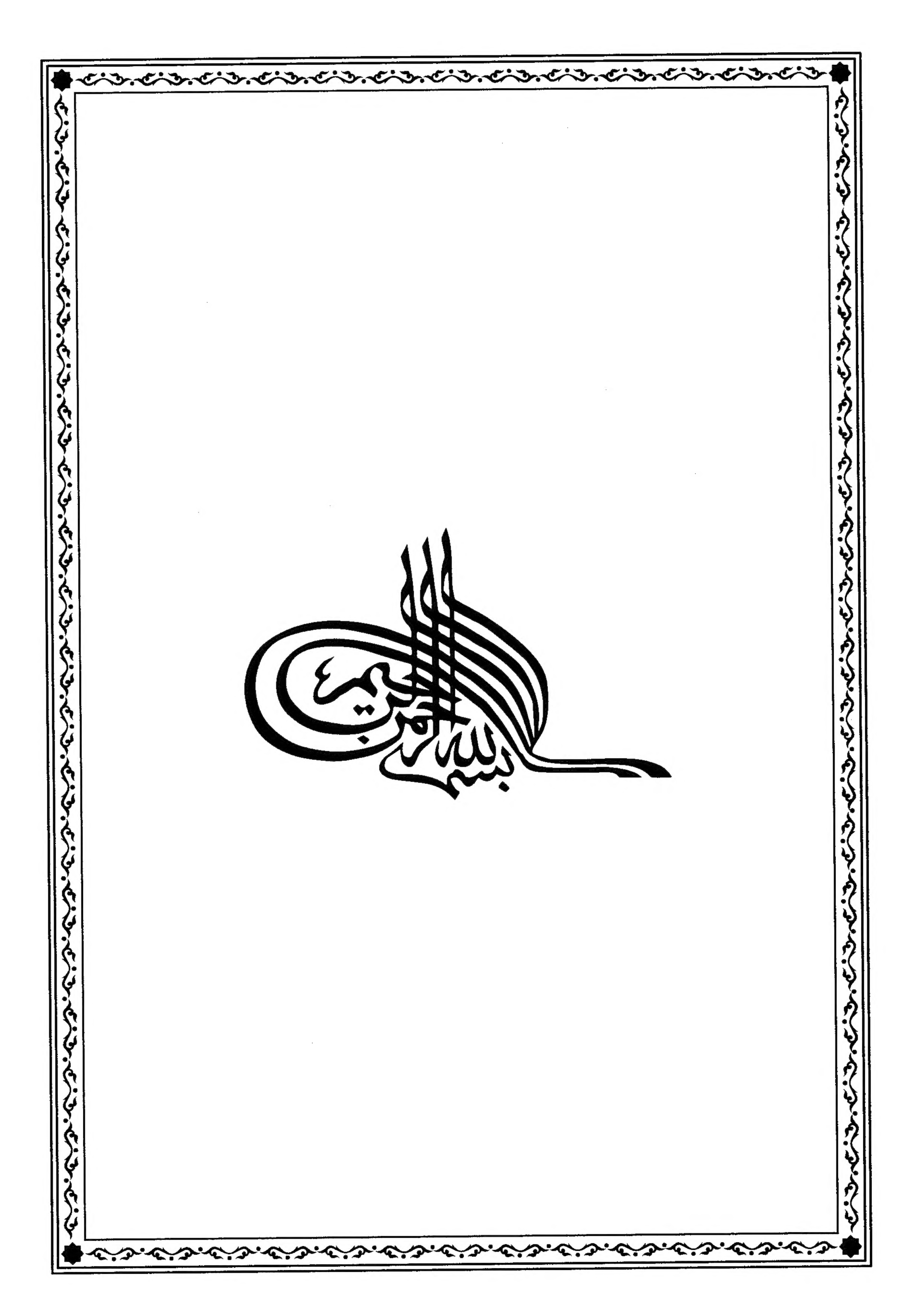
لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن صالح العثيمين

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

من إصدارات

مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية


بسم الله الرحمن الرحيم

ⓒ مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية، ١٤٣٦هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
العثيمين، محمد بن صالح
تفسير سورة لقمان. / محمد بن صالح العثيمين - ط ١ - القصيم، ١٤٣٦هـ
٢٢٦ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم (سلسلة مؤلفات الشيخ ابن عثيمين؛ ١٣٩)
ردمك: ٦ - ٤٣ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨
١ - القرآن - سورة لقمان - تفسير.
أ - العنوان
ديوي: ٢٢٧،٦ ١٤٣٦/٧٨٢٥

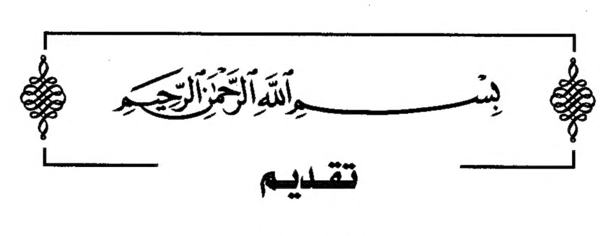
رقم الإيداع: ١٤٣٦/٧٨٢٥
ردمك: ٦ - ٤٣ - ٨١٦٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

الطبعة الأولى
١٤٣٦هـ



يُطلب الكتاب من:
مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية
المملكة العربية السعودية
القصيم - عنيزة - ٥١٩١١ ص.ب: ١٩٢٩
هاتف: ٠١٦/٣٦٤٢١٠٧ - ناسوخ: ٠١٦/٣٦٤٢٠٠٩
جوال: ٠٥٥٣٦٤٢١٠٧
www.ibnothaimeen.com
info@binothaimeen.com

الموزع المعتمد والحصري في جمهورية مصر العربية
دار الدُّرة للنشر والتوزيع - شارع محمد مقلد - متفرع من مصطفى النحاس
بجوار سوبر ماركت أولاد رجب
هاتف وفاكس: ٢٢٧٢٠٥٥٢ - محمول: ٠١٠١٠٥٥٧٠٤٤



تقديم

•• ●○ ••

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ ونَسْتعينُه ونَسْتغفرُه، ونَعوذُ بالله مِن شُرور أَنْفُسنا ومِن سيِّئات أعمالِنا، مَن يَهْده اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضْلِلْ فَلا هادِيَ له، وأَشْهَد أنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَه، وأَشْهَد أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه، أرسلَه اللهُ بالهُدَى ودِين الحقِّ؛ فبلَّغَ الرِّسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونَصَح الأمَّةَ، وجاهَد في الله حَقَّ جِهادِه ، حتَّى أتاهُ اليقينُ ، فصَلواتُ اللهِ وسلامُه عليهِ وعلَى آلِه وأصحابِه ومَن تَبِعهم بإحسانٍ إلَى يومِ الدِّين، أَمَّا بَعْدُ:

فمِنَ الدُّروسِ العِلميَّة المُسجَّلَة صَوتيًّا، والَّتِي كانَ يَعقِدُها صاحِبُ الفَضِيلةِ شَيخُنا العلَّامةُ الوالِدُ محمَّدُ بنُ صالحِ العُثَيْمِين -رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى- في جامِعِهِ بمَدِينَةِ عُنَيْزَةَ صَباحَ كُلِّ يومٍ أَثْناءَ الإِجازاتِ الصَّيْفيَّة؛ حَلقاتٌ فِي تَفْسير القُرآن الكَرِيم كانَت بِدايتُها مِن سُورة النُّور وما بَعدَها؛ حتَّى بلَغ قَولَه تَعالَى في سُورة الزُّخرف: ﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

وقَدِ اعتَمدَ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى في تَفْسيرِه لِتِلْكَ السُّور كِتابًا بَيْن يَدَيِ الطُّلاب هُو (تَفْسير الجَلالَيْنِ) للعلَّامة جَلال الدِّين محمَّد بنِ أَحْمَدَ بن محمَّدِ بنِ إبراهيمَ المَحَلِّيِّ، المُتوفَّى سَنَةَ (٨٦٤هـ)[1]، والعلَّامة جَلال الدِّين عبد الرَّحمن بن أَبِي بَكْر بنِ محمَّد

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حُسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

ابنِ سابِق الدِّين الخُضَيْرِيِّ السُّيُوطِيِّ، المُتوفَّى سنة (٩١١هـ)[1]. تغمَّدهما الله بواسِع رَحمته ورِضوانه، وأَسْكنهما فَسِيحَ جنَّاتِه، وجَزاهُما عَنِ الإِسْلام والمُسلِمِينَ خَيرَ الجَزاءِ.

وسَعْيًا -بِإِذْنِ اللهِ تَعالَى- لِتَعْمِيمِ النَّفْع بتِلْكَ الجُهُود المُبارَكة فِي هَذا المَيْدَان العَظِيم باشَر القِسْمُ العِلْمِيُّ بِمُؤَسَّسةِ الشَّيخ مُحَمَّد بنِ صالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ واجِباتِه فِي شَرَفِ الإِعْدادِ والتَّجْهيز للطِّباعةِ والنَّشْر لإِخْراج ذَلِكَ التُّراث العِلمِي؛ إنفاذًا للقَواعِدِ والضَّوابِط والتَّوْجِيهاتِ الَّتِي قَرَّرها فَضيلةُ الشَّيخِ رَحِمَهُ اللهُ تَعالَى فِي هَذا الشَّأْنِ.

نَسْأل اللهَ تعالَى أَنْ يَجْعلَ هَذا العَمَلَ خالصًا لِوجهِهِ الكَرِيمِ؛ نافِعًا لِعِبادِهِ، وأَنْ يَجزِيَ فَضِيلةَ شيخِنا عَنِ الإسلامِ والمسلمِينَ خَيْرَ الجَزاء، ويُضاعِفَ لهُ المثُوبَةَ والأَجْرَ، ويُعْلِيَ دَرَجَتَهُ في المَهْدِيِّينَ، إِنَّه سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

وَصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارَكَ علَى عبدِه ورَسولِه، خاتَمِ النَّبِيِّينَ، وإِمامِ المُتَّقِينَ، وسيِّدِ الأَوَّلينَ والآخِرينَ، نبيِّنَا محمَّدٍ، وعلَى آلِه وأَصْحابِه والتَّابعينَ لَهُمْ بِإِحْسانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّين.

القِسْمُ العِلْمِيُّ

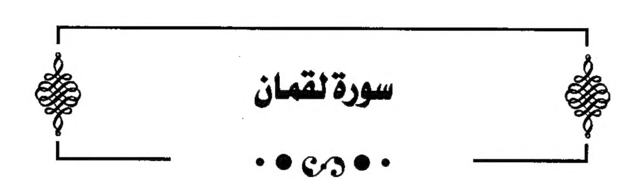
فِي مُؤَسَّسَةِ الشَّيْخ مُحَمَّدِ بْنِ صَالِحِ العُثَيْمِين الخَيْرِيَّةِ

٢٠ جُمادَى الآخِرَة ١٤٣٦هـ

• • ۞ • •

---

(١) انظر ترجمته في: الأعلام للزركلي (٣/ ٣٠١).



سورة لقمان

الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ، وصلَّى اللهُ وسلَّمَ عَلَى نبيِّنَا مُحمَّدٍ، وعَلَى آلِهِ وأصحَابِهِ ومَنْ تَبِعَهُم بإحسَانٍ إلَى يَومِ الدِّينِ. وبَعد:

يَقول المُفَسِّر[1] رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهي مَكِّيَّة] المَكِّيُّ أَرجَحُ الأقوال -والذي عليه الجُمهور-: أن ما نزَل بعد وصول الرسول ﷺ إلى المدينةَ فهو مدَنيٌّ، ولو نزَل بمَكَّةَ، وما نزَل قبل وصوله إلى المدينة فهو مَكِّيٌّ، هذا هو القول الراجِح، فعلى هذا المُعتَبَرُ هو الزمَن لا المكان، وهذا أَريَحُ أيضًا للإنسان.

يَقول رَحِمَهُ اللَّهُ: [مكِّيَّة، إلَّا: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ﴾ [لقمان:٢٧]]، وفي نُسخة [أو إلَّا] وبينهما فَرْق؛ لأن قول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [إلَّا ﴿وَلَوْ﴾] أن هذا اقتِصار على قول واحِد وجزَم به، أمَّا على النُّسخة الثانية [أو إلَّا] فهو إشارة إلى أن في المَسأَلة قولين، وأنه لم يُجزَم بأحَدِهما.

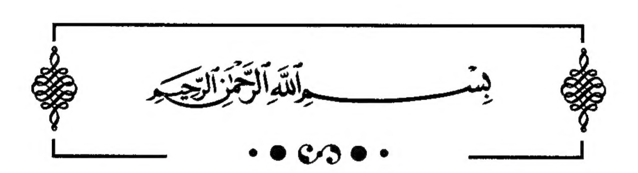
والصحيح ما سبَقَ لنا أن السورة إذا كانت مَكِّيَّة فإننا لا نَستَثْنِي منها شيئًا إلَّا بنَصٍّ صريح واضِح، وإذا كانت مدَنية فإننا لا نَستَثنِي منها شيئًا إلَّا بنَصٍّ صريح واضِح؛ لأن الأصل أنَّ السورة تَكون مُتَتالِيةً، وأن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَضَع كل آية في مكانها، أو يَأمُر بوَضْعها.

---

(١) المقصود بـ(المفسر) هنا: محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم جلال الدين المحلي، ترجمته في: الضوء اللامع (٧/ ٣٩)، حسن المحاضرة (١/ ٤٤٣).

وعلى هذا فنقول: إن جاء مَن أَثبتَ أن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾، نزَلَت بعد الهِجرة، وأَثبَت ذلك بنَصٍّ فعَلَى العَيْن والرأس، وإلَّا فالأَصْل أن السورة كامِلة مكِّيَّة.

• ● ۞ ● •



❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

• • ☙ • •

[بسم الله الرحمن الرحيم] تَقدَّم الكلام على البَسمَلة إعرابًا ومَعنًى وحُكمًا:

أما إعرابها فإنها جارٌّ ومَجرور مُتعَلِّق بمَحذوف، فِعْل مُؤخَّر مُناسِب للمَقام، الآنَ نُريد أن نَقرَأ هذه السورةَ فنَقول: بسم الله الرحمن الرحيم أَقرَأُ. أو نُريد أن نُفسِّر نَقول: بسم الله الرحمن الرحيم أُفسِّرُ. ويُريد الإنسان أن يَتوضَّأ يقول: بسم الله أَتوضَّأ، وقدَّرناه فِعْلًا؛ لأن الأَصْل في العامِل أن يَكون فِعْلًا، لا سيَّما وأنه محَذوف.

وقدَّرْناه خاصًّا، لم نَقُلْ مثَلًا: بسم الله الرحمن الرحيم أَبتَدِئ. بل قُلْنا: كُنَّا إن كنت تُريد أن تَقرَأ قَدِّر: أَقرَأُ، تُريد أن تَأكُل قَدِّر: آكُلُ، تُريد أن تَشرَب قَدِّر: أَشرَبُ، فاختَرْنا أن يَكون تقديرُه خاصًّا لأَجْل أن يُناسِب كل حال بعَيْنه؛ ولأن الرسول عَلَيْهِالصَّلَاةُوَالسَّلَامُ قال: «مَنْ لَمْ يَذْبَحْ فَلْيَذْبَحْ بِسْمِ اللهِ»[1] فهو إشارة إلى أنه يُقدَّر الفعل المَحذوف بما يُناسِب الفِعْل المُبتَدَأ به.

واختَرْنا أن يَكون تَقديرُه مُتأخِّرًا؛ لأَجْل البَداءة بـ(بسم الله)، ولإفادة الحَصْر والاختِصاص؛ لأن تَقديم المَعمول يُفيد الحَصْر والاختِصاص، فكأنك تَقول:

(١) أخرجه البخاري: كتاب العيدين، باب كلام الإمام والناس في خطبة العيد، رقم (٩٨٥)، ومسلم: كتاب الأضاحي، باب وقتها، رقم (١٩٦٠)، من حديث جندب بن سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لا أَبتَدِئ إلَّا بسم الله، هذا هو السبَب في أن نُقدِّره مُتأخِّرًا.

فهي (اسم) مُضاف، ولفظ الجَلالة مُضاف إليه، و(الرحمن) صِفة لله تعالى، و(الرحيم) صِفة لله تعالى أيضًا.

وأمَّا حُكْمها: فإنها آية من كِتاب الله تعالى تَكلَّم الله تعالى بها، وأَنزَلها على الرسول ﷺ، لكنها ليسَتْ آيةً من السورة، إنها جُعِلت علامةً على ابتِداء السورة فقَطْ، وليسَتْ منها، وتَجِد في المَصاحِف أنه لم يُكتَب عليها رقمٌ إلَّا في الفاتِحة، فإنها رُقِّمت، والسبَب أنَّ الفاتِحة ذهَب كثير من أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ إلى أن البَسمَلة منها، والصواب أنَّها ليسَتْ منها، بل كغيرها، وأن أوَّل آية في سورة الفاتِحة هي قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٢-٦]، هؤلاء خمسُ آيات والفاتِحة سبعُ آياتٍ، إذن السابِعة: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾، هذه السابِعة، هذا هو الصحيح، مع أنك تَجِد في المَصاحِف ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ آية واحِدة بِناءً على أن البَسمَلة هي الآية الأُولى. أي: أن حُكْمها باعتِبار تِلاوتها في الصلاة.

فإن قُلنا: إنها من الفاتِحة فهي آية منها، ولا بُدَّ من قِراءتها، وتُقرَأُ جهْرًا كما يُجهَر بالفاتِحة، وإذا قُلْنا: ليسَت منها فإنه لا تَجِب قِراءَتُها ولا يُجهَر بها.

• ● ۞ ● •



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الٓمٓ﴾ [لقمان:١].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿الٓمٓ﴾ اللهُ أَعلَمُ بمُراده به] قوله تعالى: ﴿الٓمٓ﴾ ثلاثة حُروف هِجائية، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [اللهُ أَعلَمُ بمُراده به]، وفي هذا إثباتٌ؛ لأن الله تعالى أَراد به شيئًا، لكنه لا يُعلَم، فنَأخُذ من كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يَرَى أن لهذه الحُروفِ مَعنًى، ولكن الله أَعلَمُ به، وقال بعضُ أهلِ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إن لها مَعنًى، وجعَلوا يَتَخبَّطون بهذا المَعنَى، ويَجعَلونها رُموزًا لَمَّا جعَلوها له، وقال مُجاهِد: إنه لا مَعنَى لها[1]، فنَقول: لا مَعنَى لها.

ولا نَقول: اللهُ أَعلَمُ بما أَراد؛ وذلك لأن القُرآن نزَل باللغة العربية كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء:١٩٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف:٢] وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف:٣]، واللغة العَرَبية ليس لهذه الحُروفِ فيها مَعنًى، وعلى هذا فنَقول: إنه لا مَعنَى لها، ونَقول ذلك لأن هذا هو مُقتَضى اللُّغة العرَبية التي نزَل بها القُرآن.

فإذا قال قائِل: إذا قلت: لا مَعنَى لها. كيف يَسوغ لك أن تَجزِم بنَفيِ المَعنَى؟

فالجَوابُ: نعَمْ، يَسوغ لنا ذلك؛ لأن القُرآن باللغة العربية، وهذه الحُروفُ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٢٠٩)، وانظر: تفسير ابن كثير (١/ ٧٠).

الهِجائيـة بمُقتَضى اللغة العربية ليس لهـا مَعنًى، فأَجزِم بذلك؛ لأن القُرآن باللغـة العربية.

وإذا كان الأَمْر هكذا؛ فما الفائِدة من وُجودها في القُرآن؟

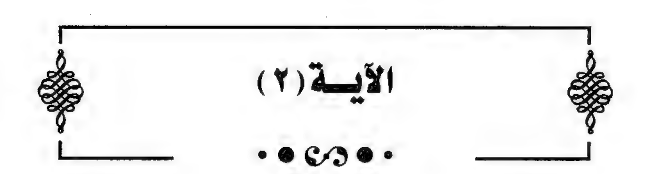
الجَوابُ: هـذه هي التي قد نَقول: اللهُ أَعلَمُ بذلك، ولكن بعـض أهل العِلْم التَمَس لهذا حِكْمة، بأنه إشارةٌ إلى أن هذا القُرآنَ الذي أَعجَزَكم ما أَتَى بحُروف جديدة حتى تَقول: واللهِ هذه ليسَتْ من حُروفنا، وإنما هو من الحُروف التي يَترَكَّب منها الكلام العرَبيُّ، ومع ذلك أَعجَزَكم.

قالوا: ولهـذا لا يَأتي الابتِداء بهـذه الحُروفِ الهِجائية إلَّا وبعـده ذِكْر القُرآن، أو ما هو من خَصائِص القرآن: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾، وهناك بعضُ السُّوَر مِثْل: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾، ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ﴾، ليس فيها ذِكْر القرآن، لكن فيها ذِكْر ما هو من خَصائِصه، فـ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ هذا من أمور الغَيْب، ولا يُعـلَم إلَّا بالوَحْيِ، كذلـك ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ هذا فيه إخبار عمَّن سبَق، وهو من أُمور الغَيْب أيضًا، ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:٣].

وعلى كل حال: هذا الذي ذكَرْناه أخيرًا هو ما ذهَبَ إليه شيخُ الإسلام ابنُ تيميَّةَ(١) رَحِمَهُ ٱللَّهُ وسبَقه إليه الزَّمخشَريُّ في كِتابه (الكَشَّاف)(٢).

• ● ۞ ● •

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/ ٧١).
(٢) الكشاف (١/ ٢٦).



الآية (٢)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ [لقمان:٢].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ تِلْكَ ﴾ أي: هذه الآياتُ ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ القُرآن ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴾ ذي الحِكْمة، والإضافة بمَعنَى مِن] قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ﴾: المُشار إليه آيات القُرآن، وتَجِد أن الإشارة هنا بصيغة البَعيد، والقرآن ليس بَعيدًا؛ لأنه بين أَيدينا، ولكنه عالِي المَرتَبة؛ فلهذا أُشير إليه بإشارة البعيد.

وقوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: المَكتوب وهو القُرآن، وذكَرْنا فيما سبَق أنه مَكتوب في ثلاثة مَواضِع: في اللوح المَحفوظ، وفي الصُّحُف التي بين يدَيِ المَلائِكة، وفي الصُّحُف التي بين أَيْدينا.

وقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الإضافة هنا يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنها على تَقدير (مِن) يَعنِي: آيات مِن الكِتاب، والآياتُ كما تَقدَّم كونيةٌ وشرعيةٌ، وآيات الكِتاب من الشَّرْعية.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ذي الحِكْمة]، ولكن يُمكِن أن يُقال: ذي الحِكْمة والحُكْم أيضًا؛ لأنه مَرجِع الناس في الحُكْم؛ ولأنه يَشتَمِل على الحِكْمة، وهو أيضًا صالِح لأَنْ يُجعَل بمَعنَى المُحكِم، فيَكون فَعيل بمعنى مُفعِل.

فالقُرآن إذَنْ: حَكيم لاشتِمالِه على الحِكْمة وعلى الحُكْم بين الناس؛ قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ [النساء:١٠٥].

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَة الأُولَى: حِكْمـة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى في إنزال هذه الحُروفِ الهِجائية، وهي ﴿الٓمٓ﴾ وما أَشْبَهها.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ يَتكَلَّم بحَرْف، وكذلك بصَوْت؛ لأن ﴿الٓمٓ﴾ من كَلام الله تعالى، وهي حُروف، وهذا هو مَذهَب أهل السُّنَّة والجَماعة، وقد تَقدَّم لنا البحث فيه مِرارًا، وأن أهل السُّنَّة والجماعة يَقولون: إن كلام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى حَرْف وصَوْت.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: عُلوُّ شَأْن هذا القُرآنِ؛ لقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن القُرآن آية وعلامة على مُنزِلِه؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، والإضافة على تَقدير (مِن) فهي إضافة جِنْسية، وهو آية على مُنزِلِه جَلَّوَعَلَا:

من حيث صِدْق أَخباره ومُطابَقَتها لهذا الواقِعِ، ومن حُسْن قِصصه وحُبِّها للنُّفوس، وعدَم مَلَلها منها؛ لأن ما من كلام يُردَّد إلَّا ويُمَلُّ إلَّا القرآن.

وكذلك من حيث الأحكام: حيث إنها أَحكام عادِلة نافِعة للعِباد في مَعاشِهم ومَعادِهم؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗا﴾ [الأنعام:١١٥].

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن القُرآن مَكتوب كما هو مَقروء؛ لقوله تعالى: ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الثَّناء على هذا القُرآنِ بهذا الوَصْفِ العَظيم وهو: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنه لا يُوجَد في القُرآن خبَر سِيق عبَثًا، ولا حُكمٌ أُثبِتَ عبَثًا، يُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾؛ لأن العبَث يُنافِي الحِكْمة، ولا يُمكِن أن يَكون في القُرآن شيءٌ عبَثًا، لا خبَرًا ولا حُكْمًا.

• ● ۞ ● •



الآية (٣)

• ● ๑ ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴾ [لقمان:٣].

• ● ๑ ● •

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(هُدًى وَرَحْمَةٌ) بالرَّفْع] هذه مَحلُّها من الإعراب خبَرَ لُمبتَدأ محذوف، قدَّرَه المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [هو (هُدًى وَرَحْمَةٌ)] هُدى: بمَعنَى: دَلالة، ورحمةٌ: بمَعنَى: أن الله رحِم به الخَلْق حيث أَنزَله عليهم، فالقُرآن هِداية ورحمة، مَن تَمسَّك به نجا واهتَدَى، فلا يَضِلُّ مَن تَمسَّك بهذا القُرآنِ ولا يَشقَى؛ لأنه هُدًى ورَحمة.

وعلى هذا فنَقول لكل إنسان أَراد العِلْم: عليك بالقرآن؛ لأنه هُدًى، ولكل إنسان أَراد الرحمة: عليك بالقُرآن؛ لأنه هُدًى؛ فهو (هُدًى وَرَحْمَةٌ)، ولكن ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أَحسَنوا في عِبادة الله تعالى وأَحسَنوا إلى عِباد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والإحسان ضِدُّ الإساءة، والإساءة إمَّا أن تكون بتَرْك الواجِب أو بفِعْل المُحرَّم، فمَن ترَكَ ما أَوْجَب الله تعالى عليه لنفسه من الصلاة وغيرها فليس بمُحسِن، ومَن فعَلَ ما حرَّمَ الله تعالى عليه فليس بمُحسِن، ومَن ترَكَ ما يَجِب للناس من صِلة الرَّحِم وبِرِّ الوالِدين والإحسان إليهم فليس بمُحسِن، ومَنِ اعتَدَى عليهم فليس بمُحسِن.

وقوله تعالى: ﴿لِلْمُحْسِنِينَ﴾ يُستَفاد منه أنه كلَّما ازداد الإنسان إحسانًا ازداد انتِفاعًا بالقُرآن بالهِداية والرحمة، بِناءً على القاعِدة: أنَّ الحُكْم إذا عُلِّق بوَصْف كان يَقوَى بحسَب وجود ذلك الوَصْفِ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُدَى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ﴾ فهل غير المُحسِنين لا يهتَدون به ولا يُرحَمون؟

الجَوابُ: نعَمْ؛ لأن المُحسِنين هم الذين يَنتَفِعون بذلك، وإلَّا فهو هُدًى للناس كلِّهم مَصدَر هِداية للجَميع، لكن لا يَنتَفِع به إلَّا الذين أَحسَنوا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وفي قِراءة العامة بالنَّصْب حالًا من الآيات] غَريبٌ هذا التَّعبيرُ من المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقوله: [وفي قِراءة العامَّة] يَفهَم منه مَن لا يَعرِف الاصطِلاح أن المُراد بالعامَّة عامَّة الناس، ما سِوى العُلَماء، وهذا ليس كذلك، إنما المُراد بالعامَّة عامَّة القُرَّاء ما عدا قارِئًا واحِدًا الذي قرَأ بالرَّفْع؛ فقال: [بالنَّصْب حالًا من الآيات، العامِل فيها ما في ﴿تِلْكَ﴾ مِن مَعنَى الإشارة].

فقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ حالَ كونها ﴿هُدَى وَرَحْمَةً﴾، فإذا قال قائِل: الحال تَحتاج إلى عامِل مثل: الظَّرْف والجارِّ والمَجرور والمَفعول به، فما هو العامِل؟

فالجَوابُ: العامِل فيها ما في ﴿تِلْكَ﴾ من مَعنَى الإشارة؛ فـ﴿تِلْكَ﴾ اسمٌ جامِد غير مُشتَرَط، لكنه بمَعنَى: أُشير، فإذا قلت: هذا زيدٌ. المَعنَى: أُشيرُ إليه، فـ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ بمَعنَى: أُشير إلى هذه الآياتِ، فلمَّا كانت مُتضَمِّنة لمَعنَى الفِعْل صارت صالِحة لأَنْ تكون عامِلًا في الحال.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: التَّرْغيب في هذا القُرآنِ؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾، وكل أحَدٍ منَّا يَطلُب الهُدى والرحمة، فهو هُدًى في العِلْم ورحمة في العمَل، إذ إن العامِل به يَنال رحمة الله تعالى، والمُهتَدِي به على هُدًى وبصيرة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن القُرآن الكريم جمَع الخيرَ كلَّه، فهو عِلْم نافِع؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى﴾، وعمَل صالِح؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ لأن الرحمة لا تُنال إلَّا بالعمَل الصالِح.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحثُّ على الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿لِّلْمُحْسِنِينَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الإحسان سبَب لنَيْل العِلْم والعمَل الصالِح، لما جعَله هُدًى ورحمةً للمُحسِنين.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه كلَّما ازداد إحسان العبد ازداد عِلْمه وعمَله الصالِح؛ لأن الحُكْم إذا عُلِّق على وَصْف ازداد بزيادته ونقَص بنَقْصه كما تَقدَّم.

• ● ۞ ● •



الآية (٤)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [لقمان:٤].

• • • •

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بيان للمُحسِنين] وعلى هذا فلا تكون نعتًا، بل تكون بيانًا أي: عَطْفَ بيان؛ والمُحسِنون هم: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَعنِي: يَأتون بها قويمة تامَّة، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يَشمَل الفريضة والتَّطوُّع، فإقامتها بفِعْل الواجِبات، وتَرْك المُفسِدات، وكذلك تَتِمُّ الإقامة بفِعْل المُكمِّلات والمُستَحبَّات.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: يُعطونها، والزكاة هي جُزْء مُقدَّر شرعًا في مال خاصٍّ لطائِفة مخصوصة، ومَفعول ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ الثاني محذوف تَقديرُه: ويُؤتون الزكاة أهلَها. وإنما جاز حَذْفه؛ لأنه فَضْلة، وقد سبَق أن جميع المَفاعيل الفَضْلة يجوز حَذْفها.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ سُمِّيَ هذا المالُ المُؤدَّى زكاةً؛ لأنها تَزكو بها أخلاق المُزكِّي، ويَزكو بها المال أيضًا ويَزيدُ؛ لأن الزكاة في اللغة النَّماء والزِّيادة.

ولم يَذكُرِ الله من الأفعال إلَّا الصلاة والزكاة، وقرَن بينهما في القرآن كثيرًا؛ وذلك لأنهما آكَدُ أركان الإسلام بعد الشَّهادتين، وتَرْكهما جميعًا مُوجِب للكُفْر،

وأمَّا تَرْكُ واحِدة منهما؛ فالصلاةُ: الصحيح أنه يَكفُر، والزكاةُ: الصحيح أنه لا يَكفُر.

قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾: ﴿هُمْ﴾ مُبتَدَأ و﴿بِٱلْآخِرَةِ﴾ جارٌّ ومجرور مُتعلِّق بـ﴿يُوقِنُونَ﴾، و﴿هُمْ﴾ الثانية يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿هُمْ﴾ الثانية تَأكيد] تَأكيد لفظيٌّ لـ﴿هُمْ﴾ الأُولى.

قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَمَا مِنَ التَّوْكِيدِ لَفْظِيٌّ يَجِي   مُكَرَّرًا كَقَوْلِكَ: ادْرُجِي ادْرُجِي[1]

قوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ المُراد بالآخِرة يوم القِيامة، وسُمِّيَ آخِرة؛ لأنه آخِرُ ما يَكون، فالإنسان له أَربَع مَراحِلَ:

المَرحَلة الأُولى: في بَطْن أُمِّه.

والمَرحَلة الثانِية: في الدنيا.

والمَرحَلة الثالِثة: في البَرزَخ.

والمَرحَلة الرابِعة والأخيرة: يَوم القِيامة.

وقوله تعالى: ﴿بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ الإيمان بالآخِرة ليس مَعناه أن تُؤمِن بأن القيامة ستَقوم فقَطْ، قال شيخ الإسلام ابن تَيميَّةَ رَحِمَهُ اللَّهُ في العَقيدة الواسِطية[2]: «وقد دَخَل في الإيمان باليوم الآخِر: الإيمان بكلِّ ما أَخبَر به النبيُّ ﷺ ممَّا يَكون بعد الموت»، فيَشمَل فِتْنة القَبْر، وعذاب القَبْر، ونعيم القَبْر، والصِّراط، والحِساب، والميزان، والكُتُب التي تُنشَر يوم القيامة، وغير ذلك.

---

(١) الألفية (ص٤٦).

(٢) العقيدة الواسطية (ص٩٥).

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن إقامة الصلاة من الإحسان؛ لأن ما بعدَها بيانٌ لها: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن الصلاة أَحبُّ الأعمال إلى الله تعالى؛ لأن الله تعالى قدَّمها على إيتاء الزكاة مع أن إيتاء الزكاة فيه نَفْع مُتَعدٍّ للغير، ولكن الصلاة أَحَبُّ إلى الله تعالى منها وأفضَلُ.

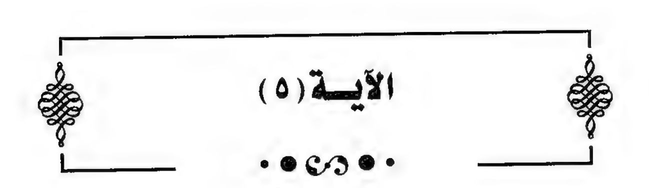
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الحثُّ على إقامة الصلاة، يُؤخَذ ذلك من: ثَناء الله تعالى على المُقيمين لها، والثَّناء لا يَكون إلَّا على فِعْل شيء محبوب مَرغوب من الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فَضْل إيتاء الزكاة، وأنها تَلِي الصلاةَ في الفضيلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: الثناء على مَن أَيْقَن بالآخِرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات البَعْث.

• • ۞ • •



قَالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ [لقمان:٥].

القرآن الكريم أحيانًا يُكرِّر الآياتِ بعيْنها، فهذه الآيةُ مُكرَّرة في سورة البـقَرة، وإن كان فيها اختِـلاف يَسيرٌ في الآية الأُولى التي قبـلها، أمَّا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ فهي آية واحِدة.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡ﴾ أَتى بـ﴿عَلَىٰ﴾ الدالَّة على الاستِعْلاء، يَعني: أنهم على هُدًى يَسيرون عليه، وهم به عالون مُرتَفِعون؛ لارتِفاع مَرتَبتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ هذه الجُملةُ جُملة اسمِيَّة مُؤكَّد خبَرها بضمير الفصل، وهو قوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾، فإنَّ ﴿هُمُ﴾ ضمير فَصْل، وضَمير الفَصْل يُفيد ثلاث فَوائِدَ:

الفائِدةُ الأُولى: الفَصْل بين الصِّفة والخبَر.

والفائِدةُ الثانِية: الحَصْر.

الفائِدةُ الثالِثة: التوكيدُ.

فإذا قلت: (زَيْدٌ القائِمُ)، هذا: مُبتَدَأ وخبَر، لكن يُحتَمَل أن تكون (القائِمُ) صِفةً لـ(زَيدٌ) وأن الخبَر مُنتَـظَر: (زَيدٌ القائِمُ فاضِلٌ) مثلًا، فإذا قلت: (زيدٌ هو القائِمُ)،

تَعـيَّن أن تَكون (القائِمُ) خبرًا، ففَصَلت الآن بين الصِّفـة والخبَر، كذلك إذا قلت: (زَيدٌ هو القائمُ)، فإنه يُفيد الحصْر، (زَيْدٌ هو) يَعنِي: لا غيره هو (القائِمُ)، كذلك إذا قلت: (زَيْدٌ هو القائِمُ)، أَبلَغُ في التوكيد من قولك: (زيدٌ القائِمُ).

فهنا قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ يَعنِي: لا غيرهم، والمُفلِح يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هو الفائِزُ] والفائِزُ هو السَّعيـد، والمُفلِح يَقولون: إنه مَن أَدرَك المَطـلوب ونجا من المَرغوب، فحصَل له ما يُريد وسلِم ممَّا لا يُريد.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن المُتَّصِفين بما تَقدَّم همُ الذين على الهُدَى، فيَتَفرَّع على ذلك: أن مَن خالَف فيما تَقـدَّم فليس على هُدًى، وأنه فاتـه من الهُدى بقَدْر ما فاته من العمَل واليَقين.

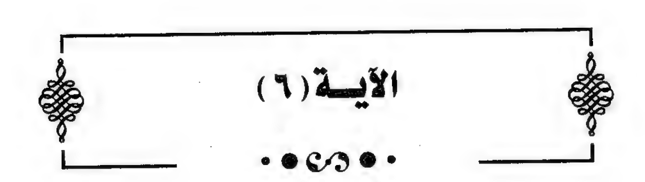
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إظهار فَضْل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على هَؤلاءِ الفُضَلاءِ؛ لقوله تعالى: ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الإشارة إلى أن رُبوبية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نوعان: عامَّة، وخاصَّة؛ فالعامة: لجميع الخَلْق ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، والخاصَّة: للمُؤمِنين.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن بهذه الأَعمالِ الفاضِلةِ الجَليلة والاعتِقادات النافِعة يَحصُل الفَلاح؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنـه لا سَبيلَ إلى الفَلاح إلَّا بذلك؛ وجهُه: الحَصْر في قـوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

• ● ۞ ● •



۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [لقمان:٦].

•●☙❧●•

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾: (مِن) للتَّبعيض، والجارُّ والمَجرور خبَرٌ مُقدَّم، و﴿مَن يَشْتَرِى﴾ مُبتَدأٌ مُؤَخَّر.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَن يَشْتَرِى﴾ مَعنَى الاشتِراء: الاختِيار، يَعنِي: مَن يَختار، وعبَّر عن الاختِيار بالاشتِراء إشارةً إلى حِرْصهم على هذا الأَمرِ؛ لأن الاشتِراء إنما يَكون بالمُعاوَضة، فكأنهم لقُوَّة اختِيارهم هذا الشيءَ بذَلوا فيه أموالهم ليَنالوه.

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ الفَرْق بين (يَشتَري) و(يَشْري) أن (يَشرِي) بمَعنَى: يَبيع، و(يَشتَرِي) بمَعنَى: يَبتاع، وعند الناس أن الشِّرَى هو الاشتِراء، وليس كذلك، قال الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ يَشرِي نفسه يَعنِي: يَبيعُها، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [التوبة:١١١]، اشترَى أَنفُسَهم فهم بائِعون.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: ما يُلهِي منه عمَّا يَعنِي] ﴿لَهْوَ﴾ مُضافة إلى ﴿ٱلْحَدِيثِ﴾ من باب إضافة الشيء إلى نَوْعه، فالإضافة على تَقدير (مِنْ) كما يُقال: ثُوبُ خَزٍّ، ثوبُ صُوفٍ، خاتَمُ حَديدٍ، خاتَمُ فِضةٍ، وما أَشبَه ذلك؛ فهي على

تَقدير (مِنْ) وهكذا كلَّما أُضيف الشيء إلى نَوْعه فالإضافة فيه على تَقدير (مِنْ).

إذَنْ: ﴿لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ أي: لَهْوًا من الحديث، واللَّهْو كل ما يُلهَى به، والذي يُلهَى به أَغلَبُ ما يَكون في الشيء الباطِل، وقد يُلهَى بالخير عن الشَّرِّ، لكن أَكثَر ما يُطلَق اللهو في مَقام الذَّمِّ، وكل لَهْوٍ يَلهو به ابنُ آدَمَ فهو باطِل، إلَّا مُداعَبة أهله، وتَرويض فرَسه، وما أَشبَه ذلك مِمَّا يَكون فيه مَصلَحة، وإلَّا فإن الأصل أن ما يُلهَى به باطِل.

والذي يُلهَى به نوعان: حديثٌ وهو القول، والثاني: فِعْل. أي: حرَكات، والله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ذكَرَ هنا لهوَ الحديث فقال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: ما يُلهَى به عمَّا يَعنِي] كل ما يُلهَى به عمَّا يَعنِي فهو مِن لَهْو الحديث، وأمَّا ما يَعنِي الإنسانَ ولكن يَلهو بالمَفضول عن الفاضِل، فليس هذا من لَهْو الحديث؛ لأن له فائِدةً في اللَّهْو في المَفضول، لكنها فائِدة ناقِصة، ولا شكَّ أن الأقوال مَراتِبُ كما أن الأفعال مَراحِلُ، فلو تَلهَّى الإنسان بحديث فيه فائِدة عن حديثٍ أَفيَدَ منه، فليس هذا من لَهْو الحديث؛ لأن فيه فائِدةً، ليس مُجرَّد لَهْوٍ يَلهو به الإنسان، وإذا كان فيه فائِدة فإننا نَقول لهذا الرجُلِ: إن اختيارك للمَفضول عن الفاضِل يُعتبَر سُوء تَصرُّف منك، والذي يَنبَغي أن تَلهو بالأفضل عن المَفْضول.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(لِيَضِلَّ) بفَتْح الياء وضَمِّها] وأمَّا الضادُ فهي مَكسورة على القِراءَتَيْن: (ليَضِلَّ) أي: هو، و﴿لِيُضِلَّ﴾، أي: يُضِلُّ غيره. وفائِدة القِراءَتين هنا اشتِمال هذا الكلِمةِ على المَعنيَيْن، وهُما: الضلال بنَفْسه وإضلال غيرِه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ طريق الإسلام] والصَّواب أن يُقال:

(طريق الله وهو الإِسْلام)؛ فسَبيل الله تعالى طريقه المُوصِّل إليه، والذي وضَعه هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو الإسلام، فسُمِّيَ سبيل الله أو طريق الله؛ لأنه مُوصِّل إليه، ولأنه سبحانه هو الذي وضَعَه وشرَعه لعِباده؛ ويُطلَق على سبيل المُؤمِنين كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [النساء:١١٥].

ولا تَنافيَ بين الإضافَتين فهو مُضاف إلى الله تعالى؛ لأنه مُوصِّل إليه، وهو الذي وضَعه وشرَعه، ومُضاف إلى المُؤمِنين؛ لأنهم همُ الذين يَسلُكونه، ومثله: الصِّراط، أُضيف إلى السالِكين في قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾، وأُضيف إلى الله؛ لأنه الذي شرَعه ووضَعَه لعِباده: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٣]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ [الشورى:٥٢-٥٣].

قوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ هذا لا يَعنِي أن هناك لَهْوًا يَضِلُّ به الإنسان بعِلْم، فهي إِذَنْ: صِفة كاشِفة مُبيِّنة لحقيقة الأَمْر، أي: أن فِعْله هذا ناشِئٌ عن الجَهْل بالله عَزَّوَجَلَّ، وعن الجَهْل بشَرْعه، وعن الجَهْل بحقيقة ما خُلِق له، إذ كيف تَتلَهَّى بأَمْر لا تَستفيد منه؟! هذا جَهْل بما يَنبَغي أن تَعلَمه؛ لتَعتَبِر به.

ولم يُمثِّل المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، لكن كثيرًا من المُفسِّرين قال: إن المُراد بلَهْو الحديث هو الغِناء، وممَّن قال بذلك ابنُ مَسعود[١] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وكذلك ابنُ عبَّاس[٢] رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، وجماعة، حتى إن ابنَ مَسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يَحلِف فيَقول: واللهِ الذي لا إلهَ إلَّا هو

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ١٠١)، والطبري في تفسيره (١٨/ ٥٣٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (١١/ ١٠١)، والبخاري في الأدب المفرد رقم (٧٨٦)، والطبري في تفسيره (١٨/ ٥٣٥).

إنه الغِناءُ، والغِناء يُنبِت النِّفاق في القَلْب.

وتفسير الصَّحابيِّ حُجَّة، حتى ذهَب الحاكِم[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ وجماعة من أهل العِلْم إلى أن تفسير الصحابيِّ له حُكْم الرَّفْع، يَعنِي: يَكون كالحديث المَرفوع، والصحيح أنه ليس له حُكْم الرفع، إلَّا أن يَكون ممَّا لا مَجالَ للاجتِهاد فيه، فأمَّا مُجرَّد تفسير آية بمُقتَضى اللغة العربية فإنَّ الصحيح أن تَفسير الصحابيِّ ليس في حُكْم الرَّفْع، لكنه مُقدَّم على غيره.

ثُمَّ اعلَمْ أنَّ المُفسِّرين من الصحابة والتابِعين ومَن بعدَهم قد يَذكُرون تفسير الآية على سبيل المِثال، لا على سبيل الحَصْر، فإذا قال ابنُ مَسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن المُراد بلَهْو الحديث الغِناءُ، لا يَعنِي أنه لا يَتَناوَل غيره، قد يَكون هذا على سبيل التَّمثيل فقَطْ.

ويَدُلُّك لهذا قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢]، قال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ في التَّفسير: الظالِمِ لنَفْسه هو الذي يُؤخِّر الصلاة عن وقتها. وقال آخَرون: هو الذي لا يُزكِّي، ثُمَّ قال: ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾: إذَنِ المُقتَصِد هو الذي يَأتِي بالصلاة في آخِر وقتها، وقال آخَرون: هو الذي يُؤدِّي الزكاة المَطلوبة فقَطْ، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ قال بعضهم: هو الذي يُصلِّي الصلاة في أوَّل وَقْتها. وقال آخَرون: هو الذي يُؤدِّي الزكاةَ والصدَقاتِ.

وهذا يَدُلُّ على أن العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ قد يُفسِّرون الآية ببعض الأمثِلة، فلا يُنافِي أن تَكون الآية مُتناوِلة لغيرها، فتَفسير ابنِ مَسعود وابنِ عبَّاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما

---

(١) معرفة علوم الحديث (ص٢٠).

لِلَهْو الحديث بأنه الغِناء، لا يَعنِي أنه يَمتَنِع أن يُراد بالآية ما هو أعمُّ.

وعلى هذا فنَقول: الآية تَشمَل كل لهـوِ حديثٍ لا نَفْعَ فيه من الغِناء، ومنه أيضًا مُطالَعة ما يُكتَب في الصحُف والمَجلَّات من الكلام الهُراء الذي لا فائِدةَ منه فإنه في الحقيقة مَضيَعة للوَقْت، وإذا كان يَشُدُّ الإنسانَ إلى ما هو أبطَلُ، صار أشدَّ.

فعلى كل حال نَقول: لهوُ الحديث كل حديث لا فائِدةَ منه، سواء كان ذلك يَجُرُّ إلى مُحرَّم، أو لا يَجُرُّ إلى مُحرَّم، لكن إن جَرَّ إلى مُحرَّم صار أعظَمَ.

فإذا قال قائِل: الآية يَقول الله تعالى فيها: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أو (لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) وأنت قلـت: إن لَهْو الحَديث كل ما لا نَفعَ فيه، وما لا نَفْعَ فيه قد يُضِلُّ وقد لا يُضِلُّ.

فإننا نَقول: إن الإنسان إذا عوَّد نَفْسه على أن يَشتَغِل بهذا اللهوِ الذي لا نَفعَ فيه جرَّته إلى ما فيه مَضرَّة؛ لأن النفس إمَّا أن تَشغَلها بالحَقِّ أو تَشغَلك بالباطِل؛ واللَّام في قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (لِيَضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) أو ﴿لِيُضِلَّ﴾ هل هي للتعليل أو للعاقِبة؟

الجَوابُ: هي صالِحة للأَمْرين، فإن كان الإنسان يَقصِد بلَهْو الحديث أن يُضِلَّ غيره به، فاللَّام للتَّعليل، وإن كان لا يَقصِد ذلك فاللَّام للعاقِبة، مثال التي للعاقِبة: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، فاللَّام هنا لا شَكَّ أنها للعاقِبة؛ لأنهم ما أَرادوا أن يَكون لهم عَدُوًّا وحزَنًا، إنما أَرادوا العَكْس، إنما العاقِبة صارت كذلك.

فإن قال قائِل: تَفسير اللهوِ بالغِناء، هل هو الغِناء المُحرَّم أم كل الغِناء؟

فالجَوابُ: الغِناء المُحرَّم، أمَّا الغِناء الذي ليس مُحرَّمًا فلا يَدُلُّ في الآية إلَّا إن شغَل عن ما هو أهمُّ منه صار داخِلًا فيه.

فإن قيل: ما ليس فيـه فائِدة مِثْل بعض الأشعار التي لا يُستَفاد منها اللغة العربية، ولا يُستَفاد منها مَوْعِظة أو ترقيق قَلْب، هل يَدخُل في لَهْو الحديث؟

فالجَوابُ: الظاهِر أنها تَدخُل في لَهْو الحديث الذي لا يَنفَع ولا يَضُرُّ، لكنه قد يَجُرُّ إلى ما يَضُرُّ، وإن لم يَكُن من ضرَره إلَّا أنه يُلهِي عمَّا هو أهَمُّ.

ومن لَهْو الحَديث أيضًا: الذي قد يُضِلُّ عن سبيل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ ما يُوجَد في قصائِد الصُّوفية البَريئة من الشِّرْك، وإلَّا بعضها شِرْك -والعِياذُ بالله- بعضها يُفضِي إلى الحُلول، وأن الله عَزَّوَجَلَّ حالٌّ في المخلوقات، وهذا مَعروف شأنه حتى لو كان نَثْرًا، فإنه مُحرَّم.

ولكن بعضها ليس كذلك إلَّا أن بعض الناس يَتَلَهَّى به عن مَواعِظ القُرآن والسُّنَّة حتى يَكون ذلك دَيدَنَه، وهذا لا يَجوز.

ويُوجَد الآنَ ما يُسمَّى بالأناشيد الإسلامية التي استَوْلت على عُقول كثير من الناس حتى صار كأنها يَقرَأ القرآن، فهي دائِمًا على لِسانه وعلى قَلْبه، وهذا ذَكَر شيخُ الإسلام في الفَتاوى[1]: أن ذلك ممَّا يُلهِي عن الكِتاب والسُّنَّة وحذَّر منه تَحذيرًا كثيرًا.

ولكن عندما يَكون عندك مثَلًا ضَعْف وخوَر وكسَل وتُريد أن تَسمَع هذه الأشياءَ؛ لتُرقِّق قلبك هذا لا بَأس به، ولكن قَصْدي بأُولئك الذين اتَّخَذوها دَيْدنًا لهم؛ فالإكثار منها والاشتِغال بها عن مَواعِظ القُرآن والسُّنَّة هو المَحظور.

فإن قال قائِل: إذا كان إنسان قد تَعوَّد على الغِناء فترة، ثُمَّ لمدَّة شَهْر أو شهرين أَراد سَماع الأناشيد للمُعالجة؟

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ٥٩٤).

فالجَوابُ: أمَّا إذا كانت للمُعالجَة، فالإنسان قد يُعالَج بالسَّمِّ القَتَّال، يُمكِن أن يُعالَج بالسَّمِّ، وهذا نحن الآنَ نَراهم يُعطون الناس حُبوبًا وجُرعاتٍ تَكون قاتِلة، لكن يَتَّخِذونها للعِلاج، فإذا لم يَكُن طريق إلَّا هذا فلا حرَجَ، لكن أيضًا تَكون مع الحذَر الشديد.

وإن قيل: قد يَكون صوت الغُلام المُنشِد جميلًا، وقد يَكون أشَدَّ تأثيرًا من صوت النِّساء؟

فالجَوابُ: أنَّ مَسأَلة حُسْن الصوت إن كان يُؤدِّي إلى فَساد وثَوَران شَهْوة فهذا مُحرَّم، وإن كان لا يُؤدِّي ولكنه يَزيد الإنسان استِماعًا، هذا فلا بأسَ منه.

ثُمَّ إن بعض الناس يَجعَل أيضًا مع هذه القَصائِدِ دُفًّا، فيَكون إلى اللَّهْو أقرَبَ منه إلى الذِّكْر.

وبعض الناس يَقول: هذِه أَهْونُ من الأغاني! فنَقول: لست مجبرًا على فعل أحَد الأمرَيْن حتى تقول: أنا مُخيَّر بينَهما فأختارُ أَيْسَرُهما؛ فقد يَفعَلها الإنسان وهو يَشعُر أنه مُذنِب فيُحاوِل الإقلاع، لكن هذا يَفعَله على أنه مُتقَرِّب إلى الله تعالى بذلك فيَستَمِرُّ عليه.

وما هذا إلَّا نَظير هؤلاء الذين يَتحيَّلون على الرِّبا بالخِداع وبيع القماش والهيل وما أشبَهَها، يَقولون: هل هذا أَحسَنُ أمِ الرِّبا الذي في البُنوك؟!

فنَقول: ليس الإنسان مُخيَّرًا بين هذا أو هذا، والحمد لله فهناك أشياءُ مُباحة يَتمَكَّن من فِعْلها دون أن يَفعَل هذه الأشياءَ التي تَصُدُّه عن القُرآن وعن السُّنَّة.

إِذَنِ: الضابِط في لَهْو الحديث هو: كل كلام لا فائِدةَ منه، وأمَّا ما فيه فائِدة

ولكن اشتَغَل به عمَّا هو أَفْيَدُ فليس لَهْوًا، لكنه خِلاف الحِكْمة، إذ إن الحِكْمة أن يَشتَغِل الإنسان بالأفضَل عن المَفضول.

إِذَنْ: لَهْو الحديث هو كل كلام لا فائِدةَ منه، وعاقِبته ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنَّصْب عَطْفًا على (يَضِل)، وبالرفع عَطْفًا على ﴿يَشۡتَرِي﴾] قِراءتان (لِيَضِل عن سبيل الله) ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ يَكون عَطْفًا على (يَضل)، أو ﴿وَيَتَّخِذُهَا﴾ عَطفًا على ﴿يَشۡتَرِي﴾ يَعنِي: ومن الناس مَن يَتَّخِذها هُزوًا، وبينهما فَرْق؛ لأن قِراءة النصِّ تَجعَل الحامِل على مَن يَشتَرِي لهوَ الحديث أمرين: الضلال، واتِّخاذه هُزوًا، وأمَّا على قِراءة الرفع: فإن الحامِل على شِراء لَهْو الحديث شيء واحِد، لكن من الناس أيضًا مَن يَتَّخِذ آياتِ الله تعالى هُزوًا، أي: مَكانًا للاستِهْزاء.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ مَهزوءًا بها] أَشار المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [مَهزوءًا] إلى أن المَصدَر هنا بمَعنَى اسم المَفعول، وهو كثيرًا ما يَأتي في اللغة العربية، يَعنِي: مَهزوءًا بها.

واتِّخاذ آيات الله تعالى هُزوًا له أنواعٌ كثيرة:

١ - منها: أن يَستَهزِئ بالقرآن في نَظْمه وتَرْكيبه.

٢ - ومنها: أن يَستَهزِئ بالقرآن في أَخباره، ويَقول: أساطيرُ الأوَّلين.

٣ - ومنها: أن يَستَهزِئ بالقُرآن في أَحْكامه.

٤ - ومنها: أن يَستَهزِئ بالسُّنَّة.

٥ - ومنها: أن يَستَهزِئ بالرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

٦- ومنها: أن يَستَهزِئ بمَن تمَسَّك بالسُّنَّة، لا لشَخْصه ولكن لعمَله، وهي كثيرة حتى إنَّ بعض أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقول: إنَّ الإنسان إذا صلَّى وهو مُحدِث، فهذا استِهْزاء بآيات الله تعالى؛ ويَقول: إنه إذا عمِل مُبطِلًا من مُبطِلات العِبادة فهو مُستَهزِئ بآيات الله تعالى.

وعلى كل حال: كل مَن حوَّل آياتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إلى هُزءٍ بالقَوْل أو بالفِعْل أو بالهَيْئة، فإنه يُعتبَر مُتَّخِذًا لها هُزؤًا.

والاستِهْزاء بآيات الله عَزَّوَجَلَّ ليس بالأمر الهَيِّن، حتى إنَّ أهـل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقـولون: مَن قال كُفْرًا أو فعَل كُفْرًا ولو هازِلًا فإنه يَكفُر، واستَـدَلُّوا لذلك بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: (أُولاءِ) اسمُ إشارة للجَمْع، مع أن الضمائِر التي قَبلها للمُفرَد ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي﴾ ﴿لِيُضِلَّ﴾ ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ فهي للمُفرَد، وهنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ﴾ جمع؛ لأن ﴿مَن﴾ اسمٌ مَوْصول تَصلُح للمُفرَد والجماعة، فإن أَفرَدت ما يَعود عليها صِرْت مُتَّبِعًا للَفْظها، وإن جمَعْته فأنت مُتَّبِع لمَعناه.

ويَجوز أن تُراعِيَ لفظها أو مَعناها في كل الكلام ويَجوز أن تُغيِّر، انظُرْ إلى قوله تعـالى: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ كل هـذا على سبيل الإفراد التـابع للَّفْظ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ هذا باعتِبار المَعنى، ﴿قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا﴾ [الطلاق:١١] باعتِبار اللَّفْظ، فهي آية واحِدة ومع ذلك غُيِّرت فيها الضمائِر من مُراعاة اللَّفْظ إلى مُراعاة المَعنَى إلى مُراعاة اللَّفْظ.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين يفعَلون هذا الفِعْلَ ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ أَتى بـ﴿لَهُمۡ﴾ -وهو الخبَرَ- قبل المُبتَدَأ لإفادة الحَصْر، وأَتى بالجُمْلة الاسْمِية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ﴾ لإفادة الثُّبوت والدوام والاستِحْقاق لهذا العَذابِ.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ﴾ العَذاب بمَعنَى: العُقوبة، و﴿مُّهِينٞ﴾ أي: ذو إهانة. يَعنِي: يُهينهم -والعِياذ بالله- فلَمَّا كانوا يَستَعِزُّون بأنفُسهم، ويَسخَرون بآيات الله تعالى حتى يَضَعوها عن مَكانها اللائِق بها عُوقبوا بمِثْل جِنايتهم، ودائِمًا: الجزاء من جِنْس العمَل في الدُّنيا والآخِرة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ وزِيادة بعدها: ﴿وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾ [محمد:٧] قال ﷺ: «ارْحَموا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[1] مِثْلًا بمِثْل، وعلى هذا فقِسْ.

فالجَزاءُ من جِنْس العمَل، فهذا الرجُلُ الذي اتَّخَذ آياتِ الله تعالى هُزوًا غرَضُه من ذلك أن يَضَعها بين الناس، وأن يَجعَلها محَلَّ سُخرية، غير مَعبوءٍ بها، ولا مُهتَمٍّ بها، فصار جَزاؤُه- والعِياذ بالله- أن الله تعالى يَجزيه بالعَذاب المُهين الذي يُهينه ويُذِلُّه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: ذَمُّ مَن يَركَن إلى لَهْو الحَديث، وهو ما لا خَيرَ فيه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي...﴾ إلى آخِره.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: تَحريم الغِناء؛ لِأنَّ ابنَ مَسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أَقسَم بالذي لا إلهَ إلَّا هو

(١) أخرجه الإمام أحمد (٢/ ١٦٠)، وأبو داود: كتاب الأدب، باب في الرحمة، رقم (٤٩٤١)، والترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة الناس، رقم (١٩٢٤)، من حديث عبد الله ابن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

أَنَّه الغِنـاء، وتَفسيرُ الصحابِيِّ حُجَّـة، حتى ذهَب الحاكِم وجماعة مِن أهـل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ إلى أنَّ تَفسيرَه في حُكْم المَرفوع، ولا شَـكَّ أنَّ الغِناء المُشْتَمِل على آلَةِ اللَّهْو لا شَكَّ أنَّه حرام؛ لأن نَفْس آلة اللَّهْو حرام، قرَنَها رسول الله ﷺ بالزِّنا والخَمْر والحَرير، فقال -كما في صحيح البخاري مِن حديث أبي مالِك الأشعريِّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لَيَكُونَنَّ أَقْوَامٌ مِنْ أُمَّتِي يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ وَالحَرِيرَ وَالخَمْرَ وَالمَعَازِفَ»[1] فكلِمة «يَسْتَحِلُّونَ»، دليل على أنَّها حرام، واستِحْلالهم لها إمَّا باعتِقادِهم أنَّها حلال، وإمَّا بفِعـلِهم إيَّاها فِعلَ المُسْتَحِلِّ لهـا الذي لا يُبـالي، والمَوجود الآنَ الأمران، فـإنَّ مِن الناس مَنِ استَحَلَّ هذه المَعازِفَ -والعِياذ بالله- وقال: إنها حلال، ومِنهم مَن يَعتَقِدُ تَحريمها، لكنه يَفعَلها فِعْل المُستَحِلِّ لها بدون مُبالاة.

ولا يَغُرَّنَّكُم ما وقَـع فيه الناس اليـومَ مِن الانهِماك بِها، فإنَّه أَصبَـحَ لها تأثيرٌ عظيم على قُلوبِهم ودِينِهم وسُلوكِهم، وانظُرْ إلى المُبْتَلَيْنَ بهذا الأمرِ -والعِياذُ بالله- يَكون ما هَمُّهُم إلَّا هذا الأمرُ، وهُم أَبعَدُ الناس عن مَعرِفة القُرآن والسُّنَّة ومَواعِظ القُرآن والسُّنَّة.

ولهذا ذَكَر بعضُ أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أنَّه لا يَجتَمِع حُبُّ الغِناء، وحُبُّ كِتابِ الله عَزَّوَجَلَّ، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

حُبُّ الْكِتَابِ وَحُبُّ أَلحَانِ الْغِنَـا ... فِي قَلْبِ عَبْـدٍ لَـيْسَ يَجْتَمِعَـانِ[2]

ولهذا قال هنا: ﴿يَشْتَرِي لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) أخرجه معلقًا البخاري: كتاب الأشربة، باب فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه، رقم (٥٥٩٠)، من حديث أبي عامر أو أبي مالك الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) النونية (ص٣٢٦).

والغِناء بدون آلَةٍ إن اشتَمَل على مُحرَّم فهو حرام، وقد يَصِل إلى حَدِّ الشِّرْك، كما لو اشتَمَل على الغُلُوِّ في مَدْح أحدٍ غُلُوًّا يَصِل به إلى درجة الخالِق، وقد يَكون مُحَرَّمًا وفِسْقًا كما لو اشتَمَل على تحقيق الفِسْق والمُجُون وما أَشبَهَ ذلك، وقد يَكون مُحَرَّمًا تَحريمَ الغِيبَة كما لو كان يَسُبُّ شَخْصًا مُعَيَّنًا، المُهِمُّ أنَّه درجات.

أمَّا إذا كان مُباحًا فإنَّه لا شَكَّ أنه مِن اللَّهْوِ، لكنَّه إذا استُعِين به على شيء مُباح فلا حرَجَ فيه، مِثْل: غِناء العُمَّال الذين يُغَنُّون لِأَجْل أن يَتقَوَّوْا على ذلك، وقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في حَفْرِ الخَندق يَرتَجِزون، والرسول ﷺ يُجيبهم، يَقولون:

نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعُوا مُحَمَّدَا ... عَلَى الْجِهَادِ مَا بَقِينَا أَبَدَا

والرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُجيبُهُم ويَقول:

اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الْآخِرَهْ ... فَارْحَمِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَهْ[(١)]

الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَنقُل التُّراب ويَرْتَجِزُ بقول عبد الله بنِ رواحةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

اللَّهُمَّ لَوْلَا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الْأَقْدَامَ إِنْ لَاقَيْنَا

إِنَّ الْأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

قال البَراءُ بنُ عازِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راوِي الحديث: «يَمُدُّ صوتَه بِآخِرِها»[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب حفر الخندق، رقم (٢٨٣٥)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٥)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم (٤١٠٦)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب غزوة الأحزاب، رقم (١٨٠٣).

فهذا لا بأسَ به لِما فيه مِن الإعانَة على العمَل.

ومِنه حُداءُ الإبِل فَإِنَّه كان يُحْدَى بين يَدَي الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الإبِل؛ لأنَّ حُداءَ الإبِل يَزيدُها مَشْيًا فتُسرِع، فإنهم يَذكُرون مِن أحوالها أَشياءَ عَجيبة عندما يَحدو الحادِي إذا كان حَسَن الصوت تَمشِي مِن غير شُرُود؛ ولهذا كان الرسول ﷺ يَقول: «**يَا أَنْجَشَةُ رِفْقًا بِالْقَوَارِيرِ**»[1] يَعنِي: بِالنساء، وشَبَّهَهَا بالقوارير لِأَجْل أن يَرْفُقَ بِها أكثَرَ؛ لأنَّ القوارِير مَع الحرَكة تَتكَسَّر.

فالحاصِلُ: أن نَقول: إن الغِناء له الأحوال له التي ذُكِرت، إنِ اقتَرَن بآلة لَهْو كما هـو المَوجود الآنَ فهو حرام ولا شَكَّ فِيـه؛ لأنَّه داخِل في حديث أبي مالـك الأشعريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي رواه البخاري[2] رَحِمَهُ اللَّهُ فهو حَرام لا رَيبَ فيه، وإذا خَلا فهو على حَسَب الحال.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ لَهْو الفِعْل أيضًا لا يَجوز التَّساهُل فيه، ويُؤْخَذ ذلك مِن قوله تعالى: ﴿لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ﴾ فإنَّ القِياس أنَّ لَهْو الفِعْل كذلك؛ لأنَّ الكُلَّ لَهْوٌ وضَياعُ وَقْتٍ.

وعلى هذا فالألعاب التي لا تَزِيد الإنسان نَشاطًا ولا قُوَّةً، ويَضيع بها الوقت تَدْخُلُ في هَذا.

مسألة: الشِّطْرَنْج فيه خِلاف بين أهل العِلْم رَحِمَهُمُ اللَّهُ، والصَّحِيح أنَّه حرام.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب ما يجوز من الشعر والرجز، رقم (٦١٤٩)، ومسلم: كتاب الفضائل، باب في رحمة النبي ﷺ للنساء، رقم (٢٣٢٣)، من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه معلقًا البخاري: كتاب الأشربة، باب فيمن يستحل الخمر ويسميه بغير اسمه، رقم (٥٥٩٠)، من حديث أبي عامر أو أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد ادَّعى بعضُهم: أنَّ الشطرنج تَشْحَذُ الأَذْهان، واعتَرَض عليه آخَرُ، فقال: إنَّ الذين يَلعَبونها مِن أبلَدِ الناسِ أَذْهانًا؛ لأنَّهم لا يَعرِفون أشياءَ زائِدةً عمَّا يَتعلَّق بهذه اللُّعبةِ، فهم بُلَداءُ فيما سِواها؛ ولهذا لو نَاقَشْتَهم في أمور لا تَتعلَّق بهذه اللُّعبةِ لوجَدْتَهم من أبلَدِ الناس؛ لأن أفكارَهم انحَصَرَت في هذه اللُّعبةِ؛ فأينَ ما يُقال: إنه شَحْذ لِلذِّهْن؟!.

فالمُهِمُّ: أنَّه يُؤخَذ مِن فَحوى الآية الكريمة: أنَّ لهْو الفِعْل كَلَهْوِ الحَديث.

فإن قال قائِل: هل الكُرَةُ تَدخُل في هذا أو لا؟

فالجَوابُ: أنَّ الكُرَة لا تَدخُل هنا؛ لأنَّ الكُرَة فيها رِياضة بدَنِيَّة إلَّا إذا ترتَّب عليها محذُور شَرعي مِن تَرك واجبٍ أو فِعل محرَّم، أو كانَت تَشتَمِل على كَشْفِ العَورة، كما لو كانوا مثَلًا يُبْدُون أفْخَاذَهم، فإنَّ تكون محرَّمة؛ كالبَيع والشِّراء - الذِي هو جائِز بالإِجْماع- إذا أَلْهى عَن واجِب صارَ حرامًا، لكن إذا انتَفَت عن المَحظُور فلا أَرَى بِها بأسًا؛ لأنَّها تُفِيد البَدَن.

لكن في بعض الأحيان تَكون الكُرَة مُغالَبة بين فريقَيْن يَنتَميان إلى نادِيَيْن، ثُمَّ إذا غُلِبَ أحدُهما بدَأَ الآخَرون يَحذِفون بالحِجارة أحيانًا ويُكَسِّرُون السيَّاراتِ، فهذه رُبَّما نَقول: مِن هذه الناحيةِ قد تَكون مُحَرَّمَة؛ فيَحدُث هذا ممَّن يَنتَمون إلى النَّوادِي حسبَ ما سَمِعت، وبعضهم قد يَكون مُعْتَدِلًا ولا يَحصُل مِنه هذا الشيءُ.

لكن افرِضْ أنَّ جماعة مِن الناس خرَجوا إلى نُزْهة، وكان عندهم فَراغ مَثَلًا، وأَرادوا أن يَفعَلوا هذه، فلا نَقول: هذا حرام.

المُهِمُّ: أنَّها في الأصل هي مُباحة، فإنِ اقترَن بها ما يَقتَضِي التَحْرِيم حُرِّمت،

فكل المُبـاحات إذا اقترَن بها ما يَقتَضي التحريم تَكون حرامًا، وإذا اقـتَرَن بها ما يَقتَضي الوجـوب صارت واجِبًا؛ لأن المُبـاح لِذَاته قد تَتَعَلَّق به الأحكام الخَمْسة كما هو مَعروف.

وأنا أُحِبُّ أن نَفهَم القواعد، فـ(تَحرِيم الحلال أشَدُّ من تَحليل الحرام)؛ لأن الله تعالى يُحِبُّ أن يُيَسِّر على عِباده ويُوسِّع لهم، فلا يُمكِن أن نُقدِم على شيء ونَقول: هو حـرام إلَّا بالدليل؛ لأننا مَسؤُولون عن هذا يوم القِيامة، مَسؤُولون عن نِسبته إلى الله تعالى أنَّ الله تعـالى حرَّمه، ومَسؤُولون عن التَّضييق على عِبـاد الله تعالى فيما أَباحَه الله تعالى لهم، فالمَسأَلة ليست هَيِّنةً.

ولْنكُن مُعتَـدِلين لا نَميل إلى قـول مَن يَقـول: إن الكُرَة تَصِل إلى درجـة الاستِحْبـاب أو الوُجوب. ولا إلى قول مَن يَقـول بالتَّحريم مُطلَقًا، نَقول: هي في الأصل مُباحة. هذا رَأْيِي، وإنِ اقترَن بها ما يَقتَضي التحريم صارت حَرامًا وإلَّا فَلا.

فإذا تَضَمَّنت إشغال الإنسان عمَّا هو أهَمُّ، أو عن واجِب لا شَكَّ أنَّها حرام، عمَّا هو أهمُّ خِلَاف العِقْل فيها نوع مِن السَّفَه، ولكن لا نَقول: حرام؛ لأنَّ الإنسان يَجُوز أن يَشتَغِل بما ليس بأَهَمَّ عن الأهَمِّ إذا لم يَكُن واجِبًا.

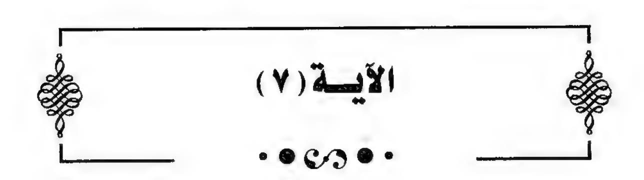
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ذَمُّ كُلِّ ما يَصُدُّ عن سبيل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ثُمَّ إن كان يُضِلُّ عن واجِب صار حرامًا، وإن كان يُضِلُّ عن مُسْتَحَبٍّ لم يَكُن حرامًا، لكنَّه يُذَمُّ بلا شكٍّ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: تَحريم الهُزْء بآيات الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾، والاستِهْزاء بآيات الله تعالى حُكْمُه الكُفْر، فمَنِ استَهْزَأ بآيات الله تعالى فهو كافِر

بِنَصِّ القُرآن: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة:٦٤-٦٥] وماذا قال؟ قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، فهو صَريح في الكُفْر؛ ولهذا قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُٱللَّهُ: إنَّ مَن قالَ قَوْلَ الكُفْر ولو كان هازِلًا أو مازِحًا فهو كافِر، فمَن سبَّ الله تعالى أو رسولَه أو دِينَه ولو كان هازِلًا فهو كافِر، يَعنِي أن هذا -والعِياذ بالله- أَعظَمُ مِن أن يَسُبَّهُ جادًّا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الوعيدُ الشديد على مَن هذه حالُه؛ لِقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.

• ● ۞ ● •



الآية (٧)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [لقمان:٧].

•••

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا﴾ أي: القرآن ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ مُتكبِّرًا ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ﴾ أي: تُقرَأ عليه آياتُنا من أيِّ إنسان: الرسول ﷺ أو الصحابة أو التابِعين أو أيِّ إنسان.

فإذا قُرِئت عليه آياتُ الله تعالى فإنه يُولِّي مُستكْبِرًا ويُعرِض، وليس إعراضًا على وجه المُماثَلة، أو إعراضًا لشُغْل آخَرَ، ولكنه يُعرِض مُستكبِرًا، والعِياذ بالله.

والاستِكْبار هنا استِفْعال من الكِبْر، والسين والتاء فيه للمُبالَغة، وليسَت للطلَب؛ لأنَّ السين والتاء تارةً تكون للطلَب كقولك: أَستَغفِر الله. أي: أَطلُب مَغفِرته، وتارةً تَكون للمُبالَغة مثل: استكبَر، فهنا ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ أي: مُبالِغًا في كِبريائه -والعِياذ بالله- وإعراضه عن آيات الله تعالى.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ هذا تَشبيه في مَوضِع الحال، يَعنِي: كحال الذي لم يَسمَعها في عدَم الانتِفاع بها، لكنه أَخبَثُ منه؛ لكونه ﴿وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾ فالذي لم يَسمَعها قد يَكون مَعذورًا، لكن مَن سمِعها وولَّى مُستكبِرًا فهو كالذي لم يَسمَعها

باعتِبار عدَم الانتِفاع، لكنه أشَدّ باعتِبار تَولِّيه مُستكبِرًا.

ثُمَّ قال: [﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ صَممًا] الوَقْر: الصمَم، كأن الصمَم يَسُدُّ الأُذُن، فليس المعنى أنه -والعِياذُ بالله- لم يَسمَع الآياتِ، بل كأن أُذُنه التي هي مَحَلُّ السَّمْع غير مُستَعِدَّة للسَّمْع فهو لم يَسمَع، وليس عنده آلة سَمْع، كأن في أُذُنيه وَقْرًا.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وجُمْلَتا التَّشبيه حالان من ضمير ﴿وَلَّىٰ﴾، أو الثانية بَيانٌ للأُولى] إنها هُما في مَحَلِّ نَصْب على الحال من فاعِل ﴿وَلَّىٰ﴾، يَعنِي: ولَّى مُستكبِرًا، مُشابِهًا لَمن لا يَسمَع، ومُشابِهًا لَمن في أُذُنَيْه وَقْر.

وهذا في غايـة ما يَكون من بيان حال هذا الرجُلِ في إعراضه، وعدَم انتِفاعه بآيات الله تعالى.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ البُشرى إذا أُطلِقت فهي بخير، وإن قُيِّدت بالخَيْر صار ذلك تَأكيدًا، كما قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [البقرة:٢٥]، وإن قُيِّدت بالشَّرِّ فهي للشَّرِّ.

فالبُشرَى إمَّا أن تُطلَق أو تُقيَّد:

فإذا أُطلِقت فهي بالخير، مثالُه: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [يونس:٦٣]، ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ [الزُّمَر:١٧].

وإن قُيِّدت بالخير فهي خير، ويَكون ذلك تَأكيدًا مثل: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾.

وإن قُيِّدت بالشَّرِّ فهي للشَّرِّ، لكن هل قيلت فيه على سبيل الحَقيقة، أو على سبيل التَّهكُّم؟

الجَوابُ: المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ وجماعة يَرَوْن أنه قيلت على سَبيل التَّهكُّم؛ لأن الأصل فيها الخير، فإذا قُيِّدت بالشَّرِّ فهو من باب التَّهكُّم به كما في قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩] على القول بأن المُراد: العزيز الكريم في تِلك الحالِ، لا أنك أنت العَزيز الكَريم في الدنيا من قَبلُ.

ولكن قد يَقول قائِل: إن البُشرى إذا قُيِّدت بالشَّرِّ فهي على حَقيقتها، وأن أصل البُشرى من البشَرة، وهي: الإعلام بما يَتغَيَّر به الوجهُ، فإن تَغيَّر بالسرور والانشِراح فهي بالخير، وإن تَغيَّر بالانقِباض والعُبوس فهي في الشَّرِّ، فكل ما كان مُؤَثِّرًا على بشَرة الإنسان فهو بُشرى، لكن هي في الأصل في الخَيْر.

ثُمَّ قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: ﴿أَلِيمٍ﴾ بمَعنَى: مُؤلِم، ففي الأوَّل عَذاب مُهين، ذو إهانة، وفي الثاني عذاب أَليم ذو إيلامٍ؛ لأنه فعَل أفعالًا أعظَمَ من الأوَّل، هذا الأخيرُ إذا تُتلَى عليه آياتُ الله تعالى ولَّى مُستكبِرًا، فهو أَعظَمُ من الذي يَشتَرِي لَهْوَ الحديث، فالأوَّل يُصاب بعذاب مُهين، والثاني يُصاب بعَذاب أليم، والمَوْصوف واحِد في الحقيقة، لكن أحواله مُتغيِّرة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [وهو النَّضر بن الحارِث[1] كان يَأتِي الحِيرة يَتَّجِر فيَشتَري كتُب أخبار الأعاجِم ويُحدِّث بها أهل مَكَّةَ، ويَقول: إن مُحمَّدًا يُحدِّثكم أحاديثَ عادٍ وثمودَ، وأنا أُحدِّثكم أحاديث فارِسَ والرومِ، فيَستَحِلُّون حديثه ويَترُكون استِماع القرآن].

المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ يَقول: [وهو النَّضر]، وتَعيينها بالنَّضْر فقَطْ، لا شكَّ أنه قُصور، **والصواب**: أنها عامَّة له ولغَيْره، وسواءٌ بهذه الطَّريقةِ التي كان يَتَّخِذها هو أو بغيرها

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان رقم (٤٨٣٠)، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

كما سبَقَ لنا في الأمثِلة، فالصواب العُموم، لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ دائِمًا يَخُصُّ القرآن بالعموم، كما تَقدَّم كثيرًا يَحمِل الآياتِ التي تَتحدَّث بالكُفْر والشِّرْك على أهل مكَّةَ دائِمًا.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أنَّ مِن علامات هذا الصِّنْفِ مِن النَّاس إعراضَهم عن سَماعِ آياتِ الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذا الذي تُتْلى عليه آياتُ الله تعالى وهو قدِ اشتَرَى لَهْوَ الحديث يَكون -والعِياذُ بالله- كالإنسان الذي به صمَمٌ لا يُمكِن أن يَصِل إلَيْه سماعُ الحقِّ؛ لقولِه تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: الوعيدُ الشديدُ على مَن إذا تُلِيَت عليه آياتُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وَلَّى مُستكْبِرًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: ثُبوتُ المَدْح والثَّناء لِمَن كان على العكس مِن ذلك؛ لأنَّ الذمَّ على صِفَة يَقتَضي مَدْح مَن اتَّصَف بِضِدِّها، وهذه قاعِدة مُفيدة، فيُؤْخَذ مِنه: مَدْح مَن إذا تُلِيَت عليه آيات الرحمن أَقْبَل إليها واستَمَع إليها؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان:٧٣] لم يَخِرُّوا صُمًّا؛ يَعنِي: ولا عُمْيانًا، وإنما يُقبِلُون إليها بآذان سامِعة، وأَعيُنٍ مُبصِرة.

فإذا قال قائِل: هل مِن الإعراض عن آيات الله تعالى مَن يَقُول للقارِئ: انْتَهِ مِن القِراءة؟

فالجَوابُ: لا، بمَعنَى أنك إذا جعَلْت واحِدًا يَقرَأ عليك، ثُم قُلْت: يَكفِي،

ليس مِن هذا؛ لأنَّه قد ثبَت عن النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنَّه قال لابن مَسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اقْرَأْ عَلَيَّ»، فقال: يا رسول الله أَقرَأُ عليـك القرآنَ وعليك أُنزِلَ! قال: «نَعَمْ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فتَلا عليه سورة النساء، فلما بلَغ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء:٤١] قال: «حَسْبُكَ» يَعنِي: قِفْ، يَقول رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فرَأَيْتُ النبيَّ ﷺ عيناهُ تَذْرِفانِ[1].

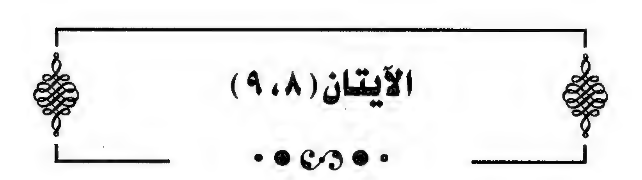
وعلى هذا فيَجوز للإنسان أن يَقـول للقارِئ: أَوْقِفِ القِراءةَ، كما يَدُلُّ أيضًا على جواز غَلْق (الراديو) إذا كان يَقرَأ القرآن، ولا حرَجَ عليـه، وكذلك أيضًا في المُسَجِّل، حتى وإن كان يَتْلو في وسَط القِراءة.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ البِشَارة تُطلَق على ما يَسُوء؛ لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

• ● ۞ ● •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾، رقم (٤٥٨٢)، ومسلم: كتاب صلاة المسافرين، باب فضل استماع القرآن، رقم (٨٠٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآيتان (٨، ٩)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [لقمان:٨-٩].

• • ⁂ • •

وهذه طريقة القرآن إذا ذكَر آياتِ الوَعيد وصِفات مَن يَستَحِقُّون ذلك الوعيدَ، ذكَرَ بعدها آياتِ الوَعْد وصِفاتِ مَن يَستَحِقُّ ذلك الوَعدَ.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ والإيمان مَحلُّه القَلْب، يَعنِي: آمَنوا بما يَجِب الإيمان به، وهو كما قال الرسول ﷺ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»(١).

وقوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يَعنِي: الأعمالَ الصالحاتِ، والعمل الصالح هو كل ما جمَع بين شَرْطين: الإخلاص لله تعالى، والمُتابَعة للرسول ﷺ، ولا يَدخُل في ذلك التَّرْكُ، فالذي لا يَزنِي لا نَقول: إنه عمِل.

إذَنْ: مُجـرَّد التَّرْك في الحقيقة ليس بعمَل، لكن إذا اقترَن به نيـة صار عمَلًا؛ لأنه إذا اقترَنَت به النية صار كفًّا للنَّفْس، والكفُّ عمَل؛ ولهذا جاء في الحديث: «**مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ حَسَنَةً كَامِلَةً**»(٢)، لكنه ذكَر عِلَّتها، فقال: «**إِنَّهُ تَرَكَهَا**

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه ابن منده في الإيمان رقم (٣٧٦)، والبيهقي في شعب الإيمان رقم (٦٦٤٥)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مِنْ جَرَّائِي»، أي: من أَجْلي.

فهذا هو الفَصْل في الخِلاف: هل التَّرْك فِعْل وعمَل أم لا؟ نَقول: التَّرْك ليس بفِعْل ولا عمَل إلَّا إذا اقترَن به نِيَّة، فإنه إذا اقترَن به نِيَّة صار فيه كفٌّ للنَّفْس، وحينئذ يَكون بهذا الاعتِبار عمَلًا.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾: ﴿لَهُمْ﴾ خبَر مُقدَّم، و﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ مُبتَدَأ مُؤَخَّر، والجُملة من المُبتَدَأ والخبَر في محَلِّ رَفْع خبَر (إنَّ).

وقوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ﴾ جَمْع جَنَّة، وجُمِعت باعتِبار أنواعها، وكذلك تُجمَع باعتِبار مَراتبها، والجَنَّة في اللغة هي: البُستان كثير الأشجار، سُمِّيَت بذلك؛ لأنها تَجِنُّ مَن كان فيها. أي: تَستُرُه وتُغطِّيه؛ ولهذا سُمِّيَت جَنَّة.

أمَّا الجَنَّة التي وُعِد المُتَّقون، فإنها: (الدار التي أَعدَّها الله لأَوْليائه، فيها ما لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذُن سمِعَت، ولا خطَرَ على قَلْب بشَر).

فيَنبَغي أن تُعرِّف الجَنَّة التي وُعِد المُتَّقون بهذا، لا يُقال: إن الجَنَّة هي الحائِط الكثير البُستان؛ لأنك إذا قلت هذا في تَعريف الجَنَّة التي وُعِد المُتَّقون لا تَشعُر بأن لها من المَقام والعظَمة ما كنت تَتخيَّله من قبلُ، ولكنك تَقول: (هي دار النَّعيم التي أَعَدَّها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للمُتَّقين، فيها ما لا عَينٌ رأَتْ، ولا أُذُن سمِعَت، ولا خطَرَ على قَلْب بشَرٍ).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، النَّعيم كلِمة جامِعة، تَشمَل سُرور القَلْب، وتَرَف البدَن، فالإنسان مُنعَّم فيها، في ظاهِره وباطِنه، أمَّا في الدنيا فلا يُمكِن أن يَجتَمِع الأمران، فالغالِب أن مَن تَنَعَّم بدنُه فإن قلبه يَغتَمُّ بحُزْن وعَذاب، ومن الناس مَن يُجمَع له بين الأمرين -والعِياذ بالله- أمَّا أهل الجَنَّة فإنهم جمَع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لهم

بين سُرور القَلْب وبين وترَف البدَن.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ حال مُقدَّرة] اعلَمْ أن الحال تَنقَسِم إلى قِسْمين: حال مُقرَّرة، بمَعنَى أن صاحِبها مُتلَبِّس بها الآنَ، وحال مُقدَّرة بمَعنى أنها ستكون لصاحِبها، فهنا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ فهذا وَعْد، وليس خبَرًا، فلم يَقُل: يَدخُلون جَنات النَّعيم، بل وعَدَهم بأن لهم جناتِ النعيم؛ ثُم قال: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، فهل هم خالِدون فيها حال وَعْدهم بها، أو بعد أن يُبعَثوا؟

الجَوابُ: بعد أن يُبعَثوا؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [حالٌ مُقدَّرة؛ أي: مُقدَّرًا خُلودهم فيها إذا دخَلوها] أمَّا الآنَ فليسوا خالِدين فيها؛ لأنهم إلى الآنَ لم يَبعَثوا، ولا وصَلوا إليها، وعليه فنَقول: إنها حال مُقدَّرة، يَعنِي أن صاحِبها لا يَتَلبَّس بها الآنَ.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ الخلود هو: المُكْث، إمَّا الدائِم، وإمَّا الطويل، يَعنِي: أنه قد يَكون مُكْثًا دائِمًا، وقد يَكون مُكْثًا طويلًا، فإذا أُكِّد بالتأبيد وقيل: أبَدًا، فهو قَطْعًا للمُكْث الدائِم؛ لأنه أُكِّد به.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾، والوعد هو: مثل العَهْد، أي: أن الواعِد يَتعَهَّد بالموعود بها وعَده به، ويُقال: وَعْد ووَعيد، فالوَعْد فيما يَسُرُّ، والوعيد فيما يَسوء.

وقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ عِندنا مَصدَران؛ فقوله تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مَصدَر عامِله محَذوف، أي: وُعِدوا وَعْدَ الله، أو وعَدَهم الله وعدَ الله، وأمَّا قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَقًّا﴾ فهي أيضًا مَصدَر، ولكن عامِلها أيضًا محَذوف، التَّقدير: أحقَّه حقًّا، أو حقُّه حقٌّ.

فعليه يَكون الله تعالى أكَّد هذه الجُمْلة الخبَرية بمُؤكِّدين مَعنَوِيَّين:

أحدُهما: أنها وَعْد الله، ووَعْد الله عَزَّوَجَلَّ لا يُخلِف، لأنه لا يُخلِف الميعاد؛ لتَمام صِدْقه وقُدْرته، والإخلاف للوَعْد إنما يَأتي من أَمْرين:

١- إمَّا أن يَكون الواعِد كاذِبًا فليس محلًّا للصِّدْق.

٢- وإمَّا أن يَكون صادِقًا لكن يَعجِز عن الوفاء بما وعَدَ.

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد انتَفَى بحَقِّه الأمران، فهو مُنزَّهٌ عن الكذِب، ومُنزَّهٌ عن العَجْز، فإذا كان مُنزَّهًا عن الكذِب وعن العَجْز لزِم أن يَكون كامِل الصِّدْق والقُدْرة، وحينئذ يَتحَقَّق ما وعَدَ به.

وأمَّا المُؤكِّد الثاني فهو قوله تعالى: ﴿حَقًّا﴾، يَعنِي: أُؤكِّده تأكيدًا وأَحقَّه حقًّا، وهذا من زيادة التَّوْكيد في الوَعْد.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنه الغالِب الذي لا يَمنَعه شيء من تَنفيذ وَعْده ووَعيده] ولكن سبَق لنا أن العِزَّة التي وصَف الله بها نَفْسه لها ثلاثة مَعانٍ: عِزَّة القَهْر، وعِزَّة القَدْر، وعِزَّة الامتِناع.

أمَّا عِزَّة القَهْر: فمَعناها أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الغالِب الذي لا يُغلَب؛ ولهذا يُقال: فُلان عزيز. يَعنِي: غالِب في الجِهاد والقِتال، قال الله تعالى: ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:٣].

الثانِي: عِزَّة القَدْر: بمَعنى أنه ذو قَدْر عظيم.

والثالِث: عِزَّة الامتِناع: بمَعنَى أنه يَمتَنِع عليه النَّقْص، ومنهم قولهم: أرض عِزاز. للأرض القَويَّة الشديدة الصُّلْبة. نحن نُسمِّيها باللغة العامية: (عَزَا) يَعنِي: قوِيَّة صُلْبة.

إِذَنْ: فـ(العزيز): هو المُتَّصِف بالعِزَّة، وعِزَّته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ثلاثة أنواع: عِزَّة قَدْر، وعِزَّة قَهْر، وعِزَّة امتِناع.

فأمَّا عِزَّة القَهْر: فمَعناها أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قاهِر لكل شيء لا يَغلِبه شيء.

وأمَّا عِزَّة القَدْر: فهو كماله في ذاته أنه ذو قَدْر عظيم.

وأمَّا عِزَّة الامتِناع: فهو امتِناعه عن كل نَقْص وعِلَّة.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يَضَع شيئًا إلَّا في محَلِّه] قوله تعالى: ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ تَقدَّم لنا أنه مُشتَقٌّ من الحُكْم والحِكْمة، وأن الحُكْم نوعان: حُكْم كونيٌّ قدَريٌّ، وحُكْم شَرْعيٌّ دِينيٌّ، فما جاءت به الرُّسُل من الأوامِر والنَّواهِي: هذه أحكام شرعية دِينية، وما يَتعلَّق بالخَلْق والتَّكوين؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، فهذا حُكْم كونيٌّ.

ثُمَّ إن هذين الحُكْمين مَقرونان بالحِكْمة، وهي مُوافِقة الصواب، ومُوافَقة الصواب: مَعناها أن يَضَع كل شيء في مَوضِعه، فكل شيء من أَحكام الله تعالى الكونية وأحكامه الشَّرْعية، فإنه في غاية ما يَكون من الصواب وفي غاية ما يَكون من المُطابَقة لمَحَلِّه، فلم يَخلُقِ الله تعالى شيئًا سفَهًا ولا شرَعَ شيئًا سفَهًا، بل كل مَشروعاته فإنها حِكْمة، وكل مخلوقاته حِكْمة.

وتَقدَّم لنا أن الحِكْمة أيضًا نَوْعان: حِكْمة غائِية، وحِكْمة صورية، والصورية مَعناها: أنَّ الشيء على هذه الصُّورةِ المُعيَّنة مُوافِق للحِكْمة، والغائِية مَعناها: أن إيجاد هذا الشيءِ له حِكْمة وغاية محمودة.

من فوائد الآيتين الكريمتين:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أنَّ هـذا القُرآنَ مِن طريقته أنه إذا ذَكَر العـذاب ذَكَر النعيم، وإذا ذَكَر المُؤمِنين ذَكَر الكافِرين، وهكذا؛ لأَنَّه لو ذُكِر الإيمان أو المُؤمِنون ولم يُذْكَر ما يُضادُّه غَلَبَ على الإنسـان جَانِبُ الرجاء، ولو ذُكِرَ التخويف وأهل النار غَلَب عليه جانِبُ الخوف، وهذا يَضُرُّ المرء، وإنَّما يكون المَرْء أَتَمَّ إذا صار يَسير إلى الله عَزَّوَجَلَّ بَيْن الخوف والرجاء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: فَضيلةُ الإيمان والعمَل الصالِح، ويُؤْخَذُ ذلك من قوله: ﴿لَهُمْ جَنَّتُ﴾؛ ووجهُه: أنَّ الثواب بِالحُسنى على العَمَل يَدُلُّ على مَدحِه والثَّناءِ على فاعِلِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الإيمان لا يَكفِي، بل لا بُدَّ مِن عَمَلٍ صالِح، فمُجَرَّد العقيدة لا تَكفِي إذا لم يَكُن عمـلٌ صالِح، بل ربما نَقول: إنَّه إذا لم يَكُن عمَل صالِح فهو دليل على أنَّه لا عَقيدةَ؛ لأنَّ النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقول: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً، إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ**»(١).

لكن مِن الأعمال مَا لا يُخْرِج مِن الإيمان، لا فِعْلُه ولا تَرْكُه، فيَكون من الكبائر لكن لا يُخْرِج مِن الإيمان، وإنَّما يَدُلُّ على ضَعْف العَقيدة والإيمان، ومِن الأعمال ما يَكون فِعْلُه أو تَرْكُه كُفْرًا، فلو أنَّ أحـدًا غلا بِشخصٍ حتى رفَعَه إلى مَنـزِلة الرَبِّ، كان بذلك كافِرًا، وإن كان يَعتَقِد أن الله تعالى مَوْجود، وأن الله لَه الأسباب الكامِلة، ولو أن أحَدًا لم يُصَلِّ كان كافِرًا، ولو كان يَقول: أَشهَدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم (١٥٩٩)، من حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال ابنُ القيِّم [1] رَحِمَهُ اللَّهُ: لا تَغترَّ بِمَن قال: إنَّ رجُلًا يُحافِظ على تَرْك الصلاة، ثُمَّ يَقول: إنه مُؤمِن فإنَّ هذا لا يَدرِي عن أعمال القلوب وشُؤُونِها وأحوالِها، ولا يُمكِن لإنسان يُحافِظ على تَرْك الصلاة ثمَّ يَقول: إنَّه مُؤمِن، لو قال ذلك فهو كافِر، إِذْ إنَّ الإيمان حقًّا لا يَدَعُه يَترُك الصلاة مع عِلْمِه بِفضلِها والوعيد على تَرْكِها.

فكيف تُؤمِن بأنَّ الرسول ﷺ قال: «مَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ» ثُمَّ لا تُصلِّي؟ وكيف تُؤمِن بأنَّ الرسول ﷺ يَقول: «**الْعَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ**» [2] ثُمَّ لا تُصلِّي! فأين الإيمانُ؟ وكيف تُؤمِن بأنَّ هذه الصلاةَ ما فُرِضَت على الرسول ﷺ إلَّا وهو في أعلى مَكان وفي أَشرَفِ ليلة، وبدُونِ واسِطة، وعلى أنَّها خَمسون صلاةً [3]، وكلُّ هذا يَدُلُّ على عِناية عظيمة بهذه الصلاةِ، ثُمَّ لا تُحافِظ عليها، وتَقول: إنَّك مُؤمِن!!.

أَعتَقِد لو أنَّ أحدًا مِن الناس قال له مِلك من المُلوك: إذا زُرْتَني في بيتي أَعطَيْتُك كذا، وإذا لم تَزُرْني عاقَبْتك بِكَذا. ثُم لَمْ يزُرْه هل يَكون عندَه الثِّقة بِما قال هذا المَلِكُ؟ لا يَكون عِنده ثِقَة، لو كان عنده ثِقَة لذهَب بلا شَكٍّ على رأسه لا على رِجْلَيه! فكيف بوَعْدِ الله عَزَّوَجَلَّ ووعيدِه!!.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثباتُ الجَنَّة؛ لِقوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾، وهي مَوْجودة الآنَ، وقد دخَلها النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ورأَى فيها قَصْرًا لِعُمَرَ بنِ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) انظر: الصلاة وأحكام تاركها (ص٦٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٣٤٦)، والترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة، رقم (٢٦٢١)، والنسائي: كتاب الصلاة، باب الحكم في تارك الصلاة، رقم (٤٦٣)، وابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها، باب ما جاء فيمن ترك الصلاة، رقم (١٠٧٩)، من حديث بريدة بن المحصب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم (٣٢٠٧)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، رقم (١٦٤)، من حديث مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ هذه الجَنَّاتِ مُشْتَمِلَة على النعيم الذي هو سُرُورُ القَلْب، وتَرَفُ البدَن، فأبدانُهم في غاية ما يَكون مِن التَّرَف، وقلوبهم في غايةِ ما يَكون مِن السرور؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١] ﴿نَضْرَةً﴾ في أبدانِهم، ﴿وَسُرُورًا﴾ في قلوبِهم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ هذه الجَنَّاتِ جَنَّاتُ خُلْد لا مَوتَ فيها؛ لِقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾، وقد ورَدَ في عِدَّة آيات مِن القرآن ذِكْر التَّأْبِيد لِهذا النعيمِ: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: الآية تَدُلُّ على أنَّه لا مرَض في الجَنَّة، ووجهه قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ لأنَّ المَرَض يُنافي النعيم، وعلى أنَّه ليس فيها شَيْخوخة؛ لأنَّ الشَّيْخُوخَة تُنافِي ذلك أيضًا، وعلى أنَّه ليس فيها هَمٌّ أو كَدَر أو تَنغِيص أبدًا، كُلُّ هذا يُنافِي النعيم، اللهُمَّ اجعَلْنا من أهلها خالِدين فيها.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ هذا الوعدَ حَقٌّ لا يُمكِن أن يُخْلَف؛ لِقولِه تعالى: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾؛ ويُمكِن أن يُستَفاد مِنه: أنَّه لا حُجَّةَ لهم بعد أن أَكَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا الوَعْدَ بهذا التَّأكيدِ، وبعد أَنْ ذكَر أيضًا الوعيد على مَن خالَف.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: فضلُ الله تعالى عَلى عِباده بِكونِه يُؤَكِّد لهم هذه الأمورَ هذه التأكيداتِ، مَع أنَّه جَلَّ وَعَلَا يَكفِي خبَرُه، لكنَّه يُؤَكِّد هذا الخبَرَ وهذا الوعدَ مِن أَجْل أن يَقْوَى الناسُ على الحُصول على هذا النَّعيمِ، وذلك بالإيمان والعمَل الصالِح.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثبات العِزَّة والحِكْمة لله تعالى؛ لِقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، وإثباتُ هذين الاسمَيْن مِن أسماء الله تعالى، وهما: العزيز والحكيم.

• ● ۞ ● •



الآية (١٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان:١٠].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا ﴾ أي: العَمَد جمع عِماد، وهو الأُسطوانة، وهو صادِق بأن لا عَمَدَ أصلًا] قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ جَمْع سَماء، ويُطلَق السماء على كل ما علا، ويُطلَق على السموات ذات الأَجْرام المَحسوسة، والمُراد هنا ذات الأجرام المَحسوسة، خلقَها الله عَزَّوَجَلَّ بغَيْر عمَد.

وقوله: [والعَمَد جَمْع عِماد كالأُسطوانة]، فالعَمود المَعروف، يَعنِي: ليس لها أَعمِدة تَحمِلها؛ وهل المَعنَى أن لها عمَدًا لا تُرى، أو أن المَعنَى أنه لا عمَدَ لها؟

الجَوابُ: فيه اختِلاف؛ فقيل: إنه لا عمَدَ لها، وهو ما جرَى عليه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: [وهو صادِق بأن لا عَمَدَ أصلًا] بمَعنَى أنه يَصلُح أن تَقول: هذا ليس له عمَد تُرى، يَعنِي: إذا انتَفَت رُؤْيتها انتفَتْ هي؛ لأنه لو كانت لرأَيْناها كما نَرى السماء، فلمَّا لم نَرَها فمَعناه: أنه لا وُجودَ لها.

وقال بعضُهم: نعَمْ، هي ليس لها عمَدٌ، لكن الضمير في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَرَوۡنَهَا﴾ لا يَعود على العَمَد، إنها يَعود على السماء؛ قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي: السموات كذلك لا عمَدَ لها.

وقال بعضُ المُفسِّرين: إن مَعنَى قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أن لها عمَدًا، لكن لا تُرى.

والصواب: أنه لا عمَدَ لها، وأن الله عَزَّوَجَلَّ أمسَكها بقُدْرته، كما قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج:٦٥]، فكونها لا يَكون لها عمَدٌ أبلَغُ في قُدرة الله عَزَّوَجَلَّ.

فالآيةُ لها مَعنَيان: الأوَّل: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾؛ أي: لا عمَدَ لها، والثاني: ﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾، أي: لها عمَدٌ، لكن لا تُرى، والمَعنَى الأوَّل هو الصحيح، ولكن المَعنى الأوَّل له تَخريجان:

أحَدُهما: أن يَكون قوله تعالى: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ الهاء تَعود على ﴿السَّمَاوَاتِ﴾ يَعنِي: أنكم تَرَوْنها كذلك لا عمَدَ لها، فهي لا عمَدَ لها.

والثاني: يَعود على العمَد، أي: بغَيْر عمَد تَرَوْنها، وهو صادِق بأنه ليس لها عمَد أَصْلًا كما تَقول: ليس في هذا المكانِ عَمود أَراه. المَعنى: ليس فيه عَمود.

وهذا -أَعنِي: كونَه لا عَمدَ لها- أصَحُّ وأبلَغُ في قُدْرة الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جِبالًا مُرتَفِعة] ﴿وَأَلْقَى﴾ بمَعنَى: وضَع ﴿فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جَمْع راسِية، وهذه الرَّواسِي هي: الجِبال.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات:٣٢]، فهي رَواسٍ لنَفْسها، وهي أيضًا مُرْسِية للأرض مُثبِّتة لها.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿أَن﴾ لا ﴿تَمِيدَ﴾ تَتَحرَّك ﴿بِكُمْ﴾] فقَدَّر (لا) النافية بعد (أَنْ)، وهذا مَوْجود، فإنَّ (لا) النافيةَ قد تُقدَّر بعد (أَنْ) مع حَذْفها؛ وقد تُوجَد بعد (أَنْ) وهي زائِدة مثل قوله تعالى: ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾، فهنا (لا) زائِدة بعد (أَنْ)، والتقدير: لأَنْ يَعلَم أهل الكتاب أَنْ لا يَقدِرون.

وقد تُحذَف وتَكون مُقدَّرة كما في هذه الآيةِ: أن لا تَميد بكم؛ لأنَّهُ مِن المعلوم أنَّ الله تعالى ما أَلقَى هذه الرواسِيَ لِأَجْل أن تَميدَ بنا، وإنما أَلقاها لئَلَّا تَميد، فتكون (لا) هنا عيَّنَها السِّياق.

وقال بعض المُعْرِبين: أنه لا تُقدَّر (لا)، بل يُقدَّر اسمٌ مُناسِب، أي: كراهةَ أن تَميدَ بكُمْ، نعَمْ، وقالوا: إنَّ هذا أَوْلى؛ لئلا نُفسِّرَ الإثباتَ بالنفيِ؛ لأننا إذا قلنا: التقدير: أن لا تَميد بكم. فسَّرنا الإثباتَ بالنفيِ، فإذا قُلْنا: كراهةَ أن تَميد بكم. فإننا نُفسِّر الإثباتَ بإثباتٍ، لكن على تَقدير المُضاف.

وهذا له نظير مِثْل قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ﴾ [النساء:١٧٦]، فالبَيان هنا سببٌ لِعـدَم الضلال، إذَنِ المَعنَى: يُبيِّن الله تعالى لكم كراهةَ أن تَضِلُّوا، على قول، أو أَنْ لا تَضِلُّوا، على قولٍ آخَرَ.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾: ﴿تَمِيدَ﴾، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [تَتحرَّك بِكُمْ]، فَسَّر المُفَسِّر المَيَدان بِالحرَكة.

والصواب: أنَّ المَيَدان حرَكة خاصة، وهو الاضطِراب، وليس مُجرَّد الحرَكة، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَلقَى في الأرض رَواسِيَ حتى لا تَميـدَ؛ أي: لا تَضطَرِب، وذلك لأنَّ الأرض مَوْضوعـة على الماء، فإنَّ جميـع جوانب الأرض من كل ناحيـة ماء،

والجِسْم إذا وُضِع في الماء يَتحرَّك ويَضطَرِب لا شَكَّ، فإذا كان كذلك فلا بُدَّ مِن شيء يَحفَظُ تَوازُنه، وذلك الشيء هو الجِبال، فجعَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الجِبال فيها على الأرض حتى لا تَضطَرِب بالناس.

وقوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾، يَعنِي: أن تَضطَرِب، وعند عُلماء الجُيُولُوجيا مِن هـذه الحِكَم والعِلَل شيءٌ كثير؛ لأنه في بعـض الأماكن تَكثُرُ الجبال العظيـمة الطويلةُ الكبيرة، وفي بعض الأماكِن تَقِلُّ، وهذا يَرجِع إلى الحِكْمة التي خلَقها الله عَزَّوَجَلَّ، وقد تَخْفَى علينا، لكنها عند العُلَماء مَعروفة.

قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ﴾ بمَعنَى: نَشَرَ ووَزَّع ﴿فِيهَا﴾؛ أي: في الأرض.

وقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ الدَّابَّة: اسم فاعِل؛ أي: مِن كُلِّ نفسٍ دابَّةٍ، فهي اسم فاعِل من دَبَّ يَدُبُّ، إذا ضَرَبَ ونَشَر، والدابَّة يُطلَق عُرْفًا على ذاتِ الأربَع، ويُطلَق أيضًا في عُرفٍ أخصَّ على الحِمار فقَطْ.

أمَّا مَعناها في اللغة العربية فهي: كل ما دَبَّ على الأرض، سواءٌ يَمشِي على أربع، أو على اثنَيْن، أو على أكثَرَ، أو على بطنِه أو على رِجْلَيْن، كُل ذلك يُسَمَّى دابَّةً.

ونَشَرَ الله عَزَّوَجَلَّ في الأرض هذه الدوابَّ لِحكمةٍ عظيمة؛ لأنَّ مِن هذه الدوابِّ ما هو نافِع ويَنتَفِعُ الناس به، ومنها ما هو ضارٌّ، فيَحتَرِز الناس عنه، ومنها ما لا نَفعَ فيه ولا ضرَرَ، فيَعرِفُه الناس بما جعَل الله عَزَّوَجَلَّ فيه مِن الآيات، فيَعرفون به كمالَ قُدرةِ الله تعالى وحِكْمتِه.

فالأشياءُ النافِعة ظاهِرةٌ حِكمتُها مثل نَفْع العِباد، وقيام مَصالِح دِينِهم ودُنياهُم بها، مِثْل قولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا

مَـٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ وَمَشَـٰرِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٧١-٧٣] هذا نَفْع.

ومِنها ما هو ضارٌّ، والحِكْمة مِن خَلْق الضارِّ كثيرة مِنها:

١- بيانُ كَمالِ قُـدرةِ الله عَزَّوَجَلَّ حيث كان قادِرًا على أن يَخـلُقَ ما فيه مَنفَعة ومَصلَحَة، وما فيه مَضرَّة، فالكلُّ خَلْقُ الله تعالى، والكُلُّ دَابَّة، والكلُّ مِن مَاء، ومع ذلك هذا نافِع وهـذا ضارٌّ، هل العَقْرب أكبَرُ أمِ البَعـير؛ ولا يَحتاج أن أَقـول: إن البعير أكبَرُ. لكن مع ذلك العَقربُ مؤذِيَة ضارَّة والبعِير بالعَكْس، تَجِد البعير يَأتي الطِّفْل الصغير يَقوده لِمَا يُريد، فتَمشِي معه، وهذه حِكْمة.

٢- أنَّ الإنسان يَعرِفُ بذلك قَدْرَ نفسِه؛ فهذا الإنسانُ المُتَمرِّد المُستكبِر يَعرِف قَدْر نَفْسه في هذه المَخلوقاتِ المُؤذِية؛ ولهذا يُقال: إن مَلِكًا جبَّارًا كان جالِسًا وحولَه مِن أهل العِلْم مَن حَولَه، فكان يَقول: ما الحِكْمة مِن خلْق هذه الذُّبابةِ؟ فقال له رجُل: الحِكْمة مِن ذلك أن يُرغِـمَ الله تعالى بها أُنوف الجبابِرة مِثلك، فهذه الذُّبابةُ تَقَع على أَنْـف أيِّ إنسان وتَذْرِق عليه، فهذا من الحِكْمة: أن يَعرِف الإنسـان قَدْر نفسِه، وأنَّه ضعيـف بالنِّسبة إلى قُـوَّةِ الله عَزَّوَجَلَّ، فالبَعوضة ليست بشيء، ضَعيـفة مَهِينَة، ومع ذلك تُقِضُّ مَضْجع الإنسان حتى لا يَنام، فهذا مِن الحِكْمة.

٣- أنَّ الإنسان يَذوق الألَمَ بها والعَذاب حتى يَعرِف أنَّ العذاب غير مُلائِم له، فيُوجِبُ له ذلك النُّفورَ مِن مَعصية الله إلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ.

٤- أنَّ الإنسان ربما يَحمِله الخوف منها على أن يَقومَ بما يَنبَغي أن يَقومَ به مِن الأوراد والأذكار، فكثيرٌ مِن الناس قد يُورِد ويَقرَأ ما يَعصِمه مِن الأذى ليس بسبَب شَياطين الجِنِّ، ولكن خوفًا ممَّا يُؤذيه حِسًّا، وهذا شيء مُجرَّب ومُشاهَد.

وقد حكَى لي بعض الناس الثِّقات أنَّه كان مِن عادتِه أن يَقرَأ آية الكُرسيِّ كلَّ ليلة يَقول: فنَسِيتها ذاتَ ليلة فلُدِغْتُ بعد النوم. لُدِغ لأنَّه ليس عنده مِن الله تعالى شيءٌ حافِظ، وقد قال ﷺ: «وَمَنْ قَرَأَهَا فِي لَيْلَةٍ لَمْ يَزَلْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبُهُ شَيْطَانٌ حَتَّى يُصْبِحَ»(١).

هذه مِن الحِكَم: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بَثَّ في الأرض مِن هذه الدوابِّ المُؤذِية.

أمَّا ما لا نَفعَ فيه ولا ضرَرَ من الدواب فإنَّ الإنسان يَستَدِلُّ به على حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ وأنه مُحيطٌ بكل شيء، تَجِد هذه الدوابَّ على كَثْرة أنواعها لا تَستَطيع أن تُحصِي أنواعَها فَضْلًا عن أفرادِها، فما بالُك وقد أَعطاها الله تعالى الهِداية لما هو مِن مَصالِحِها؟! قال موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لمَّا قال له فِرعونُ: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه:٤٩-٥٠].

وأنت إذا رأَيْت هذه النَّملةَ الصغيرة كيف هَداها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى مَصلَحتِها ومَنفَعتِها؟ كيف تَدَّخِر القُوتَ لها؟ وكيف تَجْلُبُه مِن بعيد؟ وكيف تُكسِّر أطراف الحُبوب؟ السِّرُّ الذي مِنه تَنبُت تُكسِّرُه قبل أن تَختَزِنه، حتى لا يَنبُت؛ لأنَّه إذا جاءَه المَطَر والنَّدى فإنه يَنبُت، لكن إذا كُسِر أعلاه الذي هو سِرُّه الذي يَنبُت مِنه فإنَّه لا يَنبُت، مَن الذي أَلهَمها ذلك؟ هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، هي ما درَست في مَدارِس، ولا تَخرَّجت في الثانوية، ولا قرَأَت في كُلِّيَّة العُلوم، لكنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي علَّمها ذلك.

وقد شاهَدْتُ أنا عندما تَسقِي النَّخلة وحولها ذَرٌّ ويَأتِي النَّدى إلى أولادها؛

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الوكالة، باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا، رقم (٢٣١١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

تَخرُج بأولادها حامِلةً لهم -وأولادها بَيْض لم يَجِي بعدُ إلى الآنَ- تَجِد كل واحدة مِنهم حامِلة ولَدها تَخرُج به عن هذا الماءِ؛ حتى لا يُصيبه أو يُهلِكَه، وهذا مِن آيات الله عَزَّوَجَلَّ، يَتبيَّن بِه الإنسان حِكْمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأنَّه واسِع عليم، وأنه بكل شيء مُحيط، وأنه لا يَخفَى عليه شيء في الأرض ولا في السَّماء.

وقد ذكَر ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (مِفتاح دار السعادة)[1] مِن هذه الأمورِ أشياءَ عَجيبةً، وذكَرَ أنه ذُكِر لِشيخِ الإسلام ابنِ تيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ رجلًا وَضَعَ شيئًا من الطُّعْم لِذَرَّة مِن الذرَّات، فلما رأَتِ الطُّعْم هذا لم تَستَطِع أن تَحمِلَه فهو كبير، فذهَبَت إلى أخواتها، فاستَصْرَخَتْهم، فجاؤُوا إلى هذا المكانِ، يَقول: فلما أَقبَلوا نَزَعَ الطُّعْم، فجعَلوا يَبحَثون في مَكان فلم يَجِدوا شيئًا فرَجَعوا، فوضَعه ثانِيةً، فلَمَّا وجَدَتْه الذَّرَّة ذهَبَت إلى أخواتها فاستَصْرَخَتْهم فجاؤُوا، ولكن لَمَّا أَقبَلوا رفَعَه، فلَمَّا لم يَجِدوا شيئًا رجَعوا، في المرة الثالثة فعَل بهم كذلك، يَقول: فاجتَمَع الذَّرُّ عليها فقتَلوها.

وقال شيخُ الإسلام: هذا لأن جميع النُّفوس مجبولة على بُغْض الكذَّاب الظالِمِ، وهذه لَمَّا كذَبَتْ عليهم ظلَمَتْهم، فأَخَذَتْهم من بُيوتهم وهم في تعَب وعَناء، والنتيجة لا شيءَ، وهذا شيءٌ عظيم؛ فإذا تَأمَّل الإنسان هذه الأُمورَ يَجِد العجَب العُجاب! سبحان الله!

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أنزلنا﴾ يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فيه التِفات من الغَيْبة] إلى المُتكلِّم؛ وقد سبَقَ لنا أنَّ الفائِدة في الالتِفات: تَنبيهُ المُخاطَب أو القارِئ؛

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٢٤٣).

لأَنَّه إذا تَغيَّر أُسلوب الكلام لا بُدَّ أن يَنتَبِه، وهنا الفائِدة الثانية في هذا: بَيان القُدرَة أنَّ الأرض مُفْتَقِرَة إلى السماء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وهو المَطَر، والمُراد بالسماء هنا العُلُوُّ؛ لأن المطَر ليس يَنزِل مِن السماء التي هي السَّقْف المحفُوظ، وإنما يَنزِل مِن العُلُوِّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ صِنْف حَسَن] (صِنْف) تفسير لـ﴿زَوْجٍ﴾، و(حَسَن) تَفسير لـ﴿كَرِيمٍ﴾، وعِندي أن الكريم هو الحَسَن وزِيادة، وهو ما يَنتَفِع الناس به مِن هذا النباتِ، كأنَّه رجُل مِعْطَاءٌ يُعطِي ويُغدِق هذا الخيرَ فهو نَباتٌ حَسَن، ومع ذلك نافِع بسبَب ما فيه، والزوج يَأتي بمَعنَى: الصِّنْف، ومنْه قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ [ص:٥٨] ومِنه قوله تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات:٢٢]، أي: أَصنافَهم وأَشكالَهم. والله أَعلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثباتُ خلقِ الله تعالى لِلسَّموات.

ويَتَفرَّع على هذه الفائِدةِ: إبطالُ قولِ الفلاسِفة في قِدَم الأفلاك، فالفلاسِفة يَقولون: إنَّ الأفلاكَ قَديمة، وأنها لا تَتغيَّر؛ لأنَّ القديم عندهم الذي لا ابتِداءَ له، ومَا لا ابتِداءَ له لا انتِهاءَ له، فيَكون في هذا إبطالٌ لِقولِ الفلاسِفة: إن الأفلاكَ قديمة وإنَّها لا تَتغَيَّر. ومِن ثَمَّ أَنكَرُوا انشِقاقَ القمر إنكارًا شديدًا، وقالوا: القمَرُ لا يُمكِن أن يَنشَقَّ؛ لأَنَّه مِن الأفلاك، وإنَّما مَعنَى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر:١]؛ أي: بَانَ صِدْقُ الرِّسالة، وأَنكَرُوا الأَحاديث الوارِدة في ذلك والتي تَلَقَّتْها الأُمَّة بالقَبُول.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بيانُ قُدْرةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في خَلْقِ هذه السمواتِ العَظيمة؛ قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات:٤٧].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيَانُ القُدرة مِن وجهٍ آخَرَ، وهي أنَّ هذه السمَواتِ العَظيمة والسَّقف الواسِع بغير عَمَد؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا﴾، وأَظُنُّنا لو رأَيْنا بِناءً واسِعًا ليس فيه أَعمِدة لَكُنَّا نَتَعجَّب مِن هذا البِناءِ، كيف هذا البِناءُ الواسِع ليس فيه عَمَد؟! معَ أنَّ بِناء السَّماء أَوْسَع وأَعظَمُ، ومعَ ذلك بغير عَمَد.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيَانُ حِكْمَة اللهِ ورحمتِه في إلقاء الرَّواسِي؛ لئَلَّا تَميدَ بالخَلْق.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الأرض تَدور، يَقولون: لِأن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ يَدُلُّ على وجود أَصْل الحرَكة؛ لأنَّ نَفْيَ الأخصِّ يَدُلُّ على وُجُودِ الأَعَمِّ، أَلَمْ تَرَوْا إلى قولِه تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ حيث كان دليلًا على وُجود أَصلِ الرُّؤْيَة! فقولُه تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ أَليْس دَليلًا على أنَّ الرؤية مَوْجودة! وهذه الآيةُ استَدَلَّ بها أهلُ السُّنَّة على إثباتِ رُؤْيَة الله تعالى، وأهلُ البِدْعة على نَفيِ رُؤيةِ الله تعالى، ولكن الصواب مع أهل السُّنَّة؛ لأنَّ نَفْيَ الأخص يَقتَضِي وُجودَ الأعمِّ، إذ ليس مِن المَعقول أن يُنْفَى الأخصُّ مع انتِفَاءِ الأعمِّ، ثُم لا يُتَطرَّقُ لَهُ؛ ولو كان الأخصُّ مُنْتَفِيًا لوَجَب أن يُنْفَى الأعمُّ لِأَجْل أن يَدْخُل فيه الأخصُّ، لو كان الله تعالى لا يُرَى لقال الله عَزَّوَجَلَّ: لا تَراه الأبصار. حتى تَنْتَفي الرُّؤية ويَنتَفِيَ الإدراك مِن بابِ أَوْلى، فلَمَّا قال تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ﴾ عُلِمَ أنَّ أصل الرؤية مَوجُود، لكنَّه لا يُدْرَك عَزَّوَجَلَّ؛ وهنا لَمَّا قال تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمۡ﴾ والمَيَدان الاضطِراب عُلِم أنَّ أصلَ الحَرَكة مَوْجود، لكن هذه الرَّواسيَ لأَجْل اتِّزان الحَرَكة حتى لا تَضطَرِب.

هذا هو تَقدير مَن يَرَى أنَّ في الآية دَليلًا على أنَّ الأرض تَدور.

أمَّا الذين يَقولون: فيها دليل على أن الأَرْض لا تَدُور. فيَقولون: إننا لا نُسَلِّم أن المَيَدَان مَعناه: الاضطِراب، بل نَقول: إن المَيَدَان هُو الحرَكة، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَاسِىَ﴾ أن تَرسوَ ولا تَتحَرَّك، فيُفسِّرون المَيَدَان بِمُطْلَق الحرَكَة.

وإذا كان الأمرُ كذلك، فإنَّ الواجِب أن نَرجِع إلى اللغة العربية، فإذا كانت اللغةُ العربية تَدُلُّ على أنَّ المَيَدَان هو الاضطِراب، فنحن نَقول: إنَّ فيها دليلًا على وُجُود أصلِ الحرَكة. وإذا كانت اللغة العربية تَقول: إنَّ المَيَدَان هو الحرَكة. فإننا نَقول: فيه دليل على أنَّها لا تَدُور. ونحن إذا قُلْنا: إنَّها تَدور لا يَنقُصُ الله تعالى شيئًا، بل هو في الواقِع زِيادة في قُدْرَتِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ حيث تَدور هذِه الأرْض بجَميع ما فيها مِن بِحَار وأنهار وأَشْجار ومَدَر وحَجَر وكُلِّ شيء تَدُور، ومَع ذلك بهذا الاتِّزَانِ البَدِيع الذي لا يَتغَيَّر، هذا دليل على قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ، كما أنَّ سكونَها وهي على الماء دليل على قُدْرَة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

لكن الشَيْء الذي يَجِب أن يُنْكَر -حتى يَتبيَّن لنا كالشمس- هو القول بأنَّ اخْتِلاف اللَّيل والنَّهار بسبب دَوَران الأرض، فهذا لا نُسَلِّم به، بل نَقول: إنَّ الليل والنهار بسبَب دَوَران الشَّمس على الأرْض؛ لأنَّ هذا هو ظَاهِرُ القُرآن، ولا يُمكِن أن نَتزَحْزَح عَنْه إلَّا بدليل فيه مِثل الشمس.

فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أَثبَت الفِعْل لِلشَّمْس: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف:١٧]، ولم يَقُل: إذا طَلَع الكهفُ عليهم يَتزَاوَر، وأثبَت ﴿تَّزَٰوَرُ﴾ ولو كانت الحرَكة للأرض لكانَت الأرض هي التي تَزاوَر، ﴿وَإِذَا غَرَبَت﴾ هذا الفِعلُ الثالِث، ولو كانت الأرض هي التي يَكون بدورانها اختِلاف الليل والنهار لقال: وإذا غَرَبَتِ الأرض، أو خَفِيَ جُزءُ الأرض. أو ما أَشبَه ذلك؛ و﴿تَّقْرِضُهُمْ﴾

نَفْس الشيء: فِعْل، والنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَمَّا غَرَبَتِ الشمس قال لأبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَتَدْرِي أَيْنَ تَذْهَبُ؟»[1] فأَخبَر أنها تَذهَب هي بنفسِها.

وهذا هو الصواب بلا شكٍّ، إلَّا إذا ظهَر لنا دَليل مِثْل الشمس، فإنَّه يُمكِن أَنْ تُؤَوَّل هذه الآياتُ إلى أن المَعنَى: غَرَبَت وطَلَعَت باعتِبارِ رُؤْيَة الرَّائِي، وإن كان الرائِي هو الطالِع، فأنت تَسِير في سيارة، وفي سَيْرك طلَع عليك مثلًا ناقةٌ تَقول: بينما أَسير إذ طلَعَت عليَّ ناقة؛ فتَقول: طلعَت علينا. مع أنَّك أنت الطالِع عليها، هذا مُمكِن لُغةً، لكنَّا ما دُمْنا لم نَتيقَّن هذا الأمرَ، وإنما هي نظريَّاتٌ مِن قومٍ لا يُؤْمِنون بالقرآن، ولا يُؤمِنون بالشرائِع، فإننا لا نَقْبَلُ ذلك مِنْهم، بل نَأْخُذ بظاهر كلامِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائِل: إن قولَكم هذا يُناقِض قولَكم بإمكانِ دَوَرَانِ الأَرْض، يَعنِي: إذا أَمكَن دوران الأرض لزِم أن يَكُون تَعاقُب الليل والنهار بِسبَب دَوَرَانها.

فالجوابُ: إن هذا لا يَلزَمُنا؛ لأنَّه مِن المُمْكِن أن يَدُور هذا وهذا، وتكون حَرَكَةُ الشمس ودورانُها أسرَعَ، وإذا كان أسرَعَ لَزِم مِن ذلك أن تَطُوفَ بِالأَرْض ولَو مَعَ دَوَرَانِ الأَرْض، يَعنِي: يُمكِن أن تكون الأرض تَدور قليلًا وهذه تكون أكثَرَ، فيُمكِنُها أن تَلُفَّ علَى الأرض.

فالحاصِلُ: أنَّ هذه المَسائِلَ لا شَكَّ أنَّ الواجِب على المُؤْمِن أن يَأخُذ بِظاهِر القُرآن والسُّنَّة، فإن هذا الواجِبَ في الأمور الغَيْبية وفي الأمور التي لا يُمكِن إدراكُها حِسًّا، ثُمَّ إذا تَبيَّن له بعد ذلك بِالحِسِّ أنَّ ظَاهِر القُرآن غَيْرُ مُراد، فإنَّنا يَجِب علينا

(١) أخرجه البخاري: كتاب بدء الخلق، باب صفة الشمس والقمر بحسبان، رقم (٣١٩٩)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان (١٥٩/ ٢٥٠).

أن نُؤَوِّل ظاهِرَ القرآن؛ لأنه لا يُمكِن أن يَتَعارَض القرآن مَع الوَاقِع، فمُستَحِيل هذا، ولو أننا جَوَّزْنا ذلك عَقْلًا لَلَزِم أن يَكُونَ في القرآن ما هو كَذِب؛ لأنَّ الكَذِب هو خِلاف الواقِع، وهذا أَمْر مُستحيل.

ولذلك يَجِب علينا أمام هذه النَّظَرياتِ أن نَجعلَها كأحاديث بَنِي إسرائيلَ:

أوَّلًا: ما وافَقَ القُرآن فهو حَقٌّ وأخَذْنَا بِه، ولكِنَّا لا نَأخُذ به على أنَّه هو الذي أَثْبَتَه، بل على أنَّ القرآن هو الذي أَثْبَتَه، وإنما نَقول ذلك: لِئَلَّا يَكُون لهُم الفَضْلُ علَيْنَا.

ثانيًا: مَا خَالَفَ القُرآن وَجَبَ علَيْنَا رَدُّه.

ثالثًا: ما لا نَعلَمُ مُوافقَتَه لِلقرآن ولا مُخالفتَه فهذا العَقلُ والشَّرْع يَقتَضِي أن نَتَوَقَّف، ونَقُول: إننَا لا نُصدِّق ولَا نُكَذِّب. وحينئذٍ يَحتاجُ الإنسان طَالِب العِلْم إلى أن يَتعَمَّق ويَتَأَمَّل ويَنْظُر نَظَرًا عَمِيقًا جِدًّا في نُصُوص الكِتاب والسُّنَّة؛ حتى لا يَحْكُمَ بِأنَّ الوَاقعَ يُخالِفُها، فيَكونُ في ذلك رَدُّ فِعْلٍ لِمَن لا يُؤْمِنُ بالإسلام.

فمثَلًا لو أنَّ أحدًا أَنْكَر مِثْل هذه النَظَرِّياتِ بِدون تَأَمُّلٍ في دَلالة الكِتاب والسُّنَّة، كما يَفعَل بعض العامَّة فهذا -للحقيقة- ليس مِن خِدْمَةِ الإِسْلام، هذا كأَخْذ الإنسان خِنْجَرًا بيدِه وطَعَنَ بِه صَدْرَه وهو لا يَشْعُر، فالواجِب تُجاه هذه الأُمورِ كما قُلْت لَكُم: أن نَعرِضَها على الكِتَاب والسُّنَّة، فَما وافقَ الكِتَاب والسُّنَّة فهو حَقٌّ؛ لِكونه وافَق الكِتَاب والسُّنَّة، وما خالَفَها فهو بَاطِل، وما لا تُعْلَم مُوافَقَتُه ولا مُخالَفَته فالواجِب فيه التَّوَقُّف وأن يَقول الإنسان: إن تَبيَّنَ لي بِحَسَب إدراكِي -وإن كان عِلْمي قاصِرًا في هذه الأُمورِ- فأنا أُصَدِّقُ به، وإذا لم يَظهَر لي فأنا لَسْتُ مُلْزَمًا بأن أُصَدِّق أو أُكَذِّب، أَقِف مِن هذا مَوْقِف المُحَايِد، وهذا هو العَقْل.

فإن قال قائل هذه النَّظرِيةِ: هذه تُخالِف القرآن. يَعنِي: هناك مَن يَقول: الشمس طالِعة والأرض هي التي تَدور عليها.

فالجَوابُ: نحن قُلنا: مَسأَلة الشمس ثابِتة أَبطَلناها؛ وقُلْنا: هذا لا يَجُوز؛ مع أنهم يَقولون: إن الشمس ليسَتْ بثابِتة، وإنها تَدور في الأَوجِ العالي تَسير سيرًا عظيمًا، وفي كُتَيِّب صغير اسمُه عِلْم الفلَك القَديم يَقول: تَنطَلِق في الثانية آلاف الأميال.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: بَيانُ قُدْرَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ ببَثِّ هذِه الدوابِّ في الأرض؛ لِقوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾؛ أَي: نَشَر؛ وَجه دَلالتها على القُدرة: اختِلاف هذه الدوابِّ في أجناسِها وأنواعِها وأشكالِها وأحوالِها، وقد سَبَق لنا بَيانُ بعضِ الحِكَم في خَلْق ما هو ضارٌّ منها، وذكَرْنا عِدَّة حِكَم في خَلْق هذا الضَّارِّ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: بيان قُدْرَة اللهِ أيضًا وحِكْمَتِه ورَحْمَتِه في إنزالِ الماء مِن السَّماء، فالقُدْرة أنَّنا نَجِد هذا الماءَ يَنزِل مِن فوقُ، فمَعنَى ذلك أن هناك بِحارًا عَظيمةً تَطوف بِالأَرْض -بَيْن السَّماء والأَرض-، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ سبحان الله! جِبَال بين السماء والأرض مِن البَرَد يَنْطَلِق مِنْها هذه الأَجزاءُ حتى يَنزِل الأرض، ولو شاء الله تعالى لَأَنْزَل الجبَلَ جميعًا على الأرض.

وقُلْنا: فيه أيضًا دليل على الرحمة حيثُ كان نُزولُه مِن العُلُوِّ لأَجْل أن يَشمَل المُرتَفِع والمُنْخَفِض.

وفيه أيضًا دليل على الرحمة: أنَّ هذا الماءَ لنا فيه فائدَتان عَظيمتان: إنبات ما يَنْبُت مِنْه، والثاني: خَزْنُه في الأرض، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾ [الحجر:٢٢]، وقال في آية أُخرى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر:٢١]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ

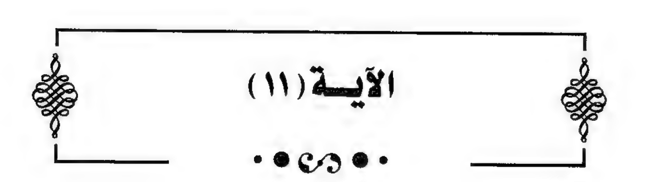
﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة:٦٨-٦٩]، ففيه أيضًا مَادَّةُ حَيَاةِ الإنسان: في طعامِه وفي شَرابه.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ الأَسْباب؛ لِقولِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا﴾، ويُؤخَذ إثبات الأسباب مِن فاءِ السببِيَّة ﴿فَأَنۢبَتْنَا﴾، وإثباتُ الأسباب مِن حِكْمَةِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فالمُنْكِر للأسباب طاعنٌ في حِكمةِ الله تعالى لا شَكَّ؛ لأنَّ الله حَكِيم جَلَّوَعَلَا؛ وكلُّ شيء عِندَه بِسبب؛ لِتَقُومَ الأشياء وتَمْشِيَ على نِظَام.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بَيان قُدْرَة الله عَزَّوَجَلَّ على تَصْنِيف هذا النَّبَاتِ مَع أنَّ أَرْضَه واحِدة ومَاءَه وَاحِد؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ أي: مِن كل صِنْف، فتَرَى هذه الشجرةَ كَبيرة وهذه صَغيرة، وهذه خَضْراءَ وهذه بُنِّيَّةً، هذه زهرتُها بَيضاءُ وهذه صَفراءُ، وهذه بِلَوْنٍ آخرَ، ألوان مُختَلِفة، مع أنَّ الماءَ واحدٌ والأرضَ وَاحِدَة، وهذا دليل على كمالِ قُدرَةِ الله عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن هذا النَّابِتِ فيه مَنفَعتان وهما النظَر إليه، والبَهْجَة والسرور به؛ ولهذا إذا وقَف الإنسان على رَوضَةٍ مُعْشِبَة تتكفَّأ الرياحُ أَزْهَارَها يجِد سُرورًا وأُنْسًا، ثانيًا: ما يحصُل مِن هذا النباتِ مِن المَنافِع لنا ولبَهائِمنا، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن السمواتِ أَجْرَامٌ مَحسُوسة، ومَن أَنكَرَها فهو مُكَذِّبٌ للقرآن، والمُكَذِّبُ بالقُرآن يَكُون كَافرًا، وهذه مَسْأَلَة خَطِيرَة؛ لأنَّ الآن مَن لا يُؤمِنون بالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ واليوم الآخر لا يُقِرُّون بأنَّ هناك أجرامًا سماوِيَّة، يَقولون: أَفلاك ومَجرَّات ونجوم. وما أَشبَه ذلك، ولا يُقِرُّون بالسَّماء، والذي يُصدِّقُهم في ذلك مُكذِّبٌ لِلقُرآن، فيَكون كافِرًا به، والعِيَاذُ بالله.



الآية (١١)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [لقمان:١١].

قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ المُشار إليه ما سبَق، وهي خَلْقُ السموَاتِ بغيرِ عَمَد، وإلقاء الرواسِي في الأرض، وبثُّ الدابَّة، والإنزال الماء مِن السَّماء، والإنبات فيها مِن كُلِّ زَوْج كَريم.

فهذه خمسة أَشياءَ مُشاهَدَةٌ محسوسة؛ ولهذا أَشار إليها بالإشارة الحِسِّية فقال: [﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ أي: مَخْلُوقُه] فهو مِن باب إطلاق المَصدَر وإرادة اسم المَفعول، وليس المُرادُ به خَلْقَ الله الذي هو فِعْلُه؛ فإنَ فعلَه لا يُشاهَد وأنَّ المُشاهَد مَفعولُه.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَأَرُونِي ﴾ أَخبِروني يا أهلَ مَكَّةَ ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾] قوله تعالى: ﴿فَأَرُونِي ﴾ فسَّر الإراءة هنا بالإخبار، ولكن الأَوْلَى إبقاؤُها على ظاهِـرها أنَّ المُراد بالإِرَاءَة يَعني: أَبصِروني، أَروني شيئًا خلَـقَه أحدٌ سِوى اللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ فقوله تعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ أبلغُ مِن تَفسير المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [أَخبِروني]؛ لأنَّ التَّحدِّيَ فيها ظاهِر، إِذْ مِن المُمْكِن أن يُخْبِرُوه بأمرٍ وهُمْ كاذِبون، فيقولون: نعَمْ، إنه يُوجَد كذا وكذا خلَقَهُ كذا وكذا. لكن إذا قال: (أَروني) بِالتَّحدِّي بما يُرَى فحِينَئذٍ يُبْهَتُون.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿فَأَرُونِي﴾ قال رَحِمَهُٱللَّهُ: [يا أهلَ مَكَّةَ] بِناءً على أنَّ كُلَّ خِطاب في سُورةٍ مَكِّيَّة يَتعلَّق بالكُفَّار فالمُراد به أهلُ مكَّةَ، والصواب: أنَّه عامٌّ؛ ويُمكِن حتى الآنَ أن نَقول بهذا التَّحدِّي في عصرِنا الحاضِر، والأَمْر هنا في قوله تعالى: ﴿فَأَرُونِي﴾ لِلتَّعجيز والتَّهديد.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ غيرِه؛ أي: آلهتكم حتى أَشرَكْتُموها به تعالى] يَعنِي: أَروني ماذا خَلَقوا، فإذا أَرَيْتُموني أنَّها خَلَقَت شيئًا، فإنَّه قد يَكون عُذْرًا لكم في تَشْرِيكِها مع الله تعالى في العِبادة، أَمَا والأمر ليس كذلك ولا يُمكِن أن يُوجَد خَالِقٌ سِوى الربِّ عَزَّوَجَلَّ، فإنه لا يَجوز أن يُعْبَد معه غيرُه؛ لأنَّه إذا أَقرَرْتم بأنه لا خالِقَ إلَّا الله تعالى يَجِب أن تُقِرُّوا بأنَّه لا مَعبودَ إلَّا الله تعالى، وأنه كما أَقرَرْتم بالربوبية يَجِب أن تُقِرُّوا بِالأُلُوهِيَّة.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿مَاذَا خَلَقَ﴾ يقول رَحِمَهُٱللَّهُ: [(ما) استِفْهامُ إنْكار مُبتَدأٌ، و(ذا) بمَعنَى (الذي) بِصِلتِه خبَرُه، و(أَروني) مُعلَّقٌ عَنِ العَمَل، وما بعده سَدَّ مَسَدَّ المَفعولَيْن].

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ أَعربَه المُفسِّر إعرابًا صحيحًا، ونَقول: (ما) اسمُ استِفْهام و(ذا) اسمٌ مَوْصول مَبنيٌّ على السكون في محَلِّ رَفْع، و﴿خَلَقَ﴾ فِعْلٌ ماضٍ، والجملة صِلة المَوْصول لا محَلَّ لها مِن الإعراب، والعائِد محذوف، والتقدير: ماذا خلقَهُ الذين مِن دونِه، والجُملة ﴿مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ جُملة استِفْهام مُعلَّقَة عَنِ عمَل ﴿فَأَرُونِي﴾.

وقوله: [وما بعدَه سَدَّ مَسَدَّ المَفعولين] هذا إذا قُلْنا: إنَّ الرؤيا بمَعنَى العِلْم، أمَّا إذا قُلْنا: إنَّ الرُّؤيا بمَعنَى: رُؤيَة البصَر، فإنَّ ما بعده سَدَّ مَسَدَّ مَفعولٍ واحِد فقَط.

وقوله تعالى: ﴿مَاذَا﴾: (ما) أَعْرَبَها على أنَّها غير مُلغَاة، ويَجوز إلغاؤُها، بل قد يُقَال: إن إلغاءَها أَوْلى؛ لأنك إذا أَلْغيتَها جعَلْت ﴿مَاذَا﴾ مَفعول مُقدَّم لِـ﴿خَلَقَ﴾ وحِينئذ لا نَحتاج إلى هذا، والأصل عدمُ الحَذْف، وإلغاؤُها لَه وجهان: إمَّا أن تَكون (ما) اسمَ استِفهام و(ذا) زائِدة، أو تَقول: (ماذا) جميعًا اسمُ استِفْهام.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ أي: مَن سِوى الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا التَّحدِّي وكلُّ تحدٍّ في القرآن لا يُمكِن أن يَكون مَوجودًا؛ لأنَّه لو كان الشيء مُمكِنًا لكان التَّحدِّي لَغوًا لا فائِدةَ فِيه.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿بَلِ﴾ للانتِقال ﴿الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ بَيِّن بإِشْراكِهم وأنتم مِنْهم] يَعنِي: أنَّ الأمرَ واضِحٌ، وأنَّه لا خالِقَ إلَّا الله تعالى، وأنه لا يُمكِن أن يُوجَد أحَد يَخلُق، ولكن استِمْرار المُشرِكين في شِرْكهم يُعتَبَرُ ظُلمًا وضلالًا مُبينًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ﴾ أي: المُشرِكون الذين أَشرَكوا مع الله تعالى في العِبادة مع أنَّهم مُؤمِنون بأنَّه لا شريكَ له في الخَلْق.

وقوله تعالى: ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بَيِّن] وكلِمة (مُبِين) تَأتِي بمَعنى: بَيِّن، أي: ظاهِر، وبمَعنَى: مُظهِر؛ لأنها مُشتَقَّة من (أَبانَ) الرُّباعِيِّ، و(أَبان) الرُّباعِيُّ يَأتي مُتعَدِّيًا، ويَأتي لازِمًا، فيَأتي (أَبانَ) بمَعنَى: (بَان)، أي: ظَهَر، وحينئذٍ يَكون لازِمًا، ويَأتي بمَعنَى: (أَظهَر) أَبان الشيءَ: أَظهَرَه، وحينَئِذٍ يَكون مُتعَدِّيًا، وفي هـذه الآيةِ: ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ مِن اللازِم؛ ولهذا فسَّرها بقوله: [بَيِّن].

ومِثاله من المُتعَدِّي في القرآن الكريم؛ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ يَعنِي: البَيِّن بنَفْسه المُبين لِلحقِّ، وكذلك: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾؛ أي: مُظْهِر.

فالحاصِلُ: أنَّ (مُبِين) لا يُظَنُّ أنها دائِمًا مُتعدِّية، فقد تَكون لازِمةً بمَعنَى: بَيِّن،

وقد تكون مُتعدِّيَة بمَعنَى: مُظْهِر.

من فوائد الآية الكريمة:

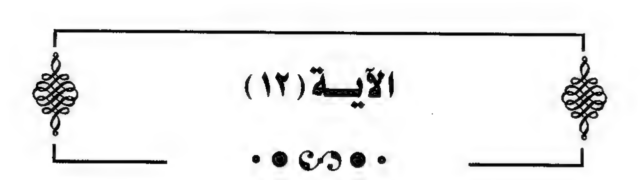
الْفَائِدَة الأُولَى: الاستِدلال بِتوحيد الرُّبوبية على توحيد الأُلوهية؛ لِقولِه تعالى: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾، يَعنِي: مَخْلُوقه، وهم يُقِرُّون بأنه خَلْقُ الله تعالى، فإذا أَقَرُّوا به يَلزَمُهم الإقرار بِتوحيد الأُلوهية، وعلى هذا فنَقول: يُؤخَذ مِن هذه الآية الاستِدلالُ بتوحيدِ الربوبية على تَوحيد الأُلوهية، ولهذا نَظَائِرُ في القرآن؛ مِنها قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٢١]، فقال تعالى: ﴿ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ كأنَّه يَسْتَدِلُّ بكَونِه ربًّا خالِقًا على أنَّه يَجِب أن تكُون العِبَادَةُ له وَحْدَه، وهذا دَلِيلٌ عَقْليٌّ مُلْزِم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: الاسْتِـدْلَال بالأظْهَر على ما يُنْكِره الخَصْم، فإنَّ هَذَا اسْتِدْلال بأَمْر ظاهِر وَاضِح على أمرٍ يُنكِرُه الخَصم، وهو إنكار انفِراد الله تعالى بالأُلُوهِيَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: استعمالُ التَّحدِّي في المناظرة، لِقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ أولَئِكَ المُنْكِرين لِتوحِيد الأُلُوهية في ضَلال، أنَّهم ظَالِمون وفي ضَلَالٍ مُبين؛ لِقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: عَجْزُ جَمِيعِ الأَصْنَامِ المعْبُـودة أن يَخْلُقُوا مِثْل خَلقِ الله تعالى؛ لِقوله تعالى: ﴿فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾، وإذا كانت عاجِزةً عنِ الخَلْق كانت غيرَ مُستَحِقَّةٍ لِلعبادة، قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ﴾ زِدْ على ذلك: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج:٧٣].



الآية (١٢)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان:١٢].

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾؛ منها: العِلْم والدِّيانة والإِصابة في القول، وحِكَمُهُ كثيرةٌ مَأْثورة].

قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾ الجُمْلة هذه مُؤَكَّدة بثلاث مُؤَكِّدات هي اللَّام و(قَدْ) والقسَم.

وقوله تعالى: ﴿ءَاتَيْنَا﴾ أي: أَعطَيْنا، وهذا الإعطاءُ إعطاءٌ كَوْنِيٌّ، أي: آتاه الله تعالى الشيءَ إيتاءً كَونيًّا.

وقوله تعالى: ﴿لُقْمَٰنَ﴾ هو اسمُ رجُل، وأكثرُ أهلِ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ على أنه رجُلٌ أَعطاه الله تعالى حِكْمةً ودِرايةً في الأمور وليس نَبيًّا.

قال ابنُ كَثير[١] رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أكثرُ الناس على أَنَّه ليس بِنَبيٍّ، ويُروى عن عِكْرمةَ[٢] -إن صَحَّ عنه- هكذا قال: إنه نَبيٌّ. ولكن الصحيح أَنَّه ليس بِنَبيٍّ، وإنما هو رجل حَكيم ذُو أَمْرٍ رَشيد، أَعطاهُ اللهُ تعالى هذه الحِكْمةَ، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩].

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٢٩٨).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٨/ ٥٤٩).

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ الحِكْمة في الأصل هي مُوافقَةُ الصواب.

وبمَعنَى هذا قولُهم: إنَّها وَضْعُ الأشياء في مَواضِعِها، فصَاحِبُ الرأيِ الرشِيد والتَّصرُّفِ السَّدِيد هذا يُعْتبَرُ حَكِيمًا؛ لأنَّه يَضَع الأشياءَ في مَواضِعها؛ وهما بمَعنًى واحِد؛ لأن مُوافقَة الصواب هو وَضْع الشيء في مَواضِعه.

يَقول رَحِمَهُٱللَّهُ: [منها العِلْم والدِّيانة والإِصابة في القول] الأوَّل: العِلْم تُنال به الحِكْمة، والثاني: الدِّيانة حِكْمة، والثالِث: الإصابة في القول أيضًا حِكْمة، وكذلك الإصابة في الفِعْل حِكْمة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُٱللَّهُ: [وحِكَمُه كثيرةٌ مَأْثورة، كان يُفتِي قبلَ بِعْثة داودَ، وأَدرَك بِعثَه، وأَخَذَ عنه العِلْم، وترَكَ الفُتْيا، وقال في ذلك: أَلَا أَكتَفي إذا كُفِيت. وقيلَ له: أيُّ الناس شَرٌّ؟ قال: الذي لا يُبالي إن رآه الناس مُسِيئًا] قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: [كُفِيت] هذه مِن الحِكْمة، فإنَّ الإنسان إذا كُفِيَ يَكتَفي؛ لأنه إذا كُفِيَ ثم عَمِل بما كُفِيَ فيه لم يَكُن مِنه إلَّا إضاعة الوَقْت والتعَب.

وأمَّا قوله رَحِمَهُٱللَّهُ: [أيُّ الناس شَرٌّ؟ فقال: الذي لا يُبالي إن رآه الناس مُسيئًا] هذا قد يُنازَع فيه؛ لأن هذا الذي لا يُبالي إن رآه الناس مُسِيئًا يُعتبَر فاقِدَ الحَياءِ فقَطْ، ولا يُعتبَر شرَّ الناس، بل شرُّ الناس -في الواقِع- هو الذي يُشرِك بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ هذا أَظلَم الناس فيَكونُ شرَّ الناس.

ثُمَّ إن هاتين الجُمْلتين قد تَكون صحيحة إلى لُقمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وقد تَكون غير صحيحة، يَعنِي: لا يُجزَم بها؛ لأنه ليس هناك سَنَد صَحيح إلى لُقمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ مُتَّصِل، ولم يُخبِر النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بذلك عنه، ومِثْلها جميع الأخبار السابِقة إذا لم تَكُن

عن طريق الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ فإنَّه يُنْظَر فيها؛ لأنَّها تأتينا بِغير إسناد إِذْ تُؤْخَذ عَن أهلِ الكِتاب، وأهلُ الكِتاب غيرُ مَأْمُونِين.

مَسأَلة: ما تَوجيهُ قوله ﷺ: «حَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ»[1]، ومَن كان خارِج بني إسرائيلَ فما حُكْمه؟

الجَوابُ: إن بني إسرائيلَ عِندهم كِتاب، وأَثارةٌ مِن عِلْم، وإلَّا غيرهم قد لا تَجِد عنده شيئًا، ولكن كل الأحاديث عمَّن سبَقَ لا تَخلو مِن ثلاثة أحوال كما هو مَعروف: إمَّا أن تُوافِق الشَّرْع، أو تُخالِفه، أو لا يَكون فيها مُوافَقة ولا مُخالَفة؛ فما وافَق الشَّرْع فهو مَقبول، وما خالَفَه فهو مَردود، وما لم تَكُن فيه مُوافَقة ولا مُخالَفة فإنه لا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب.

قال: [﴿أَنِ﴾ أي: وقُلنا له: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِ﴾ على ما أَعطاك مِن الحِكْمة].

فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ﴾ ثُمَّ قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِ﴾؛ ولو أنَّ أحَدًا قال: إنَّ قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِ﴾ تفسير للحِكْمة يَعنِي ﴿أَنِ﴾ هُنا تَفسير الحِكْمة لم يَكُن بعيدًا.

أَمَّا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيَرَى أنها مَفْعُولٌ لِقَولٍ مَحذوف تَقديره: وقُلْنا له: أنِ اشْكُرْ لله. يَعنِي: على ما آتاك مِن الحِكْمة.

أَمَّا على الاحتِمال الأَوَّل الذي هو ظاهِر القرآن ولا يَحتاج إلى تَقـدير، فالأَمْر ظاهِر أنَّ شُكْرَ نعمةِ الله تعالى مِن الحِكْمة، بل هو رأسُ الحِكْمة.

(١) أخرجه البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٤٦١)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وقوله تعالى: ﴿ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ اللَّام هنا لِلاختِصاص والاستِحقاق؛ لأنَّه لا يَختَصُّ بالشُّكْر المُطْلَق، ولا يَستَحِقُّ الشُّكْر المُطلَق إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والشُّكْر: هو القيام بطاعة المُنْعِم اعتِرافًا بالقَلْب، وثَناءً باللسان، وطاعةً بالأركان.

فمُتَعَلَّقُ الشُّكْر ثلاثة: اللسان، والقَلْب، والجَوارِح، وسببُه واحِد: وهو النِّعْمة؛ ولهذا كان بينه وبين الحَمْد عُمُوم وخُصوص:

فمِن جِهَة السَّبَب الحَمْدُ أعَمُّ، ومِن جِهَة المُتعَلَّق الشُّكْرُ أعَمُّ، وذلك لأن الحَمْد سببُه أمران: كَمالُ المَحْمُود وإنْعام المحْمُود؛ ولهذا تَحْمَدُ الله عَزَّوَجَلَّ على كَمالِه، وتَحْمَدُهُ على إنْعامِه.

ولكنَّ الحَمْدَ مِن حَيْث المُتعلَّق يَختَصُّ باللسان فقط، أمَّا الشُّكْر فإنَّه من حيث السبَب أَخصُّ؛ لأنَّه لا يَكون إلَّا في مُقابَلَةِ نِعْمة، لكن مِن حيث المُتعَلَّق أعَمُّ يَكُون بِالقلْب واللِّسان والجوارِح، وعليه قولُ الشاعِر:

أَفَادَتْكَمُ النَّعْماءُ مِنِّي ثَلَاثَةً ... يَدِي وَلِسَانِي وَالضَّمِيرَ المُحَجَّبَا[1]

وقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ قُلْنا: إنَّ اللام هنا للاختِصاص والاستِحقاق، فيَجِب على العَبْد أن يُخْلِص الشُّكرَ له، وأن يَعتَقِد بقلبِه أنَّه لا يَستَحِقُّ الشُّكْرَ المُطلَقَ إلَّا اللهُ تعالى.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ لأنَّ ثواب شُكْرِه لَه ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بالنِّعمة ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ﴾ عن خَلْقِه ﴿حَمِيدٌ﴾ مَحْمُودٌ في صُنْعِه].

(١) غير منسوب، وانظره في غريب الحديث للخطابي (١/ ٣٤٦)، والفائق للزمخشري (١/ ٣١٤).

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ﴾ الجُملةُ هذِه شَرْطِيَّة، فِعْل الشرط فيها مجزوم بـ(مَن)، وجواب الشرط: جُمْلةُ قولِه: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، و(إنَّما) أداة حَصْر، و﴿يَشْكُرُ﴾ فِعْل مُضارِع؛ وجواب الشَّرْط هو الجُملة: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، لا قوله تعالى: ﴿يَشْكُرُ﴾ فقط.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ كيف قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ ثُمَّ قال: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؟ قد يُقال: إن المُتوَقَّع أن يقول: ومَن يَشكُر فإنما يَشكُرُ الله؟

ولكن نَقول مَثلَما قال المُفَسِّر: إن مَعنَى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾؛ أي: أنه يَعُودُ ثَوابُ الشُّكرِ إليه، فهو لِمَصلحتِه، وليس الشُّكْر يَعود إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فيَنتَفِعُ به؛ لأَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يَنتَفِع بالطاعة، ولا يَتَضَرَّرُ بالمَعصية، وإنما يَعود إليك أنت نَفْسِك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ وهو ضِدُّ الشُّكْر.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ غَنِيٌّ عنه إذا كفَرَ نِعمَة الله تعالى، و﴿حَمِيدٌ﴾ فَعِيل بمَعنَى: مَفْعُول، ويَجوز أن يَكون ﴿حَمِيدٌ﴾ بمَعنَى: فَاعِل حَامِد، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَحْمُودٌ وحَامِدٌ؛ لأَنَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَصِفُ مَن يَستَحِقُّ الصِّفاتِ الكَامِلَةَ بِما يَسْتَحِقُّه؛ ولهذا أَثْنَى على أنبيائِه وعلى أَوْليائِه، وهذا حَمْدٌ لهم، وهو أيضًا مَحْمُود مِن عِبادِه، فهو فَعِيل بمَعنَى: فَاعِل، وبمعنى: مَفعول.

ووجهُ ارتباط جملة جواب الشرط: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ بالشرط ظاهِر، يَعنِي: مَن كفَر فإنَّه لن يَضُرَّ الله تعالى، ولن يَنْقُصَ مِن مُلكِه؛ لأَنَّه غَنِيٌّ، وكذلك لن يَكون في ذلك قُصُورٌ مِن حِكْمته؛ لأنه جَلَّ وَعَلَا حَمِيد، فإيجادُ الشاكِرين مِمَّا يُحْمَدُ الله عليه، وإيجاد الكافِرين مِمَّا يُحمَد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه، ولولا هذا ما عُرِف

قَدْرُ الشُّكْر، ولا عُرِف أيضًا مَضَرَّةُ الكُفْر، فلولا هذا لكان النَّاس على حَدٍّ سواءٍ لا يَتميَّز فيهم الطَّيِّب مِن الخَبيث.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ الغَنِيُّ مِن أسماء الله تعالى، والحَميد مِن أسمائِه أيضًا.

وقول المُفَسِّر: [﴿حَمِيدٌ﴾ مَحمود في صُنْعه] هذا قُصُور، فـ﴿حَمِيدٌ﴾ يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها: [مَحمود في صُنْعه]، والصواب أنَّه مَحْمُود في صُنْعِه وشَرْعِه، وفي جميع صِفاتِه فهو مَحمود على صِفاتِه الكامِلة، وعلى أفعالِه وعلى شرْعِه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ مِنَّةِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على لُقْمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بإعطائِه الحِكْمة؛ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الحِكْمة قد يَنالُها مَن ليس بِنَبِيٍّ؛ لأنَّ لقمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ على قول الجمهور ليس نَبِيًّا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وجوبُ الشُّكْرِ لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ شُكْرَ الله تعالى مِن الحِكْمَة؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾، هذا مِن تفسير الحِكمة، والشُّكْر لله لا شكَّ أنَّه مِن الحِكمة؛ لأنَّ الحِكمة هي مُوافَقَة الصَّواب أو وَضْعُ الشَّيْءِ في مَوضِعِه، ولا شَكَّ أنَّ شُكْرَ الله تعالى مُوَافِقٌ للصَّواب، وأنَّهُ وَضْع لِلشَّيْء في مَوْضِعِه.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الشَّاكِرَ ثوابُه لِنَفْسِه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أَنَّ كُل مَن مَنَّ الله تعالى عَلِيه بالحِكمة فعليه أن يَشْكُرَ الله تعالى أكثرَ مِن غيرِه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّ الله تعالى لا يَنْتَفِعُ بطاعةِ الطائعين، بل طاعَةُ الطائِعين لِأَنْفُسِهِم.

ويَتفرَّعُ على هذِه الفَائِدةِ: أنَّ أمر الله عَزَّوَجَلَّ عبادَه بِطاعتِه أو بِعبادِته أنَّه مُجَرَّدُ إحسانٍ إليهم؛ لأنَّ هذا النَّفْعَ لهم كَمَا لو كُنتَ تُرَبِّي الصغير، وتَقول: كُلْ مِن هذا الطعامِ، والبَسْ هذا الثوبَ، واشرَبْ هذا الماءَ. فأنت تَأمُرُه، لكن الأَمْر لِمصلحَتِه هُو.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الكافِر لا يَضُرُّ الله تعالى شيئًا؛ لقَوْلِه تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾، وفي الحديث القُدسيِّ: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**»[1].

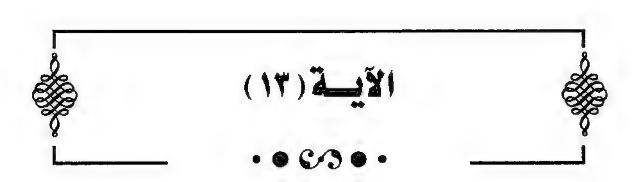
الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثباتُ هذين الاسْمَين لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وهما: الغَنِيُّ والحَميد، وإثبات ما تَضَمَّناه مِن صِفَة وهي: الغِنَى والحَمْد، سواء كان حامِدًا أو مَحْمُودًا.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: اتِّصافُ الله تعالى بالصِّفَة الْمُرَكَّبَة مِن الوَصْفَيْن وهُما: الغِنَى والحَمْد، فليس كل غنيٍّ يُحْمَد، وليس كُل مَحْمُودٍ غَنِيًّا، أَمَّا الله عَزَّوَجَلَّ فقدِ اجْتَمَع في حَقِّه الغِنَى معَ الحَمْد؛ وذلك لِكَمال جُودِه وكَرَمِه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

• • ❁ • •

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب البر، باب تحريم الظلم، رقم (٢٥٧٧)، من حديث أبي ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان:١٣].

• • ⁂ • •

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿و﴾ اذكُرْ إِذْ ﴿قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ﴾ تَصْغِيرُ إِشْفَاق ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ﴾ بالله ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فرجَع إليه وأَسْلَم].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿و﴾ اذكُرْ إِذْ ﴿قَالَ﴾] أَفادَنا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ (إِذْ) مَفعولٌ لِفِعْل مَحذوف، أو ظَرْف مُتعَلِّق بفِعْل مَحذوف، يَعنِي: اذكُرْ هذا الوقتَ الذي قالَ فيه لُقمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنِه.. إلى آخِرِه.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ جُمْلة: ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ﴾ حالِيَّة، حالٌ مِن فاعِل ﴿قَالَ﴾ وهو لُقمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، يَعنِي: والحال أنه يَعِظُ فيه ابنَه، والمَوْعِظة هي التَّذْكِير المَقرُون بالتَّخويفِ أو التَّرْغيب.

قال له: ﴿يَٰبُنَىَّ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [إنه تَصْغِير إشفَاق] وهو كذلك، وليس تصغِيرَ احْتِقَار؛ لأنَّ المَقَام لا يَقتَضيه، ولكنَّه تَصغِير إشفاقٍ عليه.

وقوله تعالى: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ هذا مَقولُ القول في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ أي: لا تَجعَلْ معه شَريكًا في العِبادة، وفي الخَلْق والتقْدِير، وفي أسمائِه وصِفاتِه؛ لأن التَّوْحيد -كما هو مَعروف عند أهل العِلْم- يَنقسِم إلى ثلاثةِ أقسام: تَوحيدُ الرُّبُوبِيَّة، وتَوحيدُ الأُلُوهِيَّة، وتَوْحِيدُ الأَسْماءِ والصِّفَات.

فالشِّرْك بالله تعالى: أن يُشرِكَ بالله تعالى في أحَدِ هذه الأقسام، فمَنِ اعتَقَد أنَّ معَ الله تعالى خالِقًا فهو مُشْرِك في الربوبية، ومَنِ اعتقدَ أنَّ معَ الله تعالى مَن يَسْتَحِقُّ أن يُعْبَد فهو شِرك أُلوهية، ومَن اعتَقَد أن لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مُنازِعًا في أسمائِه وصِفاتِه فهو مِن باب الشِّرْك في الأسماءِ والصفات.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ﴾ بالله ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾] أكَّد لُقمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ كون الشِّرْك ظُلمًا بِمُؤَكِّدَيْن وهما: (إنَّ)، واللَّامُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ الجُملة تَعليلٌ لِما قبلَها، وهو قوله تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾، فجمَعَ له لُقمانُ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بَيْن الحُكْم والحِكْمَة، فنَهاه عن الشِّرْك، وبَيَّنَ أنه ظُلْم عَظيم، والظُّلْم في الأصْل النَّقْص، ومِنه قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣] أي: لم تَنْقُص.

وأمَّا في الشَّرْع فإنَّ الظُّلم: هو نَقْص كُلِّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ، وعلى هذا فالشِّرْك نَقْصٌ في حقِّ الله عَزَّوَجَلَّ.

وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ هذا مِن باب تَعظِيم الشِّرْك والحَذَرِ مِنه، وَلا يُوجَد أَعْظَمُ ظُلْمًا مِن الشِرك؛ لأنه مهما كان فإنَّ ظُلْمَ الشِّرْك أعْظَمُ مِن كُلِّ شيء، فالذي خلَقَك أَوْجدَك مِن العدَم، والذي أَمدَّكَ بما تَقومُ به حياتُك هو الله

سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، والذي أَعدَّكَ وجعَلَك مُستَعِدًّا لِمَا تَنتفِعُ به هو الله عَزَّوَجَلَّ، فهو المُوجِد المُعِدُّ المُمِدُّ، وإذا كان كذلك فلا يُوجَد أحَدٌ أعْظَمُ حَقًّا عليك مِن الله تعالى، فإذا نَقصْتَ اللهَ تعالى حقَّه كان ذلك أَعظمَ الظُّلْم؛ ولهذا مَن كان إليك أكثرَ إحسانًا فإن إساءَتَك إليه تَكونُ أعظَمَ مِن غيرِه، فإنَّ الذي يُحسِن إليك ويُعطِيك ويُرْبِيك ثُم تُسيءُ إليه أعظَمُ مِمَّا لو أَسأْتَ إلى أحَدٍ لم يَكُنْ مِنْه ذلك.

قال: [﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ فرَجعَ إليه وأَسْلَم] الذي رجَع الابن.

وعلى كُلِّ حال: لا نَعرِف هـل هذه المَسأَلةُ كَما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ أنَّ الابن كان مُشْرِكًا، فلَمَّا وعَظَه أَبُوه رجَع فأَسلَم، أو أنَّه -أي: الابن- خافَ عليه أبوه مِن الشِّرْك فنَهاه عنْه، وبَيَّنَ لَه أن الشِّرك لَظُلم عظيم.

ولا يَلزمُ مِن النَّهيِ عنِ الشِّرْك أن يَكونَ الإنسان قد أَشرَك؛ لأَنَّه قد يُنْهَى عن الشيء خوفًا مِن وقوعِه لا رَفْعًا لما وقعَ مِنْـه، وهذا أمرٌ مَوْجـود مُطَّرِد في القرآن، وفي السُّنَّـة، وفي كلامِ الناس، فتَقول لِلرَّجُل مثـلًا: لا تُصاحبِ الأشرار. فلا يَلزَم مِن هذا النهيِ أن يَكون مُصاحِبًا لهم، فقد يَكون نهيًا لِما يُخاف أن يَحصُل مِنه.

فكلِمـة ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ ليسَت صريحَةً في أنَّ الابن قد وقَـع في الشِّرْك حتى يُقـال: إنَّه رجَع وأَسلَمَ، بل قد يَكونُ أبوهُ نَهاهُ عن الشِّرْك خـوفًا مِن أن يَقَعَ فِيه، والعِلْمُ عِنْد الله تعالى.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: مُلَاطَفَة المُخاطَب لاسْتِدْعاء قَبُولِه لما يُوَجَّه إليه؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾، فإنَّ هذا مِن بابِ المُلَاطَفَة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَهَمِّيـةُ هذه النَّصِيحةِ؛ لأنَّها صدَرَت مِن أبٍ مُشْفِـق إلى ابنِه، فإذن: هي مِن أهَمِّ ما يَكُون مِن الوصَايَا.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تحريمُ الشِّرْكِ بالله تعالى؛ لِقولِه تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾، ويَكفِي أن نَقول: تَحريم الشِّرْك؛ لأنَّ الله تعالى يَقول: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الأعراف:٣٣]، وقد يَقول قائِل إذا سَمِعَني أَقول: إنَّ الشِّرك حَرام. قال: لا يَكفِي أن يَكون حرامًا؛ ونَقول: بل يَكفِي؛ لأنَّ الله تعالى قال هذا، لكن هُو أشدُّ المُحرَّمات إثمًا وظُلْمًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: وُجوبُ توحيدِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لِأنَّ النهيَ عن الشِّرْك يَقْتَضي وُجُوب التوحيد.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ الشِّرْك ظُلْمٌ عظِيم؛ لِقولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّه ينبَغي قَرْنُ الأحْكَام بِعِلَلِهَا لِلفوائد التي سَبقَتْ، ويُؤْخَذ ذلك من قَولِه تعالى: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّ مِن أهمِّ ما تَنْبَغِي العِنايَةُ به التَّرْكِيزُ على التَّوحيد وعَدَم الشِّرْك؛ لأنَّه ذَكَر: ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ فبَدَأ بِه قَبْل كُلِّ شَيْء، وكان الرسول ﷺ إذا بَعَثَ أحَدًا يَدْعُو إلى الإسْلَام يَأمُره أوَّلَ ما يبدأُ بِه الدَّعْوَة إلى التوحيد[1]؛ لأنَّها هي الأَصْل، وإذا لم يَكُن عِنْد الإنسان تَوحِيد فَمَنْ يَعْبُد؟!

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم (١٣٩٥)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فلا بُدَّ أن يُرَكَّز على التوحيـد، ولكن لِكُلِّ مَقام مَقال، فإذا كُنَّا في بلـدٍ يَكْثُر فيها الشِّركُ فإنه يَنبَـغي أن يَكُونَ كَلامُنَا في التوحيد أَكْثَرَ، وإذا كُنَّا في بَلَدٍ بالعكس لكن عِنْدَهُم مُخَالَفَات في أمورٍ أخرى يَنبَغي أن نُرَكِّز عليها أكثَرَ، وذلك مَأخوذٌ مِن طريقةِ القرآن، فَفِي مكَّةَ كانَ التَّرْكيز على التوحيد في آياتِ القرآن أكثَرَ، وفي المدينة كان التركِيز على المُعَامَلات وفُرُوع العِبادات أكثَرَ، فَلِكُلِّ مَقامٍ مَقال.

ولذلك قد يَعْتَرِض بعض الناس، ويَقول: لِمَاذا لا تُكثِرُون الكلام في التوحيد في المَمْلكة السُّعُودية مثَلًا، ولاسِيَّما في نَجْدٍ؟!

نَقول: إنَّ الكلامَ في التوحيد لا شَكَّ أنَّه مُهِمٌّ؛ لأنَّه أهَمُّ الأشياء، لكِن إذا كُنَّا في قَومٍ قد وَحَّدُوا -ولله الحَمْد- وعرَفوا الأمر وهم بَعِيدُونَ عن الشِّرْك، وإنَّما يُخالِفُون في الأُمورِ الأخرى دُونَ الشِّرْك، فَنَحْنُ نُرَكِّز على ما فِيه هذه المُخَالَفَةُ، على أنه لَو طَرَأَ مَا يَكْلُمُ التوحيد يَجِب أن يُرَكَّزَ عليه، كما يُوجَد في الآوِنَة الأخِيرَة مِن ظُهُور بَعض الأشياء الشِّرْكِيَّة والبِدْعِية مِن هـذه الكُتَيِّبَاتِ الصِّغَار التي فيها أذْكَار وأَوْرَاد كُلُّهَا كَذِب أو غالبُها كَذِب، فيَجِب أن يُرَكَّز عليه، كذلك أيضًا وُجِد تَمَائِمُ تُعلَّق، تَمَائِمُ مِن النُّحَاس يُقَال: إنَّها تَنْفَع مِن الرُّومَاتِزْم، هذا أيضًا نوع مِن الشِّرْك، وكذلك أيضًا ما وُجِد مِن قَضِيَّة الدِّبْلَة وما يَتَعَلَّق بها، فالرجُل يَكتُب اسمَهُ على خَاتَم امْرَأَتِه، وهي تَكتُب اسمَها على خَاتِم زَوجِها، ويَعتَقِدون أنَّ هذا يُوجِب المحَبَّة والاحْتِرام، كأنَّه رِباط، هذا أيضًا مِن الشِّرْك، وهو مِن التِّوَلَة، فإذا طَرَأَت مِثْل هذه الأمورِ يَجِب أن تُحـارَب، وأن يُركَّز عليها، وأن يُكْثَرَ القولُ فيها حتى لا تَنْتَشِر، فالمُهِمُّ أنه لِكُلِّ مَقامٍ مَقَالٌ كما قيل.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: توجِيـهُ المَواعِظ مِن الآباء إلى أبْنائِهم؛ لأنَّ هـذا مِن الحِكْمة؛

لِقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾.

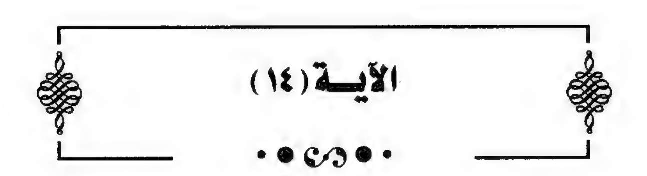
الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أَنَّه يَنبَغِي لِلإنسان المُوَجِّه أن يَقْرِن توجيهَه بالموعظة؛ لِقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ ﴾.

وهل يَكفِي مَثَلًا أن تَقُول لإنسان: هذا حرام، وهذا واجِب. أو يُنْظَر في حالِ الشخص؟

الجَوابُ: يُنْظَر في حالِ الشَّخْص، فمِن الناس مَن يَكْفِي أن تَقُول لَه: إنَّه حرام أو واجِب، وَيَمْتَثِل، ومِن الناس مَن لا يَكفِي أن تَقول: هذا حرام أو وَاجِب، حَتَّى تَقْرُنَ ذلِك لَه بِالمَوْعِظَة، فتَقول: اتَّقِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، اخشَ الله تعالى. مثَلًا، كيف تُصِرُّ على هذا وهو مَعْصِية لله تعالى ورسولِه ﷺ. وما أَشْبَه ذلك.

فالمُهِمُّ: أنَّه لِكُلِّ مَقام مَقَال، وكذلك أيضًا تَذْكُر ما وَرَد فِيه مِن الوعيد في القرآن والسُّنَّة، كما لو تَوَدُّ أن تُوَجِّه نصِيحة إلى رَجُلٍ مَغْمُور بالمعامَلة بالرِّبا هذا لا يَكفي أن تَقول: الرِّبا حرام؛ لأَنَّه عارِف، فلا أحدَ يُشْكِل عليه أنَّ الرِّبا حَرَام لكِن يَحْتَاج إلى مَوْعِظة تُلَيِّنُ قَلْبَه لِلحَقِّ والتَّوبَة مِن البَاطِل.

• • ۞ • •



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [لقمان:١٤].

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾، هذه الجُملةُ ليسَتْ مِن كلام لُقمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل هي مِن كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فهي مُعتَرِضَة بين كلام لُقمانَ الأوَّلِ، وكلام لقمان الثاني؛ لأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دائمًا يقرُن حقَّ الوالِدين بحقِّه: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء:٢٣]، ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الأنعام:١٥١].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ أَمَرْناه أن يَبَرَّهما] ففَسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ الوَصِيَّةَ بالأَمْر، ولكنها أَخصُّ مِن الأمر المُطْلَق، فالوَصيةُ عهْدٌ بما ينبغي الاعتِناءُ به، ليسَت مُجرَّد أَمْر، بل هي عَهدٌ بما ينبَغي الاعتِناءُ به، ولا شكَّ أنَّ بِرَّ الوالدَين مما ينبغي الاعتناء به.

وقوله: [أن يبرَّهما] لو قال: (أن يُحسِن إليهما) لكان أَوْلى؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول في آية أخرى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ [الأحقاف:١٥] ولكن المُفَسِّر فسَّره بالبِر؛ لأنَّ البرَّ من الإحسان.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ كُلَّما كَبُر الجَنِين كَانَ ذَلك أشدَّ وأعظَم،

فإنَّ الإنسان يجِد مِن نفسه أنَّه لو شَبِـع وامتلأ بطنُه يتعب معَ أنَّ هذا الغـذاء يُمِدُّهُ بِالطَّاقَـة، فكَيف بالجنـينِ الذي يملأُ بطنَـها ويأكُل مِن طاقتِها -لأنَّه يتغـذَّى مِن غِذائِها-؛ فيكون هذا أشدّ وأعظَم؛ لأنه جامعٌ بيْن الإثْقال وبيْنَ المُشاركة في الغِذاء؛ ولهذا تحتاجُ المرأة الحامِل إلى غِذاءٍ أكثَر، ومِن ثَمَّ أَباحَ الشرعُ لها أن تُفْطِر في رمضانَ؛ مِن أَجْل أَلَّا يَنْقُصَ الغِذاءُ عليها فتَتعَب هِي ويَتضرَّر الجَنين، وهذه مِن حِكمةِ الله عَزَّوَجَلَّ، كذلك أيضًا يَلحَـقها وَهَنٌ عِنْد الطَّلْق، فالطَّلْق يُؤْلِم ويُوجِع فليس بالأمرِ الهَيِّن؛ لأنَّ الطَّلْق -بإذنِ الله- يَأتي مِن أَجْلِ أن يَنْقلِب الجَنين حتى يَسْتَعِدَّ للخُرُوج.

فإن وَضْعَ الجَنين في بَطْنِ أُمِّه: أنَّ رأسَه إلى جِهَة رأسِ الأُمِّ، ووجهُه إلى جِهَة ظَهْرِ الأُمِّ، وظَهرُه إلى جِهَة بَطنِـها، فهو مُعَاكِسٌ لأُمِّه في الاستِقْبَال، وهذه حِكْمة؛ لأَنَّه إذا كان وجهُـه إلى الظَّهْر صارَ الظَّهْرُ حاميًا لَه؛ لأَنَّه عِظَام يَحْمِي وجهَ الجَنين، لو كان وجهُ الجنين إلى وجهِ أمِّه فليس هناك شيءٌ يَحمِيه، وكان أدْنَى ضَرْبة -مثَلًا- أو شَيء تُصِيب وجهَه، لكن مِن حِكْمةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ أنَّه جعلَهُ هكذا.

ولذلك قال العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: لو ماتَتِ امرأةٌ كافِرة كِتَابيَّة حامِلٌ بِولدٍ مِن مُسْلِم تُدْفَن على جَنْـبها الأَيسَر، إن أَمكَن أن تُدْفن وحدَها لا في مَقـابِرِ المُسلِمين، ولا في مَقابِرِ الكُفَّار فهو أَوْلى، فإنْ تعذَّر، فإنَّها تُدفَن في مَقابِرِ المُسْلِمين على جنبِها الأيسَرِ؛ لِيكُون الولَد على الجَنْب الأَيمن مُستَقبِل القِبْلَة.

فالطَّلْق يَحصُل عند انطِلاق هذا الولَدِ، هذا الولَدُ سيَنْقلِب عِند الوضْع لِأجْل أن يَكون رأسُه هو الأسْفَل حتى يَخرُج، وأوَّل ما يَخرُج مِن الجنين هو الرأسُ، وتَتألَّم مِن هذا الطَّلْقِ بِلا شَكٍّ، ثُمَّ عند الوَلَادة أيضًا تتألَّم ويَلحَقُها ضَعْف، ورُبَّما يَلحقُها إغماء وتَعَب، وربما تَموت، فاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُذَكِّرُ الإنسان حالَ الأُمِّ في هذه الأحوالِ

التي كُلُّها أحوال ضَعْف عَلى ضَعْف.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾؛ أي: ضعُفَت لِلحَمْل، وضعُفَت لِلطَّلْق، وضَعُفَت لِلولادة، ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾؛ أي: فِطامُه ﴿فِى عَامَيْنِ﴾].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [فِطامه]، لكن مُخرَجٌ مِنها مُـدَّةُ الحَمْل؛ لأن الله تعـالى قال في آية أُخرى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ فإذا أَسقَـطْنَا أقلَّ مُدَّة الحَمْل سِتَّةَ أَشهُر بَقِي أربعـة وعِشرون شهرًا، وهي عَامَان.

و﴿عَلَىٰ﴾ هنـا للاستِعلاء يَعنِي: وهنٌ مُضافٌ على وَهْن. مِثـلما تَقول مثَلًا: وضَعْتُ كِيسًا على كِيس، ولَبِنَةً على لَبِنَة، وما أَشبَه ذلك.

الوهَن كلُّه بسبَب الحَمْل، ولكن ذاك عند نَشْئِه، والثاني عِند الطَّلْق، والثالث عند الولادة.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾، وقُلْنا له: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾] قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ يَعنِي: أنَّه لا يَنفَصِل مِن أُمِّه إلَّا بعد عامَيْن، فيُضَاف إلى الحَمْل مُدَّة الفِصال، ففيـها تعَب لا شَكَّ، فإنها تُرضِعُه وتَسْهَرُ لسَهَرِه، ويَتأَلَّم قلبُها لألَمِه، وتُصلِحُ شأنَه مِن تَنظيفِه، وتَنظيفِ ثيابِه، وحملِه عِنـد البُكَاء، وغيرِ ذلك، إذن فهي في تعَبٍ مِن حين يُحمَل إلى أن يُفصَل بعدَ ولادتِه في عامين.

ولمْ يَذكُرِ الله عَزَّوَجَلَّ في حـقِّ الأبِ شيئًا؛ لِأَنَّ الأبَ فِي الغالِب يُتَّـقَى ويُخْشَى، فلا حَاجَـةَ إلى أن يُبيَّنَ ما يَنالُه مِن ابنِه حتَّى يَكُونَ حَافِزًا للابْن على القِيـام بحقِّه،

لكنِ الأمُّ لَّما كانت ضَعيفَةً، ورُبما يَتهاوَن الإنسانُ بِحقِّها ذَكَرَ الله عَزَّوَجَلَّ مِن أحوالها ما يَكونُ سببًا لِقيام الابْنِ بِواجبِه.

وهذا تَرَوْنَه كثيرًا في القرآن، فالشيءُ الذي يُخشَى فيه التَّهاوُن يُؤَكَّد؛ مثال ذلك: الوصِيَّة والدَّيْن في التَّرِكَة، فالدَّينُ يُقَدَّم عَلى الوَصِيَّة بالإجماع، ومع ذلك ذَكَر اللهُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الوصِية في آياتِ المَوارِيث قَبل الدَّيْن، وقدَّمها في الذِّكْرِ على الدَّيْن؛ لأنَّ الوَصِيَّـة حقٌّ قَد يَتَهاوَن بِه الوَرَثَة، والدَّيْن لا يَتَـهاوَن بِه الوَرَثَة، فورَاءَه مَن يُطالِب بِه، وهو صاحِبُه، فالله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ قد يَدْعَم الأشياء التي يُخشَى فيها التَّهاوُن بِأوصافٍ تَحمِل على القِيام بما يَنبَغي أن يَقومَ به.

فهنا لَّما كانتِ الأُمُّ ضعيفةً، وكان الإنسان قد يَعتَدِي عليها وعلى حقِّها أكثَرَ ذَكَرَ الله تعالى مِن أسباب بِرِّهَا الموجِبَة ما لم يَذكُرْه في حقِّ الأبِ، وأَظُنُّنا كُلنا يَعلَم أنَّ الابنِ قَد يَعتَدِي على أُمِّه بالسَّبِّ والشَّتْم، وربَّما بالضَّرب، لكن على أبيه لا يَستَطِيع، ولا يَعتَدي عليه بِمِثْل اعتِدائِه على أُمِّه، وإذا لم يَقُم بحَقِّه فإنَّ أباه يَفرِضُ ذلك عليه؛ فلهذا ذَكَرَ الله تعالى هذه الصِّفاتِ في الأُمِ؛ ليَكونَ حَثًّا لنا على القيام بحَقِّها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: عِنَاية الله عَزَّوَجَلَّ بمُعامَلةِ الوالِدين؛ ولهذا أَوْصَى بها سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وَصِيَّة.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنه سبحانه أَرْحَمُ بالوالدين مِن أولادهما؛ لأنَّ الله تعالى أَوْصى الأولاد بالوالِدين.

إِذَنْ: فهو أرحَمُ بالوالدين مِن الأولاد، كما قلنا في قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ

فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [النساء:١١]: أنَّ في الآية دليلًا على أنَّ الله تعالى أرحمُ بالولَد مِن وَالِدَيْه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بيانُ عِظَمُ حُقُوقِ الوالِدين؛ ولهذا جعلَها الله وَصِية، والوصية كما سبَقَ هي أن يُعْهَدَ إلى شَخْصٍ بأمْرٍ هَامٍّ، فهذا دليل على عِظَم حُقُوقُ الوالِدَيْن.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن يُذْكَر لِلمُخاطَب ما يَحْمِلُه على امتِثَال ما وُجِّهَ إليه؛ لقوله تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّه يَنبَغي تَقْوِيَةُ الجانِبِ الضعيف بما يُقَوِّيه، ويُؤْخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾، فإنَّ الله تعالى ذَكَر ما يَحْسُن للأُمِّ إغراءً لِلقِيامِ بِحَقِّها، ولم يَذْكُر ما يَحْسُن للْأَب؛ لأن -كما قُلنا في التَّفسير- الأمَّ ضَعيفة تَحتاج إلى مَن يُقَوِّي جَانِبَها.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ حَقَّ الأُمِّ أوجَبُ مِن حَقِّ الأَبِ، فالله تعالى ذَكَر ما تُعانيه الأُمُّ مِن المَشَاقِّ إشارةً إلى أنها أحَقُّ؛ لأنَّه بالنسبة للأبِ لا يَجِد كثيرًا من هذه المَشاقِّ، ولكن الأُمَّ هي التي تَجِد تِلك المَشاقَّ، صحيحٌ أنَّ الأبَ قد يَتحَمَّلُ مَشاقًّا أُخرى مثل حُصُول النَّفَقَة، وما أَشبَه ذلك، لكن الأَلَم البدَنيَّ للأُمِّ لا يَكُون لِلأبِ.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه يَنبَغي للأُمِّ أن تَصْبِر على ما يَنَالُها مِن مَشَقَّة الحَمْل؛ لأنَّه أمْرٌ طَبِيعِيٌّ؛ لِقوله تعالى: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾.

يَتفَرَّع مِن هـذه الفائِدةِ: بيان خَطَأ بعضِ النِّساء اليَوم اللاتي لا يَصْبِرْنَ على وَهْن الحَمْل، فتَجِد المرأة تَستَعمِل حُبُوبًا لِمَنْع الحَمْل، تَقول: لأنه يَلحَقهن مَشَقَّة. وما أَشْبَه ذلك، وبعض النساء يُحاوِلْن أن يَلِدْن عن طَرِيق العَمَلِيَّة، تَقول بأنَّه أهْوَنُ.

كل هـذا فِرَارًا مِمَّا جُبِلَت عليه المَرأة مِن الضَّعْف عند الحَمْـل، وعِند الطَّلْق، وعند الوِلَادة، نعَمْ إنِ احتاج الأمر إلى عَمَلِيَّة هذا لا بأسَ بِه لِلضرورة، وإلَّا فإنَّه لا يَنبَغي ذلك؛ لأن هذا خِلاف ما فَطَرَ اللهُ تعالى عليه المرأة.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ أقلَّ الحَمْل سِتَّةُ أَشْهُر، مِن قَولِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيْنِ﴾، وقد قال تعـالى في سورة الأحقـاف: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥]، فإذا أَسقَطْت عامين مِن ثلاثِين شَهرًا بَقِي سِتَّة أشهُرٍ.

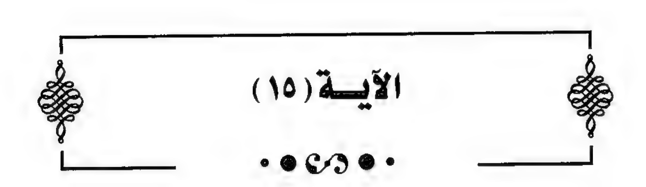
وذَكَر ابنُ قتيبةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المعارِف): أنَّ عبد المَلِك بن مَرْوانَ وُلِد لِستَّة أَشهُر. وهو الخَليـفة المُحنَّك كما هو مَعْرُوف، ويَقول الخُبَراءُ في هذه الأُمـورِ: إنه إذا وُلِد لِستَّة أشهر يُمكِن أن يَعِيـش لكن لِسبعة أَشهُر قَد لا يَعِيش؛ وهذا حِكْمة لا نَعلَم عنها شيئًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: وُجـوب الشُّكْر لِلوالِدين كما يَجِـبُ الشُّكْر لله تعالى؛ لِقوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أنَّ شُكْرَ الله تعالى مُقَدَّم على غيره؛ لأنَّه قَدَّمَه في قولِه تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾، فقَدَّم الشُّكْرَ له على شُكْر الوالِدين مع عِظَمِ حَقِّهِما.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنَّ مَرْجِـع الأُمُورِ إلى الله تعـالى؛ لِقوله تعالى: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾، وتقدِيمُ الخَبَر يَدُلُّ على الحَصْر؛ أي: أنَّه إلى اللهِ وَحْدَهُ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: التحْـذِيرُ والتخْـوِيفُ مِن المُخالَفة؛ لأنَّ قوله تعـالى: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ يَعـنِي: وسَأُحَاسِبُك أيها الإنسانُ، فَصِلَةُ هذه الجُملةِ بما قَبْلها أنَّها تُفِيدُ التهدِيد والتحذِير لِلمُخَالِف.



الآية (١٥)

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان:١٥].

•••

الضمير في قولِه تعالى: ﴿جَاهَدَاكَ﴾ ضمير فاعِل يَعُود على الوالِدَين، ومَعنَى ﴿جَاهَدَاكَ﴾ نَقول: لم يَذكُر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مَعناها، لكن مَعناها: بَذَلَا الجُهْد مَعك.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ يَعنِي: على أن تَجْعَل مَعِي شَرِيكًا لا عِلْمَ لَك بِه.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ هو قَيْدٌ لِبَيَان الواقِع، وليس قَيْدًا احْتِرَازِيًّا؛ لأَنَّه لا يُمْكِن أن يُوجَدَ عِلْمٌ بأنَّ لله تعالى شَرِيكًا، وهذا كقَولِه تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ﴾ [المؤمنون:١١٧].

فإن قال قائِل: ما فَائِدةُ هذا القَيْدِ، وقد عُلِم أَنَّه لن يُوجَد؟

قلنا: الفائِدةُ فيه تَحْقِيق هذا الأَمرِ، حتى لا يُحَاوِل أحَدٌ أن يَبحَث ويَطْلُبَ عِلْمًا أو بُرْهَانًا بأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ له شَرِيك، فكأَنَّه يَقول: هذا هو حقيقةُ الواقِع، وما كانَ حقيقةَ الواقعِ فلا يُمكِن أن يَتَخَلَّف، وهذا هو فائِدة قولِه تعالى: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَيْسَ﴾: ﴿مَا﴾ هذه يُحتَمَل أن تَكُونَ اسْمًا مَوْصُولًا، أي: الذي ليس لك به عِلْم، ويُحتَمَل أن تَكُونَ نَكِرَةً مَنصوبةً، أي: أن تُشْرِك بِي شَرِيكًا ليس لك بِه عِلْم.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ جوابُ الشَّرْط، وهو: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ﴾ إن جاهَداك فلا تُطِعْهما، وتَأَمَّلْ قولَه تعالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، ولم يَقُل: فلا تَبَرَّهُما، ولم يَقُل أيضًا: فاعْصِهِما؛ لِأَنَّ كَلِمة ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أهـونُ في النَّفْس مِن كلِمة: فاعْصِهما؛ ولهذا كان قولُ إبراهيمَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِأَبيه: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾ [مريم:٤٣] أهونَ مِن قوله: يا أبتِ إنك جاهِل بما عندي؛ لذا قال تعالى: ﴿إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ﴾؛ لأنَّ نفيَ الكَمال أهوَنُ مِن إثْبات النَّقْص على النُّفوس.

ويُذْكَر أنَّ أحـدَ الملوك رأَى في المَنَام أنَّ أسنـانَه قد سَقَطَت، فقال: ادعوا لي مُعَبِّرًا يُعَبِّر هـذه الرؤيا. فجاؤُوا برجُل لِيَعْبُرَها، فقَـصَّ عليه الرؤيا، فقال: يَموتُ أهلُك. فلَمَّا قال: يَموتُ أهلُكَ. فَزِع الملِك وهَلَع وقال: اجلِدُوه، فَجَلَدُوه وانصرَف. قال: أعطوني غيرَه فجاؤُوا برجُلٍ آخَرَ، فقَصَّ عليه الرؤيا، فقال: الملِك يَكون أطولَ أهلِه عُمُرًا. فأَكْرَمَه وأَسْبَغ عَليه النِّعَم، ومعنى ذلك مُتقارِب، فإذا كان أطولَهم عُمُرًا فمَعناه: أنهم يَموتون قبله.

والحاصِلُ: أنَّ التعْـبير له أثَرٌ على النَّفْس، فكلمة: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ أهوَنُ مِن كَلِمة: اعْصِهما. ثُمَّ قوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ لم يَقُل: لا تَبَرَّهما، أو: لا تَقُمْ بحَقِّهما، فحَقُّهُما واجِب، ولو أَمَرَاك بالشِّرْك فإذا كان الوالِـدان لهما حقٌّ واجِب ولو أمَراك بالشِّرْك، فكيف إذا أمَراك بما دُونَ الشِّرْك؟! ولهذا حقُّ الوالدين ليس بالأَمْر الهيِّن.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾؛ لأنَّه لا طاعة لِمَخْلوقٍ في معصِيةِ الخالِق، فإنَّ حقَّ اللهِ أوجَبُ مِن حقِّ الوالِدين، هو الذي أَوْجَبَ لهما الحَقَّ فكيف نُضيع حقَّه مِن أجْلِ حقِّهما؟!

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ مُوافَقَةً للواقِع] هذا تَفسيرٌ لِقولِه: ﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي: أن هذا هو الأمرُ الواقِعُ ليس لك به عِلْم.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾؛ أي: بالمَعروف: البِرِّ والصِّلَة]، قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾، كلِمة ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾ ظَرْفية لا شَكَّ فيها، ويُحتَمَل أن يَكون المُراد بالدنيا شُؤُونها؛ يَعني: في أمُورِ الدنيا صاحِبْهما مَعْرُوفًا، أمَّا في أمُورِ الدِّين فلا تَتَعدَّى ما أمَرَكَ اللهُ بِه، ويُحتَمَل أن يكون في الدنيا؛ أَيْ: في هذه الدُّنيا، لكن المعنى الأوَّل أبلَغُ؛ لأنَّه مِن المَعْلوم أنَّ المُصاحَبة بَيْن الوالِدين والوَلَد إنها تكونُ في الدنيا، فلا حاجَةَ إلى التقدِير، فالظاهِر أنَّ المَعنَى ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي: فيما يَتَعلَّق بأمُورِ الدُّنْيا صاحِبْهما مَعروفًا.

قال المُفَسِّر: [بالمعرُوف] ومعنى هذا التَّفسيرِ أنَّ ﴿مَعْرُوفًا﴾ مَنْصُوبٌ بِنَزْعِ الخَافِض، والنصبُ بِنَزْعِ الخَافِض مع غَيْر (أنَّ) و(أَنْ) ليس بِمُطَّرِد، بل هو شاذٌّ، وإذا كان كذلك فإنَّه لا يَنبَغي أن يُحال القرآن عليه، ولو قيل: إنَّ ﴿مَعْرُوفًا﴾ صِفَة لِمَصدرٍ محذُوف، التقدير: صَاحِبْهما صِحَابًا مَعْرُوفًا، يَعنِي: صُحْبَةً مَعْرُوفَة، ليس فيها عُنْف، وليس فيها تَوبِيخ، ولا لَوْم، وليس فيها نَقْصٌ مِمَّا يَجِبُ لهما لكان هذا أَوْلى.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [بالبِرِّ والصِّلَة] البِرُّ: كثرة الخَيْر، والصِّلَة: عَدَم القَطِيعَة، فالمَعنَى: صِلْهما وبِرَّهما بما يَستَحِقَّان مِنك، لكن في أُمُورِ الدُّنيا فَقَطْ.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ﴾ طَرِيق ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ رجعَ ﴿إِلَيَّ﴾ بالطَّاعَة] قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ﴾: ﴿مَنْ﴾ هذه اسمٌ مَوْصول، والاسمُ المَوْصول يُفيدُ العُموم، فهل هو على عُمومِه أي: اتَّبع سبيل مَن أناب إليَّ مِنْهما أو مِن غيرِهما، أو هُو عامٌّ أُرِيدَ به الخُصُوص؛ أي: مَن أناب إليَّ مَنهما؟

الجَوابُ: الأَوْلَى أن نَقُول بالعموم ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ مِن كُلِّ النَّاس، وعلَيْه فمَن أَنابَ مِن الوالِدَين إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَكونُ اتِّباعُ سبيلِه مِن بابِ أَوْلى.

وقوله تعالى: ﴿أَنَابَ﴾ بمَعنَى: رَجَع مِن المَعصِية إلى الطاعة، ومِن الشِّرْك إلى التوحيد، ومِن الفُسُوق إلى الاستِقامة والتَّقْوى.

ويُقال: إن سعـدَ بنَ أبي وقَّاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لمَّا أَسلَم قالت له أُمُّه: ما هذا الدِّينُ الذي أَتَيْت به؟ فقال: هذا هو الحقُّ. فقالت له: لَتَترُكَنَّه أو لَأَدَعَنَّ الطعامَ والشَّرابَ حتَّى أمُوت، فتُعَيَّر بي. فقال: هذا حـقٌّ لا أَدَعُه. فأَمْسَكَت عن الطَّعـام والشراب يومًا كامِلًا، فلمَّا أَصبحَت إذا هي مُجْهَدَة -يَعنِي: مُتعَبة مِن الجُوع والعَطَش- فطلَب منـها ولَدُها أن تَأكُل وتَشْرَب، وقال: أنا لَن أَرْجِع عن هـذا الدِّينِ. ولكنَّها أَبَتْ، وفي اليوم الثاني: أَصبحت أكثَرَ جُهْدًا، فقال لها: كما قال في الأوَّل: إنِّي لن أَدَع هذا الدِّينَ. فبَقِيت على عِنادِها، فلمَّا كان في اليَوْم الثَّالِث، وإذا هِي قد أَصْبحَت مُجْهَدَة جُهْدًا شَدِيدًا، فقال لها: يا أُمِّي تَعلَمِين أنَّ هذا هُو الحقُّ، واللهِ لو كانت نَفسُكِ مِئَة نَفْس وماتَت كُلُّ نَفس -يَعنِي: وحدَها- واللهِ ما أَدَع هذا الدِّينَ. فلمَّا رأَت أنَّ الرَّجُل عَازِم أَكَلَتْ[1].

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب في فضل سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رقم (١٧٤٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بنحوه.

فمِثْل هذه الحالِ لا يَجُوز للإنسان إذا رأَى أن أُمَّه سوف تَموت أو أبوه سوف يَموت لا يَجوز له أن يُشرِك.

فإن قال قائِل: لو أَراد أن يَقول: إنَّه مُشْرِك بِلسَانِه مُتأَوِّلًا هل يَجوز ذلك؟

فالجَوابُ: لا يَجوز أن يُوافِق ولو بِالتَّأْوِيل، فلْيَصْبِر، ويَقول: أنا ما ضَرَرْتُكِ شيئًا، أيُّ شيء تُريدين مِن أمور الدُّنيا فأنا مُسْتَعِدٌّ له. يَعني: ما ضَرَرْتُك، فإن شِئْتِ فكُلِي، وإن شِئْتِ فلا تَأْكُلِي.

المُهِمُّ: أنه لا يَجوز أن يَقول ولو مُتَأَوِّلًا، إلَّا إذا لو خَافَ على نفسِه هو، وهذا فَرْق بين مَن يَخاف على نَفْس غيرِه أو على نَفْسِه، فلو خافَ على نَفْسِه هو أن يُقْتَل فلَه أن يَقُولَ ذلك مُتَأَوِّلًا؛ لقولِه تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾ [النحل:١٠٦] على أنَّه -أي: المَسأَلة الأخيرة- لا يَجوز فيها إذا كان فيه نُصْرةٌ للإسلام، فإنَّه إذا كان في ثُبُوتِه نُصْرة للإسلام وفي مُوافقَتِه ظاهِرًا خُذْلانٌ لِلإسلام حَرُم عليه ذلك؛ لأنَّه حينئذٍ يَدخُل في باب الجِهاد مِثْل ما حصَل للإمامِ أَحمَدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، دُعِيَ إلى القَوْل بخَلْقِ القرآن، ودُعِيَ غيرُه أيضًا إلى القولِ بخَلْق القرآن، فَمِن العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ مَن تَأَوَّل وأَجابَ ظاهِرًا بما يُدْعَى إليه، ومِنهم مَن أَصَرَّ فقُتِل، ومِنْهم مَن أَصَرَّ فحماهُ الله تعالى مِن القتل كالإمامِ أحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالإمام أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يُجِبْهم ولو بالتأويلِ؛ لأنَّ الناس يَنظُرُون ماذا يَقولُ الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فلو قال: إنَّ القُرْآن مخلوق. ولو بالتَّأوِيل، سيَقول العامةُ: إنه مَخْلُوق. وتَنطَلِي هذه البِدْعةُ على عُمُوم المُسلِمين، فرأَى رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه لا يَجوز أن يَتأَوَّل في هذه الحالِ؛ لِما في ذلك مِن خُذْلان الحقِّ وإثبَاتِ البَاطِل.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ هذا التَّعقيبُ لَمَّا ذكَر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

أنهما إذا أَمَرا بالشِّرْك فلا تُطِعْهما، وأنَّ الواجِبَ عليك اتِّباع سبيل مَن أَناب إلى الله تعالى، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ أي: بعد هذه المُحاولاتِ مِنهما بأن تُشْرِك بالله تعالى، وبعد أن تُطِيع فالمَرجع إلى الله تعالى.

وقولُه تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ جُملة اسمِيَّة خَبَرية قُدِّم فيها الخبر لإفادة الحَصْر، ﴿إِلَيَّ﴾ لا إلى غَيْرِي، ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ يَعنِي: مَرَدُّكم، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [فاطر:٤].

وقوله تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ بمَعنَى: أُخبِرُكم، ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، والإنباءُ هذا يَستَلْزِم المُجَازَاة، وقد لا يَكون هناك مُجازَاة؛ ولهذا دائِمًا يُعبِّر الله عَزَّوَجَلَّ بالإنباء -أي: الإخبار- لأنَّه قد يُجازِي وقد لا يُجازِي، فإنَّه يَخلو بعَبْدِه المُؤمِن ويُخبِرُه بذنوبِه ويُقرِّرُه بها، ثم بَعْد ذلك يَقول: «سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ»[1].

وقولُه تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بالذي كُنْتم تَعمَلون، وهو شامِل لكل ما يَعمَله الإنسان مِن صَغِير وكبِير دون ما لم يَعمَله، فلو هَمَّ بالشيء فلم يَعمَلْه فإنه لا يُجازَى عليه، لكن قد يُثَاب عليه إذا كان مَعصيةً ترَكَها مِن أَجْل الله عَزَّوَجَلَّ فإنه يُثَاب على هذا التَّرْكِ.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فأُجازِيكم عليه، وجُملة الوَصِيَّة وما بعدَها اعْتِراض] فقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فأُجازيكم عليه] كأنَّه جعَل مِن لازِم الإنباء المُجَازاة، ولكن كما قُلْت: ليس لازِمًا؛ ولهذا عبَّر الله عَزَّوَجَلَّ بالإِنباءِ؛ لِيَكونَ الأمرُ جائِزًا أو دائِرًا بين

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، رقم (٢٤٤١)، ومسلم: كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، رقم (٢٧٦٨)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

أن يُجازَى عليه وبَيْن أن لا يُجازَى عليه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وجُملةُ الوَصية وما بعدَها اعتِراض] الوصية مُبتَدَأة مِن قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ اعتِراضٌ مِن قولِ الله عَزَّوَجَلَّ، وليس ذلك مِن قول لُقمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنِه؛ لأنَّ الذي وصَّى الوالدين إحسانًا ووجَّه الإحسان هو الله عَزَّوَجَلَّ، وإنَّما جاءَتْ هـذه الوصيةُ بعد ذِكْر الشِّرْك؛ لأنَّ عُقُـوق الوالِدين يَرِد بَعْد حَقِّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وفي الوصية أيضًا جُمْلَة اعتِراضية، هي قوله تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾؛ لأنَّ قـولَه تعـالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ﴾ هـو المُوصَى به: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾.

إذَنْ نَقول في هذا: الوَصِيَّةُ اعتِراضِية بين كَلامَيْ لُقْمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابْنِه؛ وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ اعتِراض أيضًا بَين فِعْل الوصية والمُوصَى به.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: تَحـريمُ طاعَةِ الوالدين إذا أَمَرَا بالشِّرْك؛ لِقَولِه تعـالى: ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾، ويُقـاس على ذلك كل مَعْصِيَة أمَرَا بها فإنهما لا يُطَاعَان؛ لِقَوْلِ الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ**»[1].

---

(١) أخرجه بلفظه الطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ١٧٠، رقم ٣٨١) من حديث عمران بن حصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ويشهد له ما أخرجه البخاري: كتاب الجهاد، باب السمع والطاعة للإمام، رقم (٢٩٥٥)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، رقم (١٨٣٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا بلفظ: «**السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بالمعصية، فإذا أمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة**».

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ فُسُوقَ الوالدَيْن وكُفْرَهُما لا يُسْقِطُ حَقَّهُما مِنَ البِرِّ، يُؤْخَذ ذلك مِنْ قَوْلِه تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾، فإنَّه أَمَر بِمُصَاحَبَتِهِما مَعْرُوفًا مَع أَنَّهُما كَافِرَيْن ويَأْمُرَان بالكُفْر.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: وُجُوب اتِّبَاع سَبِيل الْمُؤْمِنِين؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾، ويُؤَيِّدهُ قَولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أَنَّ جَمِيعَ الخَلَائِق مُؤْمِنِـهِم وكَافِرِهِم مَرْجِعُهُم إِلى الله تعالى؛ لِقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أَنَّ الحُكْمَ بَيْنَ الخَلْقِ إِلَى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لِقَوْلِه تعالى: ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ فإِنَّ تَقْدِيم الخبَر يَدُلُّ على الحَصْر.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إحاطَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بكُلِّ شَيءٍ عِلْمًا؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فإِنَّ الإِنْبَاءَ بما نَعْمَل لا يَكُون إِلَّا عن عِلْم.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إِثْبَاتُ الكلامِ لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقولِه تعالى: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ والإِنباءُ إِخْبَار.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: تَحذير الْإِنسان مِن الأعمال السَّيِّئَة فإِنَّ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ يُفِيدُ التَّحْذِير، حتى لا نَقَعَ في أَمْرٍ حَرَّمَهُ اللهُ تعالى علينا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: بُلُوغُ الغَايةِ في البَلاغَة في القرآنِ الكَرِيم؛ لِقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾ ولم يَقُل: فأُجازِيكم؛ وذلك أَنَّه قد يُنَبَّأُ الإِنسان يَومَ القيامة بِما عَمِل،

ثُم يُغْفَر له، فذَكَرَ الله تعـالى الإِنباء؛ لأَنَّه مُؤَكَّد، أَمَّا الُمجَازَاة فإن الله تعالى قد يَغفِر عن الُمذنِب ذُنوبه.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إن قال قائِل: هل يُؤْخَـذ مِن الآيَةِ الكريمة: وُجُوبُ طَاعةِ الوالِدَين في غير مَعصِية الله تعالى؟

فالجَوابُ: إذا أَمَرَا بغير المَعصية فالآيَةُ سكَتَتْ عن ذلك، فحَرَّمَت الطاعَة في المعصية وسكَتَتْ عمَّا عَدَا ذلك، لكن قد يُقال: إنَّ قولَه تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ يَدُلُّ على وُجُوبِ طاعتِهما في غَيْر المَعْصِيَة؛ لأنَّه لا شَكَّ أن مُصاحَبَتَهما في المَعروف بِامتِثَال أمرِهما، وعلى هذا فقَدْ يُسْتَدَلُّ بعُمومِ قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ على وجوبِ طاعتِهما في غير المَعْصِيَة، ولكنَّه سَبَق لنا أثناء التَّفسير أنَّ شيخ الإسلام ابنَ تيميَّةَ[1] رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: تَجِبُ طاعتُهما فيما فيه نَفْعٌ لهما ولا ضرَرَ عليه فيه، أمَّا ما فيـه ضرَرٌ عليه فلا يَجِبُ عليه الطاعة؛ ولهذا لَمَّا ذَكَرَ أهـلُ العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أن لِلأَبِ أن يَتَمَلَّكَ مِن مَالِ ولَدِه ما شاء قالوا: بشَرْط أَلَّا يَضُرَّ الولَد، فإِنْ ضَرَّ الولَد فإنه ليس له أن يَتَمَلَّك، بل قالوا: بشَرْط أَلَّا يَضُرَّه وأَلَّا تَتَعَلَّقَ بِه حاجتُه، فإن تَعلَّقَت به حاجتُهُ فليس له أن يَتملَّكَه.

والمَقصود بالحاجة هنـا حاجتُه الخاصَّة بمَـعنَى أنه مثَلًا لا يَجِـد غيره، أو كل شيء يَحتاجه، لكن مثلًا إناء يَحتاجه فيَشترِي بدَله، أمَّا (زُّهْرِيَّة) يَحتاجُها فلا نَقول للأَبِ: أن تَتَمَلَّكَها؛ لأن هذا يُفَوِّت على الابنِ حاجتَه واستِمْتاعَه بها.

فإن قال قائِل: قد قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ

(١) انظر: الاختيارات العلمية (٥/ ٣٨١).

﴿ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة:٤] ألَا يُنافِي ذلك أمرَه بمُصاحَبَتِهما بالمَعروف؟

فالجَوابُ: لا مُنافاةَ بينهما؛ لأنه ليس مَعنَى مُصاحَبِتهما بالمَعروف أن تُبْدِيَ لهما المَحبَّة والوِلاية، بل أنت تُبغِض ما هُما عليه مِن الكُفْر والشِّرْك، وتُبغِضُهما على هذه الصِّفاتِ التي اتَّصفا بها، ولكن تُعْطِيهما ما يَجِبُ لهما.

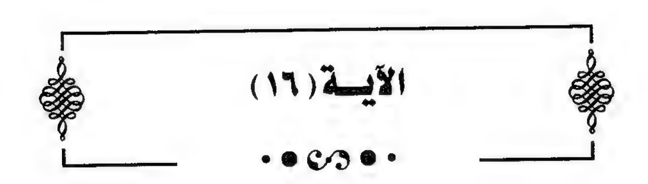
فإن قال قائِل: هل يَجوز إظهار البَشَاشَة لهما؟

فالجَوابُ: لا يَمنَع ذلك إذا لم يَكُن هذا سَببه الدِّين، فهذا أَمْر تَقتَضيه الطبيعة، والعَداوة والبَغضاء في القَلْب؛ لأن العَداوة ضِدُّ الولاية، ولكن لا نُؤذِيهم.

ثُمَّ يُقال أيضًا: قد نَقول: لكلِّ مَقَامٍ مَقال. فمثَلًا إذا كان الوالِدان أو غيرهم يَتبَجَّحَان بالكُفْر ويَفتَخِران به، فلنا أن نُعْلِن هذه البَرَاءَة والعَدَاوَةَ والبَغْضَاء، وإذا كانا سَاكِتَيْن مُسَالِمَيْن فنحن لا نَتَعرَّض لهما، ولكننا نَتَبَرَّأ -على صِفَةِ العُمُوم- ممَّا هُمْ عليه مِن الدِّين.

والمُهِمُّ: أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَقول: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أمَّا فيما يَتعلَّق بالدِّين فلا تُصاحِبْهما بمعروف أبَدًا فيما يَتعلَّق بالدِّين يَجِب أن تكْرَههما وتَبتَعِد عنها وتُعادِيهما.

• • ❁ • •



۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان:١٦].

ثُمَّ قال الله عَزَّوَجَلَّ عَوْدًا على وصَايَا لُقْمانَ عَلَيْهِ‌السَّلَامُ: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان:١٦].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّهَآ﴾ أي: الخَصْلةَ السَّيِّئةَ] فيه قُصور؛ لأنَّ الصواب المُراد ﴿إِنَّهَآ﴾ أي: الخَصْلة السَّيِّئة أو الحَسَنة كلُّ شَيْء مِن حَسَن أو سَيِّئٍ.

وقوله تعالى: ﴿إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾: ﴿مِثْقَالَ﴾؛ أي: وَزْن، وسُمِّيَ الوَزْنُ مِثقالًا؛ لأنه يُعتبَر بِثِقَلِه، فإنَّ الشيء يُوزَن لِيُعْلَم ثِقلُه مِن خِفَّتِهِ.

وقوله تعالى: ﴿حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ هذه حُبُوب معروفَة صَغِيرة.

وقوله تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ في صَخْرة في أيِّ مكان مِن الأَرْض؛ لأننا لا نَعرِف صُخُورًا إلَّا في الأَرْض، لكن الذين خرَجوا إلى القَمَر جاؤُوا لَنا مِنْه بِصُخُورٍ، فلا نَدرِي هل هذا صَحِيح أو ليس بِصحِيح، والمَعروف أنَّ الصُّخُور في الأرض، وقوله تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ إمَّا أن تكون على سبيل المُبالَغة، أو يَكون مثلًا في هذه الصَّخرةِ شيءٌ من جِنْس هذا بقَدْر حَبَّة الخَرْدل فيُعْتبَر فيها، أو يُقال:

إنَّ المُراد أنَّ حَبَّةَ الخَرْدل قد تكون في شَقٍّ مِن هذِه الصَّخرةِ.

وأنا شاهَدْتُ في الغضَا[1] يَخرُج فيه حُبَيْبَات بقدر الأُنمُلة خُضر مَختُومَة تمامًا، إذا فتَحْتَها وجَدْتَ فيها دَابَّة، تَدبُّ على بَطنِها، وهي مَختُومة، وفي نَفْس الغُصْن، ليس فيها فتحة، يَعنِي: مَخلوقٌ مِنْها هذا الشَيْءُ.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: أو في أعلى السَّموَات أو أَنزَلِها، أو في الأرض في أعلاها أو أَنزَلِها. قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: في أَخفَى مَكان مِن ذلك].

وقوله تعالى: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾: ﴿يَأۡتِ﴾ بحَذْف الياء؛ لأنَّها جواب الشرط في قوله تعالى: ﴿إِن تَكُ﴾ فإنَّ ﴿إِن﴾ شَرْطِيَّة و﴿تَكُ﴾ فِعْلُ مُضارِع مجزُوم بـ(إِنْ) الشَّرْطِيَّة، وعلامَةُ جَزْمِه السُّكون على النون المحْذُوفة لِلتَّخْفِيف، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَأۡتِ﴾ جوابُ الشَّرْط مَجزومٌ بـ(إِنْ) وعلامَةُ جزمِه حَذْفُ الياء.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ فيُحَاسِبُ عليها] هذا مِن أَخفَى ما يَكُون، ومع ذلك قال تعالى: ﴿يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾، ولم يَقُل: يَعلَمْها الله؛ لأنه مِن لازِمِ الإتيانِ بها العِلْم بها، لكن الإِتْيان أبلَغُ، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَأتِي بها ويُجازِي علَيْها، فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَأۡتِ بِهَا﴾ بمَعنَى أنها لا تَفوت ولا تَهرَبُ منه، ولا بُدَّ أن يَأتِيَ بها ويُحاسِب عليها، أو يَأتِي بها لِيُظهِرَ قُدرَته عليها.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ بِاسْتِخْراجِها ﴿خَبِيرٌ﴾ بِمَكَانِهَا] المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ دائِمًا يُخَصِّص العُموم بِمُقْتَضى السِّيَاق، والمعروف عند أهل العِلْم رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ

(١) الغضا: شجر معروف. انظر تاج العروس (غضي).

أنَّ العِبْرَة بعُمُوم اللَّفْظ، فهنا قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ جعَل اللُّطْف بالاستِخْراج، والخِبْرة بالمَكَان، والصَّواب أنها أعمُّ مِن ذلك، فإنَّ اللطيف مِن أسماءِ الله تعالى، قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُٱللَّهُ:

وَهُـوَ اللَّطِيـفُ بِعَبْـدِهِ وَلِعَبْـدِهِ وَاللُّطْـفُ فِي أَوْصَـافِهِ نَوْعَـانِ(١)

فالله تعالى لَطيفٌ بعَبْده ولطيفٌ لعَبْدِه:

اللُّطفُ الأوَّل: إدرَاك أسرَارِ الأمُور وخَفَايا الأمور.

والثاني: اللُّطْفُ عند مَواقِعِ الإحسان -الذي هو الإحْسَان إلى العَبْد- يَلْطُف له بمَعنَى: يُقَـدِّم له مِن الإحسان ودَفْـع السُّوء ما لا يَعلَمُ به، فيَكون قـوله تعالى: ﴿لَطِيفٌ﴾ يتعدَّى بالباء، ويَتعَدَّى باللَّام، فإِنْ تَعدَّى بالباء فهو بمَعنَى: العِلْم بِخفَايا الأمُور، وإن تَعدَّى باللَّام لَطِيفٌ لَهم فهو بمَعنَى الإحسان بِجَلْب المَطْلُوب، ودَفْع المكرُوه أو المَخُوف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف:١٠٠]، هذا قول يُوسُفَ عَلَيْهِٱلسَّلَامُ، يَعنِي: ومِن لُطْفِه أن يَسَّر الاجْتِماع بِكُم بعد الفِرَاق ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف:١٠٠].

فالحاصِلُ: أنَّ اللطيفَ مِن أسْمائِه تعالى، ولَه مَعْنيَان حسَب ما يُتعَدَّى به: إِنْ تَعَدَّى باللَّام ﴿لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ فمَعْناه: الإحسان، وإن تَعدَّى بالبَاء فمَعناه: العِلْم بالخَفَايا، فهو لِكمالِ عِلمِه لَطِيف، كُلُّ شيءٍ يَعلَمُ به.

هناك مَعنًى ثالِثٌ -لكن ما لا نَدرِي هل يَنطَبِق على أوصَاف الله تعالى أم لا؟- اللطيـف هو الرَّقيق عند الناس يَقولون: فُلان لطيـف، يَعنِي: رقيق حَسَنُ الخُلُق،

(١) النونية (ص٢٠٧).

وعندي أنَّ هذا داخِلٌ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ لأنه تَعـدَّى باللَّام يَعنِي: مَعناه الإحسان، فإن الإحسان أخصُّ أيضًا مِن حُسْن الخُلُق؛ لأنه يَتضَمَّن الإنعام على مَن لَطَفَ له.

وأمَّا قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿خَبِيرٌ﴾ الخَبير هو العلِيم ببواطِنِ الأمور، وهو مع اللطيف كالمُؤكِّدِ له، وقُلْنا: العِلْم ببواطن الأمور خِبْرَة، مَأخوذٌ من الخُبَار يَعنِي: الأرض الرِّخْوة التي تُبذَرُ فيها البُذُور وتُدَسُّ فيها، فهو خَبيرٌ عَزَّوَجَلَّ عالِمٌ ببواطِنِ الأمور، ومِنها هذه الحَبَّةُ التي مِن خَردَل تكونُ في صَخْرة أو في السَّمَوات أو في الأرض.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: في هذه الوَصيةِ فائِدَة: وهي تَحذِيرُ الابْنِ مِن المُخالَفة؛ لقوله تعالى: ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ فلا تَخفَى عليه ولا تَفُوتُه.

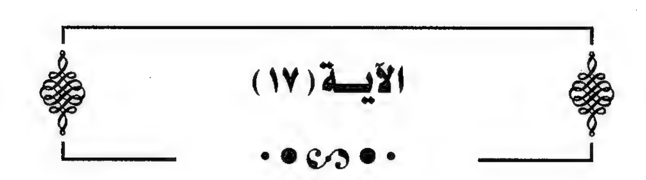
الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: عُمُوم عِلْمِ الله عَزَّوَجَلَّ، وتَمَامُ قُدْرته، ويُؤخَذ العُمُوم مِن قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والذي يَكون بادِيًا على الأرض، وليس في الصحراء مِن باب أَوْلى، فيُستَفاد مِنه: عُمُوم عِلْم الله تعالى وإِحَاطَتِه وتَمامُ قدرته أيضًا، وذلك بالإتيانِ بِها.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثْبَاتُ هَذَيْن الاسمَيْن مِن أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ وإثباتُ ما تَضَمَّنَاه مِن الصِّفَة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ السموات مُتَعَدِّدةٌ؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وعدَدُها مَعرُوف، وهو سَبْع، وأمَّا الأرض فلم تُذْكَر مَجْمُوعَةً في القرآن، فكلُّ ما في القُرآن

مِن ذِكْرِ الأرض فإنَّه بالإفراد، ولكنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أَشار إلى أنَّها جَمْع في قولِه عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]، فإنَّ قولَه تعالى: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ يُراد المِثْلِيَّة في العدَد، إذْ إنَّ المِثْلية في الكَيْفِيَّة مُسْتَحِيلة، فلَزِمَ أن تكون مِثْلِيَّة في العَدَد فقَطْ.

• ● ❁ ● •



الآية (١٧)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ [لقمان:١٧].

•●෴●•

هذه أربعةُ أَوامِرَ: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وانظُرْ إلى الأوَّل فهو نَهيٌ: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾ [لقمان:١٣]، ثُمَّ تحذير بقوله تعالى: ﴿إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ ﴾، ثُمَّ بعد ذلك أَمْرٌ: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾؛ ولهذا يُقَال: (التَّخْلِيَةُ قبل التَّحْلِيَة)، يَعنِي: مَعناها: أَزِلِ الشَّوائِب، ثُمَّ ائْتِ بالمُكَمِّلات.

فقوله تعالى هنا: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ أَمْر بإقَامَة الصَّلَاة، ومَعنَى إقامَتِها: أن يَأتِيَ بها الإنسَان تامَّةً بأركانِها وشُروطِها وواجِباتِها ومُكَمِّلاتِها، وقوله تعالى: ﴿ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ شامِل للمَفْرُوضات والنَّوافِل.

وقوله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ مَفعول ﴿وَأۡمُرۡ﴾ محذُوف التقدير: النَّاس أو غيرَهم، وَاؤْمُر غيرَك بالمعروف؛ أي: بالقولِ المَعروف والفِعْلِ المَعروف، والمَعْرُوف ما أَمَرَ به الشَّرْع، لأنَّ ما أَمَرَ به الشَّرْع قد أَقَرَّهُ الشرع، وأَقَرَّتْه الفِطَرُ السَّليمَة.

فالمَعروفُ إِذَنْ: كل ما أُمِرَ به شَرْعًا، سَواءٌ ما يَتَعلَّق بحقِّ الله عَزَّوَجَلَّ أو بحَقِّ العِباد.

وقولُه تعالى: ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ المُنْكَر: كُلُّ ما أَنْكرَهُ الشَّرْع، أي: نَهَى عنه سواءٌ ما يَتعلَّق بحقِّ الله تعالى، أو بحُقوق العِباد، الأَمْر بالمَعروف والنَّهْي عن المُنكَر واجِبٌ على الكِفَاية؛ لِقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١٠٤]، إذا جعَلْنا (مِن) للتَّبعيض، أمَّا إن جعَلْنا (مِن) لِبيَـان الجِنْس والمَعنَى: ولتكونـوا أُمَّةً تأمُرُ بالمعروف وتَنـهَى عن المُنكَر، فإنَّه يَكونُ فَرْضَ عَيْن، ولكن الصَّواب أنه فَرْض كِفَايَة؛ لأنَّ المَقصودَ به إصلاحُ الغَيْر، فإذا حَصَل إصلاحُ الغَيْرِ بغَيرِك حَصَل المَقْصُود، أمَّا إذا لم يَحصُل فإنه يَجِب أن تَأمُر، فإذَا وجَدْنَا مِن الناس تَهاوُنًا في هذا الأَمْرِ وتَكَاسُلًا صار فرضًا علينا، أمَّا إذا رأَيْنا أنَّ الناس قد استَقامُوا على هذا وصاروا يَأمُرُون بالمعروف ويَنهَوْن عَن المُنكَر، فإنه يَكون في حَقِّنا فَرْضَ كِفَاية.

وقوله تعـالى: ﴿وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ حتى والِدَيك تَأمُرُهما بالمَعروف وتَنهاهُما عن المُنكَر، بل إنَّ حقَّ الوالِدين أَعظَمُ مِن حقِّ غيرِهما؛ لأنَّ الأَمْر بالمَعروف والنَّهي عن المُنـكَر إحسانٌ للمَأْمُور والمَنْهِيِّ، وليـس إساءةً، فإذا كان كذلك فأَحَقُّ مَنْ تُحسِنُ إِلَيْه وَالِدَاك.

فإن قال قائِل: الأَمْر بالمَعـروف والنـهيُ عن المُنكَر هل هو المَوْعِظَة فقَـطْ أم غيرها؟

فالجَوابُ: لا، نحن ذَكَرْنا فيما سَبَق، أنَّ المُراد: الثَّلَاثَة؛ بَيَانٌ ودَعْوَة، وأَمْر ونَهْي، وتَغْيير، فالبَيَـانُ والدَّعوة واجِبان على كل أَحَد، فإنه يَجِب عليـه أَنْ يُبيِّن إذا دَعَتِ الحَاجَةُ إلى البيَان أو سُئِلَ عن عِلْم، وكل أَحَد عليه أن يُبلِّغ إذا اقتضَتِ الحالُ ذلك، وأمَّا الأَمْر فهو أخَصُّ مِن الدعوة؛ لأن الأمر أن تُوجِّهَ أمرًا إلى شَخْص مُعيَّن ما هو

بأن تُبيِّن أن تَقُوم في الناس، وتَقُول: هذا حَلَال، وهذا حَرَام، هذا يُعْتَبَر مَوْعِظَة، وأمَّا التغْيير: فَأَن تُغيِّرَ بيدك تَأخُذ هذا المُنكَر تُكَسِّره مثلًا، نعَمْ، أو تَقول بِلِسانك، إذا عَجَزْت عَن الفِعْل تُغَيِّر باللسان، إمَّا بِرَفْع الأَمْر إلى مَن يَسْتَطيع التغيير، وإمَّا بالانتِهار والتوبِيخ والزَّجْر، فإن لَم تَسْتَطِع هذا ولا هذَا فيَكُون التَّغْيير بالقَلْب وهو الكراهَة والبَغْضَاء؛ وهذا في الحقيقة لا يَحصُل التغيير المُطْلَق يعْنِي: أنَّ المُنكَر لو تُنكِره بقَلْبك لا يَزُول، لكن هذا أَدْنى دَرَجاتِ التَّغْيير؛ ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في ذلك: «وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»(١).

ومن شروط ذلك: الاستِطاعة، وهذا شَرْطٌ في كل واجِب؛ لقَولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

ومِن الشُّرُوط أيضًا: أن لا يَخْشَى ضرَرًا مُحقَّقًا، فإن خَشِيَ الضرَر في مالِه أو بدَنِه لم يَلْزَمْهُ، فإن خَشِيَ الأذِيَّة لَزِمَه؛ لأَنَّه لا بُدَّ مِن أذًى، لكن أذِيَّة ما فيها ضَرَر؛ ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ﴾ هَذَا تَوْطِئَة وتَمْهِيد كَأَنَّه يَقُول له: إذا أَمَرْت بالمَعروف ونَهيْت عن المُنكَر فلا بُدَّ أن يَحْصُل لك أَذِيَّةٌ فاصبِرْ على هذا.

وهذا هو الواقِع، فإنَّ الآمِرَ بالمعروف والنَّاهِيَ عن المُنكَر غالبًا يُؤْذَى، يُؤْذِيه المَأمُور والمنْهِيُّ، إمَّا بالقول وإمَّا بالسُّخْرِيَة، ورُبَّما تَصِل الحال إلى أنه يَرْمِيه بالحِجارة أحيانًا، وربما تَصِل الحال إلى أَنَّه يُخَرِّبُ سَيَّارَته، أو يَكْسِر بابَه، أو ما أَشْبَهَ ذلك، لكن الأخير هذا ضرَرٌ في المال، ولكن لا بُدَّ أن يَكون أمرًا مُحقَّقًا، أمَّا إذا كان وَهْمًا عن الضَّرَر فلَيْسَ بِشَيْء.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم (٤٩)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ المُشار إليه ما سَبَق مِن الأمُورِ الأَرْبَعَة ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ قَال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: مَعْزُومَاتِهَا التي يُعْزَم عليها لِوُجُوبِها].

قوله تعالى: ﴿ٱلْأُمُورِ﴾ بمَعنَى: الشُّؤُون والأَحْوال، والعَزْم هنا مَصدَر بمَعنى اسْمِ المَفْعُول، أي: مَعْزُومَاتِهَا التي يُعْزَمُ عليها؛ لِأَنَّها وَاجِبَة، والله أَعلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أَنَّه يَنْبَغِي للآبَاء أن يُوصوا أبناءَهم بهذه الخِصَالِ الأربَعِ.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه يَنبَغي لِلأَبِ أن يَقْرُنَ مَوْعِظَتَه لِابنِه بالتَّرْغِيب والتَّرْهِيب، فإِنَّ قولَه تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ تَأْكِيدٌ وحَثٌّ على الابنِ أن يَقومَ بهذه الوَصَايا الأَرْبَعِ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: مِن كُلِّ هذه الوصايا، قوله تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ﴾ يُؤْخَذُ مِنه تَلَطُّف الإنسان بِمُخَاطَبَة ابنِه، لا سِيَّما في مَقَام المَوْعِظَة.

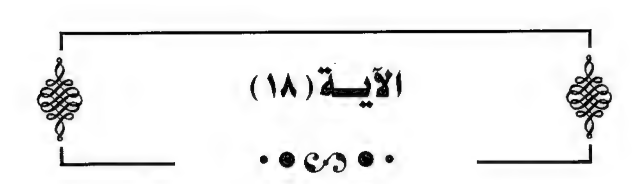
ويَتَفَرَّع على هذا أيضًا: بَيانُ سُوءِ مُعَاملَةِ بعض الآباء إذا أَراد أن يَعِظَ ابنه عامَلَه بالعُنْف والشِّدَّة، وهذا خَطَأ وقد قال النَّبِيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ اللهَ يُعْطِي بِالرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ**»[1]، وأنتَ إذا عمِلْتَ بهذا الشَّيْءِ فإنَّك سوف تَتعامَل بالرِّفْق؛ لأنَّ الرَّسُول ﷺ أَخبَر بأن الله تعالى يُعْطِي بالرِّفْق ما لا يُعْطِي على العُنْف، فإذا كان يَحصُل لك مَقْصُودُك بالعُنْف فإنَّ حصُولَه بالرِّفق مِن بَابِ أَوْلَى.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، رقم (٦٠٢٤)، دون الجملة الأخيرة، وأخرجها مسلم: كتاب البر والصلة، باب فضل الرفق، رقم (٢٥٩٣)، من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا.

وعلى هذا فيَنبَغِي الرِّفْق في الأُمُور لا سِيَّما في مَقَامِ الوَعْظ لِهؤُلَاءِ الأَبْنَاءِ الذين لا يُحِيطُون عِلْمًا بما هم عليه، أمَّا المُعَانِدُ والمُسْتَكْبِرُ فهذا له حَالٌ أُخْرى، لكِنْ كلامُنا في مَقَامِ الدَّعْوة، وفي مَقَامِ التَّوْجِيه والإِرْشَاد، فإنه يَنْبَغي التَّلَطُّف وعَدَم العُنْف.

• ● ۞ ● •



الآيــة (١٨)

• ● ∽ ● •

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان:١٨].

• ● ∽ ● •

قوله تعـالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ ﴾ هذه مَعطُـوفة على قولِه تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، فهـو إِذَنْ مِن وصايا لُقمانَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لابنِه، قال المُفَـسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ وَلَا تُصَعِّرْ ﴾ وفي قِراءة: (وَلَا تُصاعِرْ) ﴿ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ لَا تُمِلْ وَجْهَك عنهم تكبُّرًا] التَّصْعِيرُ هُو الإمالَة، ومِنـه: الصَّعَرُ فِي الوَجْه، وهو المَيَال بحيث تكُون العُنُق مُلْتَوِية، تَمِيلُ إمَّا يَمِينًا وإمَّا شِمالًا.

وقوله تعالى: ﴿ خَدَّكَ ﴾ أي: وجهَك، فهو مِن إطْلاقِ البَعْضِ وإرادَةِ الكُلِّ، وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [تكبُّرًا] نعَم؛ هذا محَطُّ النهيِ، أن يَفعَلَ ذلك على سَبِيلِ التكبُّر، أمَّا لو فعَلَه على سبيـل الإِعْراض عمَّا لا يجُـوز النظَرُ إليه، كما لو قابَلَتْـه امرأة فَصَدَّ وأَعْرَض فإنَّه لا يَدخُل في الآية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ وأمَّا إذا صَعَّرْت وجْهِي أو خَدِّي لأَجْل ألَّا أَرَى أيَّ شيءٍ محُرَّم فإنَّه لا يَدخُل في هذه الآيةِ.

وقوله تعـالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي: عنْهُم فتُمِله تكَبُّرًا. وقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ ﴾ عامٌّ، يَشْمَل المُؤْمِن والكَافِر، ولكن الكَافِرَ لا يُعامَل كما يُعامَل المُؤْمِن في مِثْل هذه الأُمُورِ، وقد يُقالُ: إنَّ شَرْعَنـا وَرَدَ بخِلافِه، وأَنَّ الكافِرِ يُصَعَّرُ له الخَـدُّ

ويُعرَض عَنه، وقد يُقال: إنَّ الكافِر إذا جاءَك مُقبِلًا فأَقْبِلْ عليه، فإنَّ هذا مِن باب التَّأليف على الإسلام، وأمَّا إذا أَعرَض فأَعرِض.

قوله تعـالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾: ﴿وَلَا تَمْشِ﴾ هذا مجزُوم بحَذفِ الياء ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: على الأرض ﴿مَرَحًا﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أي: خُيـلَاءَ]، فالمَرَح بمَعنَى: البَطَرِ والأَشَرِ والخُيـلَاءِ مِن ذلك، فلا تَكون مُتبَختِرًا في مِشْيَتِك مُتَعالِيًا في نفسِك، ولكنِ امْشِ مِشْيَةَ المُتذَلِّل الخَاضِع لله عَزَّوَجَلَّ، غيرُ المُتعَلِّي على عِبادِ الله تعالى.

وقولُه تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ ذَكَر هنا: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾، فالأوَّل: في مُعامَلَة النَّـاس ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾، والثاني: في هَيْئَتِه بنَفْسِهِ ألَّا يَمْشِيَ في الأرضِ مَرَحًا، وإنَّما يَمشِي كما يَمشِي عِبادُ الرحْمن: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ مُتبَخْـترٍ في مَشْيِـه ﴿فَخُورٍ﴾ عَلَى النَّاسِ].

قوله تعـالى: ﴿مُخْتَالٍ﴾ أي: فَاعِل لِلخُيَلَاء، و﴿فَخُورٍ﴾ أي: مُفْتَخِرٍ بِنَفْسِه، والفَرْقُ بينهما أنَّ الاخْتِيَالَ يَكونُ بالنَّـفْس، والفَخْر يَكون بالقَـوْل، فهذا الرَّجُـلُ عِندَه خُيَلَاءُ في نفسِه، واخْتِيالٌ على عِبَادِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وعنده فَخْرٌ بلسَانِه يَفْخَرُ بنفسِه، ويَقول: أنا فُلَانُ بنُ فُلَان، ويَمْتَدِحُ نفسَه، ولكن هذا ما لم يَكُنْ في الحَرْب، فإن كَان في الحَرْب فلا بأسَ أن يَفْخَرَ الإنْسَان، كما قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ:

«أَنَـــا النَبِـــيُّ لَا كَــذِبْ أَنَـــا ابْـــنُ عَبْــدِ المُطَّلِـــبْ»[1]

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من قاد دابة غيره في الحرب، رقم (٢٨٦٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٦)، من حديث البراء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

ورأى بعضَ أصحابِه يَمْشِي مِشْيَة المُتبَخْتِر فقال ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ لَمِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ إِلَّا فِي هَذَا المَوْقِفِ»[1]، ففي بَابِ الحَرْب يَجوزُ للإِنْسَان أن يَفْتَخِر، ويَجـوزُ أن يَتَعَاظَمَ في نفسِه؛ لأَنَّه أَمَامَ أعداءِ الله تعالى الذِين يَنْبَغِي إذْلَالهُم.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: ذَمُّ هاتَيْن الخَصْلَتَيْن؛ تَصْعِيرِ الخَـدِّ للنَّاس تكَبُّرًا وتَعَـاظُمًا، والمَشْيِ في الأَرْضِ مَرَحًـا، وقد دَلَّتِ الآيَاتُ الأُخْرَى على أَنَّهُما مِن المُحَـرَّمَات؛ كما في سُورَة الإِسْرَاء.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّه يَنْبَغِي لِلإِنْسَان عِنْد مُحادَثَةِ غيْرِه أن يَكُونَ مُقْبِلًا إِلَيْه بِوَجْهِه؛ لِأَنَّ النَّهيَ عن تَصْعِير الخَدِّ يَدُلُّ على الأَمْر بِضِدِّه، وهو أن يَكُون مُقْبِلًا إِلَيْه بوجْهِه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إِثْبَاتُ أَنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ؛ مِن قولِه تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ وَوَجْهُ الدَّلَالَة أَنَّ نَفْيَ مَحَبَّةِ اللهِ تعالى لِهَؤلَاء يَدُلُّ على ثُبُوتِها لِغَيرِهم.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَحْرِيمُ الاخْتِـيَال والفَخْر؛ لأَنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نَفَى مَحَبَّـتَه له، وقَد سَبَقَ الفَرْق بَين الاخْتِيَال والفَخر، الفَخْر بالقَوْل، والاِخْتِيَال بالفِعْل.

• ● ۞ ● •

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٧/ ١٠٤ رقم ٦٥٠٨).



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٩].

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ تَوَسَّطْ فِيه بَيْنَ الدَّبِيبِ والإِسْرَاعِ، وعَلَيكَ السَّكِينَة ﴿وَٱغْضُضْ﴾ اخْفِضْ ﴿مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ أَقْبَحَهَا ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ أَوَّلُهُ زَفِير وَآخِرُهُ شَهِيق].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ القَصْد مَعنَاهُ الوَسَط في الأُمُور، فالوَسَطُ في الأمور مَعناه: أنَّ الإنسان يَكُونُ وَسَطًا في مَشْيِه بين الذي يَمْشِي مُسْرِعًا والذي يَمْشِي مُتَباطِئًا، والقَصْدُ في كُلِّ شيْءٍ هو الوَسَط؛ ولهذا وَرَدَ في الدُّعَاء المَأْثُور: «وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى»[1]، فمَعنَى (القَصْد) يَعنِي: التَوسُّط في الأُمُور، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[الفرقان:٦٧].

وقولُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾، تَوَسَّطْ فيه بين الدَّبِيبِ والإسْرَاع وعليك السَّكِينَةُ والوَقَار] يَعنِي: لا تَدُبَّ دَبِيبًا وأنت تَمْشِي، ولا تُسْرِعْ سُرعَةً تُخِلُّ بالمُرُوءَة،

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٦٤)، والنسائي: كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء (أي بعد الذكر)، رقم (١٣٠٥)، من حديث عمار بن ياسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

ولكِنْ لِيَكُنْ مَشْيُـك وَسَطًا بيْنَ هذا وهذا، دَالًّا على القُـوَّة وعلى النَّشَاط كما كان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَفْعَلُ في مَشْيِه.

وقوله تعالى: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾: ﴿مِن﴾ هذه لِلتَّبعيض، فلَمْ يَقُلِ: اغْضُضْ صَوتَك. بل قال: مِنْهُ. وذلك لأنَّ الإنسان لا يُحْمَد على رَفْعِ الصَّوْتِ جِدًّا، ولا على خَفْضِهِ جِدًّا، والنَّاس مِنـهم مَن يَكُون عَالِيَ الصَّوْت إِذَا قَام يَتكَلَّم وإذَا هـو كأنَّما يَتكَلَّمُ على جَمَاعَةٍ بَعِيدِين، ومِن الناس مَن يَكُون بالعَكْس، يُكَلِّمُك رُبَّما لا تَفْهَمُ مِنْه إلَّا الكَلِمَـة بَعْد الكَلِمة، كُلُّ هذا لَيْس بِجَيِّد؛ ولهذا قَال تعـالى: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾، ولم يَقُـلِ: اغْضُضْه كُلَّه. فلا ينبَـغِي هذا ولا هذا، بل يَكُـون أيضًا قَصْدًا بين رَفْعِ الصَّوْت والإِخْفَاء.

فقولُه تعالى: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ المُرَاد به: عند المُخَاطَبَة، ثُمَّ إنَّ ﴿مِن﴾ هنا تُفِيـدُ التَّبعيض في الكَيْفِيَّة، وكذلك في الكَمِّيَّة، في بعض أحيـان يَكون الأفضَل أن تَرْفع صَوتَك، افْرِضْ أنَّك تُنَادِي قومًا بعيدِين مُتَرَامِي الأطْرَاف تُريد أن تَحُثَّهم على قِتَـال أو ما أشْبَهَ ذلك؛ فيَجُـوز رَفْعُ الصَّوْت؛ ولهذا العَبَّـاسُ بنُ عَبْد المُطَّلِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الحديث الصَّحيح لَمَّا انصرَفَ الناس أمَرَه النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أن يُنَادِيَ فقال -بأَعلَى صوتِه-: يَا أَهْل الشَّجَرَة، يَا أَصْحَابَ سُورَةِ البَقَرَة[1]. بأَعلَى صوتِه، وهذا لا شَكَّ أنَّه ليس غَضًّا مِن الصَّوْت؛ لأنَّ الله تعالى يَقُول: ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾.

فصارَ الغَضُّ مِن الصَّوْت باعتِبَار الكَمِّيَّة وباعْتِبَارِ الكَيْفِيَّة؛ نَقُول مثَلًا: إذا كُنت تُخَاطِبُ مَن إِلى جَانِبِك لا تَرْفَعِ الصَّوْت ولا تَخْفِضْهُ بِحَيْـثُ لا يَسْمَع، هذا باعتِبَار

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الجهاد، باب في غزوة حنين، رقم (١٧٧٥)، من حديث العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، دون قوله: «يا أصحاب البقرة»، وهي في رواية الإمام أحمد (١/ ٢٠٧).

الكَيفِيَّة، أمَّا باعتِبار الكَمِّيَّة فأحيانًا رُبَّما تُضْطَرُّ إلى رَفْعِ الصوت؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ يَعنِي: أحيانًا، لكِنْ في بعضِ الأحيان تَسْتَدْعِي الحَالُ أن تَرْفَعَ صَوْتَك بِقَدْرِ ما تُسْمِع.

ثُمَّ علَّلَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ﴾ يُحتَمَل أن يَكُون مِن كلام لُقْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لأنه الأصْل، ويُحتَمَل أن يَكُونَ مِن كلامِ الله تعالى خَتَمَ اللهُ به الآيَةَ.

وقولُه: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ تَعْليلٌ لقولِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾، ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ يَعنِي: أقبحَها وأبْشَعَها، ولَيْسَ أعْلَاها، لكِنْ أنْكرَها؛ لأنَّ في الحَيَوان مَن هو أعلَى صوْتًا مِن الحِمار، لَكنْ في القُبْح ليس هناك أَقْبَحُ مِن صَوتِ الحَمِير.

وقولُه تعالى: ﴿أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ الجُمْلة هذه مُؤَكَّدَة بِمُؤَكِّدَين وهي (إنَّ) واللَّام، ووَجْهُ ذلك ما ذكَره المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: أنَّ أوَّلَه زَفِير وآخِره شَهِيق.

والفَرْق بين الزَّفِير والشَّهِيق أن الشَّهِيق يَكونُ بَاطِنًا في الصَّدْر، والزَّفِير يَكُون خَارِجًا؛ ولهذا قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:١٢].

وكذلك الآيةُ الثانية: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود:١٠٦]، هذا باعتِبار السَّاكِنِين، وقال في آيَةٍ أُخْرَى: ﴿سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ﴾ [الملك:٧] فَذكَرَ الله تعالى لِلنار زَفِيرًا وشَهِيقًا كما أنَّ لِسَاكِنِيها -أيضًا- زَفِيرًا وشَهِيقًا، نَعُوذُ باللهِ تعالى مِنه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ انْتَهتِ الوِصَايَة النَّافِعَة التي هِي مِن الحِكْمَة التي أَعْطَاهَا اللهُ تعالى لُقْمان عَلَيْهِ السَّلَامُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أَنَّه يَنبَغِي لِلإنسَان أن يَكونَ مَشْيُه قَصدًا لا إِسْراعًا مُخِلًّا، ولا دَبِيبًا مُتَباطِئًا، فالإِسْرَاع الذي فِيه التَّهَوُّر والعَجَلَة والطَّيْش مَذْمُوم، والتَّبَاطُؤ والدَّبِيب أيضًا مَذْمُوم.

فإن قال قائِل: إذا احتاج إلى السرعة في المَشيِ في بعض الأوقات، فهل له ذلك؟ أو أنه أَراد أن يَذهَب إلى عمَله؛ ليَصِل في وَقْته فهل له أن يَمشِيَ كلَّ يوم هكذا؟

فالجَوابُ: ليس فيه بأسٌ، بل قد يَجِب أحيانًا كما لو احتاج لإنقاذ نَفْسه، أو إِنْقاذ غيره من هَلاكه، فكل مَقام له مَقال، فالمَقصود هنا في المَشيِ العادي؛ أمَّا في شُغْله فالأَوْلى أن يُرتِّب وقته، حتى يَخرُج إلى شُغْله بالمَشيِ المُعتاد؛ لكن لو فُرِض أنه تَأَخَّر في يوم من الأيام فله أن يَفعَل.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن يُقال: إذا كان هذا في المَشيِ الحِسِّيِّ؛ فلْيَكُن كذلك في المَشيِ المَعنَوِيِّ إلى الآداب والأخلاق، لا يَنبَغِي للإنسان أن يُسرِع سُرعة مُخِلَّة، ولا أن يَتباطَأَ تَباطُؤًا مُفوِّتًا للمَقصود، أمَّا الإسراع إلى الخَيْر فقَدْ أمَر الله تعالى به، ولكنه لا يَتجاوَز الحَدَّ؛ ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «**إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ وَعَلَيْكُمُ السَّكِينَةُ وَالْوَقَارُ، وَلَا تُسْرِعُوا**»[1].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنه يَنبَغِي للإنسان أن يَغُضَّ من صوته؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾، وذكَرْنا أنه يَشمَل الكِمِّيَّة والكيفية، فإنه في بعض الأحيان

(١) أخرجه البخاري: كتاب الأذان، باب لا يسعى إلى الصلاة، رقم (٦٣٦)، ومسلم: كتاب المساجد، باب استحباب إتيان الصلاة بوقار وسكينة، رقم (٦٠٢)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يَنبَغي رَفْع الصوت؛ كما في الأذان والخُطبة وما أشبَهَه.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن رَفْع الصوت في غير محلِّه مُحرَّم؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٩]، فإنَّ هذا التَّشبيهَ يقتضي التَّنفير منه، وقد قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**لَيْسَ لَنا مَثَلُ السَّوْءِ**»(١).

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: ذَمُّ أصوات الحَمير؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾.

ويُؤخَذ منها أنَّ للجارِ أن يُطالِب جاره إذا كان عنده حِمارًا نَهَّاقًا ببَيْعه وإزالته وكان نَهيقه غيرَ مُعتاد؛ لأن بعض الحَمير كثيرة النَّهيق؛ فعلى هذا له أن يُطالِب مِثلما قال الفُقَهاءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّ لَهُ أَنْ يَمنَعه من الرَّحى التي يُطحَن بها دائمًا، وكذلك من تَغسيل الثِّياب ودَقِّها دائمًا، كل ما يُؤذِي الجار فلِجاره أن يَمنَعه منه؛ فإذا كان الله سبحانه قد وَصَف النَّهيق بأنه أَنكَرُ الأصوات، فإن له أن يُطالِب، فيَقول: بِعْ هذا الحِمارَ، وإلَّا اجعَلْه في مَكان آخَرَ، حتى لا أَتأَذَّى به.

فإن قال قائِل: هل له أن يُطالِبه بإزالة آلات اللَّهْو التي هي أعظَمُ من النَّهيق؟

فالجَوابُ: نعَمْ، له أن يُطالِب جارَه بذلك، يَعنِي: لو أنه صار يَرفَع أصوات المَزامير -والعِياذُ بالله- والغِناء، فله الحَقُّ أن يُطالِب، حتى وإِنْ لم تُزعِجْهم؛ لأنَّ هذا مُنكَر.

ولو كان له جار، يَصعَد إلى السَّطْح في أيام الصيف، وعنده مُسجِّل فيه

(١) أخرجه البخاري: كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب لا يحل لأحد أن يرجع في هبته وصدقته، رقم (٢٦٢٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

أَشرِطة من القرآن، ثُم يَفتَحها بآخِر صوت، فلجاره أن يُطالِب بالمَنْع، فلو قال: كيف تَمَنْعُني أن أَسمَع القرآن؟ يَقول له: لَسْتُ أَمنَعك، ولكن أَقول: استَمِعْ، لكن اخفِضِ الصوت؛ لأنَّ هذا يُؤذِيني، وليس يُؤذِيني لأني أَكرَه القرآن، ولكن لأني أُريد النَّوْم، وأولادي يُريدون النَّوْم، وأهلي يُريدون النَّـوْم، والنبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يَقـول: «لَا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْقُرْآنِ»[1]، فله أن يَمنَـعه، رَغْم أنَّ هذه عند العامـة أَمْرها كبير، فلو أن أَحَـدًا طالَب مَنْع جاره أن يَرفَع صوتـه بقِراءة القرآن؛ لحَمْل الناس عليه راية الإنكار، لكن إنكار العامة أو إقرارهم ليس له تَأثير.

• • ❁ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٣٤٤)، ومالك في الموطأ (١/ ٨٠ رقم ٢٩)، والنسائي في الكبرى رقم (٣٣٤٧)، من حديث البياضي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآيــة (٢٠)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان:٢٠].

•••

ثُمَّ قال اللهُ تعالى مُقَرِّرًا ما أَنعَمَ اللهُ تعالى به على عِبادِه: [﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ تَعْلَمُوا يا مُخاطَبِين ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مِن الشَّمْس والقمَر والنُّجوم؛ لِتَنْتَفِعُوا بها ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن الثِّمار والأنهار والدوابِّ ﴿وَأَسْبَغَ﴾ أَوْسَعَ وأَتَمَّ ﴿عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً﴾ وهي حُسْنُ الصورة وتَسْوِيَةُ الأعْضاء وغير ذلك، ﴿وَبَاطِنَةً﴾ وهي المعْرِفَةُ وغيرُها].

يُقرِّرُ اللهُ تعالى في هذه الآيةِ ما أَنْعَمَ اللهُ تعالى به على العِباد فيقول تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ وإنما قُلتُ: (يُقرِّر)؛ لأنَّ همزةَ الاستِفْهام إذا دَخلَتْ على (لَمْ) أَفادَت التَّقْرِير، فينْقَلِبُ الفِعْل المُضارِع إلى مُؤَوَّلٍ بماضٍ مُؤَكَّدٍ بـ(قَدْ)، فمثَلًا ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أي: قد رَأَيْتُم، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، أي: قَدْ شَرَحْنا لَك صَدْرَك.

إذَنِ: الاستِفْهام للتقرير؛ لأنّه إذا دخلَت همزَةُ الاستِفْهام على (لَمْ) أفادَت التقرِير، فينَقلِبُ الفِعْلُ المُضارِع فِي المعْنَى إلى فِعْلٍ ماضٍ مُؤَكَّدٍ بـ(قَدْ)، فيكون

مَعنَى ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ أي: قد رَأَيْتُم؛ ولهذا في سُورَةِ ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ قال الله تعالى بعدَه: ﴿وَوَضَعْنَا﴾ فَعطَفَ فِعْلًا ماضِيًا على ما سَبَق؛ لأنَّ ما قبْلَه بمَعنى الفِعْلِ المَاضِي.

وقولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم﴾: ﴿سَخَّرَ﴾ بمَعنَى: ذَلَّل، ذَلَّلها لكم، أو لِمَصالِحِكُم، ومَنافِعِكُم ﴿مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِن الشَّمس والقمَر والنُّجُوم]، وهذا على سبيل التَّمْثِيل، وإلَّا فَإِنَّه قَد سَخَّرَ لَنا أَيْضًا الرِّيَاح، وهي بيْنَ السَّماء والأَرْض، وسَخَّر لَنا السَّحاب؛ كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:١٦٤] وهو لنا، فهو عامٌّ لِكُلِّ مَا سَخَّرَهُ اللهُ تعالى من مَصالِحِنا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن الثِّمار والأنهار والدوَابِّ، وغيرها أيضًا، حتَّى المَعَادِن وغيرها سَخَّرَها الله تعالى لنا وذَلَّلَها لَنا، فكُلُّ ما في الأرض مُسَخَّرٌ مُذَلَّل، لكنَّ بَعضَه مُسَخَّرٌ بِطَبِيعَتِه، وبعضُه مُسَخَّرٌ بِوَاسِطَة، فالحدِيد والمعادِن وما أَشبَهَها مُسَخَّرَة، لكنَّها بواسِطَة، والدوابُّ والأنهار والأشْجار مُسَخَّرَة بِدُونِ وَاسِطَة، يَجِدُها الإنْسان مُهيَّأَةً كَامِلَةً.

وقولُه تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ﴾ فَسَّرَها المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأَمْرَيْن بالسَّعَة والإِتْمام؛ أي: [أَوْسَعَ وَأَتَمَّ] ومنه قوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى المَكَارِهِ**»(١) يَعنِي: إِتْمامُ الوُضُوء، ومَعنَى ﴿وَأَسْبَغَ﴾ يَعنِي: أَوْسَعَ وأَتَمَّ، أمَّا (أَتَمَّ) فمِثالُه ما ذَكَرْت: إِسْبَاغُ الوُضُوءِ على المَكارِهِ، وأمَّا (أَوْسَع) فَمِنهُ قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ﴾ [سبأ:١١]؛ أي: دُرُوعًا سَابِغَاتٍ: وَاسِعَةً، ومنها أيضًا قولُهم: ثَوْبٌ سَابِغ. يَعنِي: وَاسِع،

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الطهارة، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره، رقم (٢٥١)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

ويَدْخُل فيه الإتْمَام أيضًا.

فالمُهِمُّ: أنَّ الإسْبَاغ يَتَنَاوَل شَيْئَيْن: الأوَّل: إِتْمَام الشَّيْء، والثاني: تَوْفِيره، والنِّعَم التي أَنعَمَ اللهُ تعالى بها عَلَيْنَا شَامِلَةٌ لِلْأَمْرَيْن، فَهِي وَاسِعَة، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤]، وهي أيضًا تامَّة، ليس فيها نَقْص، كُلُّ ما يَحتَاجُه الإنسان في حياتِه، بل وكُلُّ ما يَحتاجُه في دِينِه فإنَّ اللهَ تعالى قد أَتَمَّه، والحَمْدُ لله تعالى.

وقولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ فسَّر المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ﴿ظَٰهِرَةً﴾ بأنها الحِسِّيَّة الظَّاهِرة، والبَاطِنَة هي المَعرِفَة وغيرُها، فالنِّعَم جعَلَها اللهُ تعالى ظَاهِرَةً وَبَاطِنَة: ظَاهِرَة للعَيَان، وذكَرَ المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مِن أَمْثِلَتِها حُسْنَ الصُّورَة واسْتِقَامَةَ الخَلْق وما أَشبَه ذلك، والباطِنَة يقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [هي المَعْرِفة]؛ لأَنَّها في القَلْب غيرُ مَعْلُومة، وهذا لا شَكَّ أَنَّه تَفْسِير نَاقِصٌ جِدًّا.

وأمَّا الظاهِرَة فالصَّوَاب أَنَّها أَعَمُّ مِن ذلك فالنِّعَم إمَّا ظَاهِرَةٌ لِكُلِّ أَحَد، وإمَّا باطِنَة لا يَعلَمُهَا إِلَّا الإِنْسَان، هذا واحِد.

وإِمَّا ظَاهِرَة أيضًا بحيث كُلٌّ يَعْرَف أنها نِعْمَة، وباطِنَة بحيث لا يُرَى أَنَّها نِعْمَة إِلَّا مِن آثارِها؛ لأن بَعْض الأشيَاء حين وُجُودِها لا تَظُنُّ أَنَّها نِعْمَة، لكن إذا عَرَفْتَ آثَارَها وجَدْتَ أَنَّها نِعْمَة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]، فإنَّ الإنسان أحيانًا يُصيبُه ما يُصِيبُه مِن قَضَاءِ الله تعالى وقَدَرِه فلا يَرَى أَنَّه نِعْمَة حتَّى يَعْرِف آثَارَهَا فِيما بَعْدُ.

والمُهِمُّ: أنَّ النِّعَم -والحمدُ لله- ظَاهِرة بَيِّنَة لِلعِيَان، وعَامَّة شَامِلَة لِلخَلْق، وشيءٌ باطِنٌ لا يَعرِفُه إِلَّا مَن أَنعَمَ اللهُ تعالى به علَيه، وأيضًا هناك شيءٌ ظَاهِر وَاضِح

أَنَّه نِعْمَة، وشيءٌ باطِن لا يَتبَيَّن أَنَّه نِعْمَة إِلَّا فِيما بَعْدُ.

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾: (مِن) للتَّبعيض، وقدِ اختلَف المُعرِبون في (مِن) التَّبعيضية، هل هي اسمٌ؛ لأنها في مَعنَى (بَعْض)، أو أَنَّها حَرْفٌ دَالٌّ على هذا المَعنَى.

وعلى هـذا الاختِلافِ يَنبَغي الاختِـلافُ في الإِعْراب: فإذا قُلْنـا (مِن) اسمٌ بمَعنَى (بَعْض)، فإننا نَقـول: (مَن) مُبتَدَأ، و﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾ خبَرُه؛ وإذا قُلْنـا: إنها حَرْف، فإنها تكـون حرفَ جَرٍّ، والجـارُّ والمَجرور مُتعَلِّق بمَحـذوف خبَر مُقدَّم، و﴿مَن يُجَٰدِلُ﴾ مُبتَدَأ مُؤَخَّر.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أهل مَكَّةَ] بِناءً على قاعِدته رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن كل السُّوَر المَكِّية يُحمَل فيها العُموم بمِثْل هذا السِّياقِ على الخُصوص: وهم أهل مَكَّةَ، والصواب أنَّ ذلك عامٌّ، يَعنِي: من الناس من أهل مَكَّةَ وغيرهم.

وقوله تعـالى: ﴿مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ المُجادَلة مَأخوذة من الجَدْل، وهو فَتْـل الحَبْل لإِحْكامه، ومنه ما يُسمَّى الجَدائِل، جَدائِل المرأة أي: فَتْـل رأسها وإحكامها، هذا مَعناها في اللغة.

لكن في الاصطِلاح المُجادَلة: هي المُمانَعة، بمَعنَى: أن كل واحِد من المُتناظِرين يُحكِم الحُجَّة من أَجْـل إفحام خَصْمـه، فهي إِذَن إحكام الحُجَّـة لإِفْحام الخَصْم وتَعجيزه.

والمُجادَلة إن كانت بعِلْم وحِكْمة فهي مَمدوحة بلا شَكٍّ، وقد تكون واجِبة

أحيانًا كما في قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]، وإن كانت بغَيْر عِلْم فإنها مَذمومة، فمَن يُجادِل بإيراد الحُجَج والعِلَل الواهية؛ لإِفْحام خَصْمه ونَقْض قـوله ولو بالباطِل؛ فهذا من المُنكَر المُحرَّم، قال تعـالى: ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡ﴾ [غافر:٥].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ هل المُراد في ذاته سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ أوِ المُراد في رُبوبيته أو أُلوهيته، أو أَسمائه وصِفاته، أو أَحكامه وأَفعاله؟

الجَوابُ: تَشمَل كل هذا، فمِن الناس مَن يُجادِل في ذات الله تعالى، فهو يُنكِر وجود الله تعالى أَصْلًا، ويُجادِل في ذاته، ومن الناس مَن يُجادِل في وَحْدانيته، يُقِرُّ به، لكن يُنكِر الأُلوهية، ومِنَ الناس مَن يُجادِل في أُلوهيته، أي: في تَفرُّده في الأُلوهية، ومن الناس مَن يُجادِل في أَسْمائه وصِفاته، وأكثَرُ ما وقَع فيه الجَدَل بين المسلمين في باب الأسماء والصِّفات، وهذا بين المُسلِمين! وليس بين المُسلِمين والكافِرين، لكنِ المُسلِمون الذين يَنتَسِبون إلى الإسلام ويُسمَّوْن أهلَ القِبْلة، هؤلاءِ كثُر الجَدَل بينهم في باب أسماء الله تعالى وصِفاته.

كذلك من الناس مَن يُجادِل في أحكام الله تعالى، وما أكثَرَ المُجادِلين في أحكام الله تعالى! تَجِده يُجادِل؛ تَقول: هذا الشيءُ حرامٌ. ثُمَّ يَأتِي ويُجادِلك: ما الذي حرَّمَه؟ وما الفَرْق بين كذا وكذا؟ وهاتِ الدليـلَ، وهذا الدليلُ مَنقوض، وهاتِ التَّعليلَ، وهذا التَّعليلُ باطِل، وهكذا.

قوله تعـالى: ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾ أمَّا إذا كان بعِلْم فليس فيه ذَنْب، لكن بغير عِلْم ففيه ذنب.

كذلك من الناس مَن يُجادِل في أفعال الله، فيَقول: لماذا أَنعَم الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ

على هؤلاء الكافِرين بالنِّعَم الكثيرة، ومن المُسلِمين مَن هو في جَهْد شَديد ومَرَض وفَقْر وجَهْل، وما أَشبَهَ ذلك؛ كذلك يُجادِل في أفعال الله تعالى في مَسألة القَدَر، فيَقول مثَلًا: إمَّا أن يَكون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد قدَّر على الإنسان عمَله أو لا، فإن كان قدَّر عليه عمَله؛ فكيف يُعاقِبه؟ وإن لم يُقدِّر عليه عمَله، فمَعنَى ذلك أن الإنسان مُستَقِلٌّ به، فيَكون مُنفَرِدًا بالحوادِث ومُشارِكًا لله تعالى فيها، وما أَشبَه هذا من الجَدَل الذي يَكون بغير عِلْم.

ولهذا يَنبَغي للإنسان في مَسائِل الشرع وفي مَسائِل القَدَر؛ أنَّ يَستَسلِم لما دلَّ عليه الكِتاب والسُّنَّة، وأن لا يُجادِل؛ لأنه إن فتَح على نَفْسه باب الجدَل فلن يَستَقِرَّ له قدَم أبدًا، ولهذا قال ابن حجَرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]: «إن المَسائِل العَقْلية ليس لها دَخْل في الأمور الخبَرية»؛ لأننا لو أَرَدْنا أن نُحيل هذه الأمورَ على العَقْل، فإن العاقِل قد يُجوِّز ما كان مُمتَنِعًا شرعًا غايةَ الامتِناع، كما أنه قد يَمنَع ما هو جائِز، والمُراد بالعَقْل ما ادعَّى صاحبه أنه عقْل، أمَّا العَقْل الصحيح الصريح فإنه لا بُدَّ أن يُوافِق النَّقْل الصحيح؛ وإذا شِئْتم أن يَتبَيَّن لكم هذا فاقرَؤُوا كتاب شيخ الإسلام ابنِ تَيميَّةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ -إن أَطَقْتُموه- المُسمَّى بكتاب العَقْل والنَّقْل أو مُوافَقة صريح المَعقول لصحيح المَنقول.

المُهِمُّ: أنَّ الجدَل بابُه واسِع، والكلام هنا في المُجادَلة المَذمومة، وهي المُجادَلة بغير عِلْم.

إذَنْ: ﴿فِى ٱللَّهِ﴾: في ذاتِه، وفي رُبوبيته، وأُلوهيته، وأَسمائه وصِفاته، وأَحْكامه، وأَفعاله.

(١) فتح الباري (١/ ١٩٣).

وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يَعنِي: ما عِندَه عِلْمٌ ذاتُه، ولكنه مُكابَرة ومُعانَدة.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا هُدًى﴾ مِن رَسول] فهو ليس عِندَه عِلْم في نَفْسه يَهتَدِي به، وليس عنده عِلْم من غيره يَهتَدِي به.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أَنزَله الله تعالى؛ بل بالتَّقليد]، فهو ليس عِندَه عِلْم، ولا اهتِداء بهَدْيِ رَسول، ولا كِتاب أَنزَله الله تعالى فيَهتَدِي به، إِذَنْ فهو يُجادِل بالباطِل، وقال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [بالتَّقليد]؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢١]، فهذا الذي أَوجَب للمُؤلِّف أن يَقول: [بَلْ بالتَّقليد]؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بَيان نِعمة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ على عِباده، بهذه النِّعَم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا يُحِبُّ أن يُتمَدَّح بما أَسْدى إلى عِباده من النِّعَم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ الله تعالى سخر لنا ما في السموات وما في الأرض، وهو ظاهِر، وقد قال الله تعالى في آية أُخرى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُ﴾ [الجاثية:١٣].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: جَواز استِخدام ما في هذا الكَوْنِ في السموات والأرض لمَصالِحنا؛ لأنه مُسخَّر لنا، فإذا كان مُسخَّرًا لنا، فلنا أن نَنتَفِع به، فيما أَحَلَّ الله تعالى لنا.

فلو قال قائِل مثَلًا: هل لنا أن نَأخُذ المعادِن الجارية والجامِدة؟

نَقول: نعَمْ. هل لنا أن نُحاوِل الصعود إلى الكواكِب والنُّجوم لنَرَى ما فيها من الآيات؟ وكيف تَظهَر لنا؟

الجَوابُ: نعَمْ.

ولكن إذا كان هذا يُكلِّف نَفَقاتٍ باهِظةً، أكثَرَ ممَّا نَستَفيد منه؛ فإن الحِكْمة تَقتَضي أن لا نَفعَل؛ لأن هذه المُحاولاتِ يَكون فيها من نَفاد الأموال شيء كثير؛ فإذا قُدِّر أنَّ ما فيها من نَفاد الأموال أكثَرُ بأضعاف وأضعاف ممَّا نَستَفيد منها؛ فإنَّ العقل يَقتَضي أن لا نَفعَل؛ لأن هذا من السفَه والتَّبذير، والإنسان العاقِل لا يَبذُل المال إلَّا وهو يَرَى أنه يَنتَفِع بأكثَرَ ممَّا يَبذُل.

فلو فُرِض أنك بذَلْت مالًا قَدْره أَلْف ريال؛ لتَحصُل على مَنفَعة تُساوِي ألفَيْ ريال؛ فهذا محمود، وبالعَكْس، فلو بذَلْت مالًا يَبلُغ ألفي ريال؛ لتَحصيل مَنفَعة بقَدْر أَلْف ريال، هذا مَذموم؛ لأنك أَضَعْت ألف ريال بدون فائِدة، فيَكون هذا من إضاعة المال والإسراف.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ وافِرة، يَعني: كثيرة كامِلة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ نِعَم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى نوعان: ظاهِرة وباطِنة؛ سَواءٌ فَسَّرنا الظَّاهِرة بالأُمور المَحسوسة والباطِنة بالأمور المَعنوية، أو فسَّرْناها بالظاهِرة التي يَعرِفها كل أحَد، والباطِنة ما لا يَعرِفها إلَّا صاحِبها، أو فسَّرْنا الظاهِر بما هو عامٌّ يَعُمُّ جميع الناس، كالمطَر والخَصْب. والباطن بما هو دونَ ذلك، فالنِّعَم وافِرة وسابِغة من كل وَجْه.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: ما أَعطاه الله تعالى للُقْمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من الحِكَم؛ فإن كل ما أَوْصَى به ابنَه، كلُّه حِكَم مُوافِق للعَقْل، والشَّرْع أيضًا يُؤَيِّده.

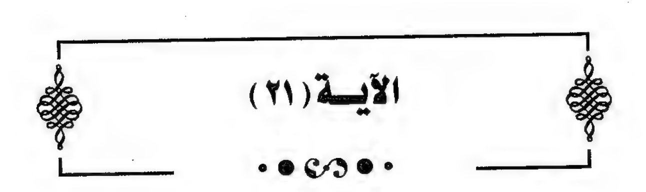
الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ إذا قصَّ علينا نبأَ أحد؛ فإن كان ذلك خيرًا فإنه يُريد مِنَّا أن نَفعَله، وإن كان غير ذلك فإنه يُريد مِنَّا أن نَتجنَّبه، فلَمَّا قصَّ علينا قِصَّة قارونَ قال تَعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص:٧٦-٧٨]، فقَصَّ علينا ذلك؛ لنَحذَر ونَخاف؛ ولأَجل أن لا نَسكُت على مَن رَأَيْناه يُبذِّر ويُسرِف في الأرض؛ وهنا قَصَّ علينا قصص لُقمانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ من أَجْل أن نَعتَبِر بها في الحِكَم، وأن نَقتَدِيَ به في نصيحة أَبنائنا وأَهْلنا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: ذمُّ الجدَل بغير بُرْهانٍ؛ لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن الجدَل بالعِلْم والهُدَى والدليلِ من القُرآن لا يُذَمُّ صاحِبه؛ لأنه حَقٌّ، وقد قال الله تعالى: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أنه يَنبَغي للمُجادِل أن يَكون له دليل من العَقْل أو من النَّقْل؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فهذا العِلْمُ الذاتيُّ الذي يَكون بطريق العَقْل، وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ هذا العِلمُ المُكتَسَب؛ فالهُدَى مِن الرَّسول ﷺ، والكِتاب المُنير القُرآن.

• • ۞ • •



الآيـة (٢١)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [لقمان:٢١].

• • • •

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ﴾ هذه مَبنيٌّ للمَجهول، فالقائِل: الله تعالى، أو الرَّسولُ ﷺ، أو المُؤمِنون، كل هذا يُمكِن أن يَكون؛ قال الله تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الأعراف:٣]، والنبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَحُثُّ الأُمَّة على اتِّباعه، والمُؤمِنون كذلك يَدْعون الناس إلى اتِّباع ما أَنزَل الله تعالى، فيَكون هنا حُذِف الفاعِل لإرادة العُموم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾، فهذا أَعَمُّ ممَّا لو قال: (وإذا قال الله لهم، أو: وإذا قال لهم الرسول، أو: وإذا قال لَهُمُ المُؤمِنون)؛ فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ﴾ يَكون أَشمَلَ.

وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: ﴿مَآ﴾ مَفعول ﴿ٱتَّبِعُوا۟﴾، و﴿ أَنزَلَ ٱللَّهُ ﴾ المُراد به القُرآن لا شَكَّ؛ لأنَّ الله تعالى أَنزَله؛ وأمَّا السُّنَّة فقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ [النساء:١١٣]، قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: الحِكمة هي: السُّنَّة، إِذَنْ ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القُرآن ومن السُّنَّة؛ لأنَّ السُّنَّة وَحْي إن كان الله تعالى أَوْحاها إلى رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وإلَّا فإِقْراره سبحانه إيَّاها بمَنزِلة الوَحْيِ؛ ولهذا قال العُلَماءُ رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إنَّ إقرار النبيِّ ﷺ بمَنزِلة قوله.

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ﴾: ﴿بَلْ﴾ للإِضْراب الإِبْطاليِّ، يَعنِي: بل لا نَتَّبع ما أَنزَل الله تعالى، وإنما نَتَّبع ما وجَدْنا عليه آباءَنا، والله! هذا مُعارَضة حَقٍّ بباطِل؛ لأنهم الآنَ عدَلوا عمَّا أَنزَل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إلى الآراء فقَطْ والأهواء: ﴿مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ ولو كان شِرْكًا، وأيضًا لو كان طاعة، فلو كان طاعةً يَكون اتِّباعُهم لما عليه آباؤُهم؛ لا لأنه شَرْع، ولكن لأنَّ عليه آباءَهم؛ فحينئذ لا يَكون اتِّباع آبائِهم في هذه الحالِ اتِّباعًا للشَّرْع، ولا اتِّباعًا محمودًا.

وعلى هذا فنَقول فيمَن دُعِيَ إلى الكِتاب والسُّنَّة، وقال: أنا أُريد أن أَتَّبع فلانًا -الإمامَ الفُلانِيَّ أو العالِمَ الفُلانيَّ- مع بيان السُّنَّة ووُضوحها: إنه يَكون مُشابِهًا لهؤلاء المُشرِكين.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾: ﴿أَوَلَوْ كَانَ﴾ هذا استِفْهام يَتْلوه حَرْف عَطْف، وقد تَقدَّم لنا مِرارًا وتَكرارًا أنَّ حرف العَطْف إذا وَلِيَ استِفْهامًا ففي إعرابه قَوْلان:

أحدُهما: أنَّ همزة الاستِفْهام دخَلتَ على محذوف عُطِف عليه ما بعد حَرْفْ العَطْف، ويُقَدَّر هذا المَحذوفُ بحسَب السِّياق، وعلى هذا؛ فهَمْزة الاستِفْهام في مَكانها، والمُستفهَم عنه -يَعنِي: مَسؤول الاستِفْهام- محذوف.

والقول الثاني: أن الواو حَرْف عَطْف، والمعطوف عليه ما سبَق، ومَحلُّ الهمزة بعد حَرْف العطف، وقلنا: إنَّ هذا أهونُ من الأوَّل، فالأوَّلُ: أبلَغُ في التَّقعيد وهذا أَسهَلُ، ووجه سُهولته: أنَّ الأوَّل قد يَخفَى على الإنسان ماذا يُقدِّره، وربما يَصعُب أحيانًا تَقدير شيء مُناسِب، وأمَّا هذه فلا تَحتاج إلى شيء فتَكُون مَعطوفة على ما سبَق.

أمَّا المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ فمَشَى على القـول الأوَّل، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [أَيَتَّبِعونه ولو كان الشَّيْطانَ]، فحَرْف الاستِفْهام دخَل على شيء محـذوف، وحَرْف العَطْف عاطِف على ذلك الشيء المَحذوف.

يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: مُوجِباته؟ لا]، يَقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أَيَتَّبِعون آباءَهم دون ما أَنزَل الله تعالى حتى في هذه الحالِ، وهو أن الشيطان يَدْعوهم، و﴿يَدْعُوهُمْ﴾ أَظُنُّها تَشمَل أن يَدعوَ الآباء ويَدعوَ هَؤلاءِ.

وقوله تعـالى: ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يَعنِي: إلى ما يُوجِب عذاب السَّعير من أعمال الشِّرْك والكُفْر وغيرها.

وظاهِر كلام المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن الاستِفـهام للإنكار والنَّـفيِ؛ لقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا]، ولكنه للنَّفْيِ فيه إشكال؛ لأنه لا شَكَّ أنهم يَتَّبِعونه، أمَّا للإنكار فنعَمْ، يَقول الله عَزَّوَجَلَّ أنكَر عليهم أن يَتَّبِعوا آباءَهم والشيطانُ يَدعوهم إلى عَذاب السَّعير.

وقوله تعالى: ﴿عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هو عَذاب النار، وأُضيف إلى السعير باعتِبار اللَّفْظ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: بيانُ أن هـؤلاءِ المُجادِلين ليس عنـدهم سِوَى التَّقليد؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: ذَمُّ مَن خَالَفَ الحـقَّ؛ لاتِّباع الآباء؛ لقـوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ هذا الحقُّ، قالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَحريم التَّقليد مع ظُهور الحُجَّة، ويُؤخَذ ذلك من قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أيًا كان المُقلَّد إذا بانت الحُجَّة فإنه لا تَقليدَ، ولكن تُتْبع الحُجَّة.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن التَّقليد قد يُسمَّى اتِّباعًا؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ والمَعروف المَشهور بين أهل العِلْم أنَّ الاتِّباع يَكون عن دليلٍ؛ فيُقال للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: اتَّبَعْنا الرسولَ ﷺ. والتقليد هو الذي يَكون عن غير دَليل، لكن هذه الآيةَ تَدُلُّ على أن كل مَن تابَعَ أحَدًا فهو مُتَّبع له.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيان أنَّ هؤلاءِ المُخالِفين كان عندهم عِلْم بالحَقِّ؛ لقوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾، فيَكون هذا أشَدَّ في ذَمِّهم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ظُهور العَصَبية في هؤلاء؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾، وهذا تَعصُّب للآباء، والتَّعصُّب للآباء والقبائِل من شَأْن أهل الجاهِلية.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن مُخالَفةَ الدَّليل للتَّقليد من إجابة الشَّيْطان؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن مُخالَفةَ ما أَنزَل اللهُ تعالى سبَب لدُخول النَّار؛ لقوله تعالى: ﴿يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: أن وَسْوسة الشَّيْطان التي يُلْقيها في قَلْب بني آدَمَ من الدَّعْوة؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَدْعُوهُمْ﴾ إِذْ إن الشَّيْطان ليس يَمْثُل أَمامهم، ويَقول: اتَّبِعوا كذا. ولكنه يُوَسْوِس في صُدورهم حتى يَتَّبِعوه، وهكذا الشيطانُ يَأمُر بالشَّرِّ.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: الحذَر من وَساوِس الشَّيْطان؛ لأنَّ قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، هذا للتَّوْبيخِ والإنكار.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: أن كل شيء يُوجِب العُقوبة فهو من تَلْبية طلَب الشَّيْطان والإِثْم، واعلَمْ أنه من تَلْبية طلَب الشَّيْطان؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فمثَلًا لو أَراد الإنسان أن يَسرِق، أو أن يَزنِيَ، أو أن يَشرَبَ الخَمْر، أو أن يَقتُل نَفْسًا مُحرَّمة، قُلْنا: هذا من الشَّيْطان، وتَلْبية لطلَبِه؛ لأنَّ الشَّيْطان هو الذي يَدْعو إلى عَذاب السَّعير.

ويُؤخَذ من ذلك أن الشَّيْطان له عَقْل وإرادة، وقد قال الله تعالى في سُورة النِّساء: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠]، فالشَّيْطان له إرادة وله تَزْيين، و له تَلْبيس؛ ولهذا يَجِب الحذَرُ منه غاية الحذَر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن مَن دعا إلى ما يُوجِب العِقاب فهو شَبيهٌ بالشَّياطين، بل لنا أن نَقول: إنه شَيْطان، ولهذا قال النبيُّ عليه الصلاة و السلام في الذي يُمانِع إذا مُنِع من المُرور بين يدَيِ المُصلِّي قال: «فَإِنْ أَبَى فَلْيُقَاتِلْهُ، فَإِنَّمَا هُوَ شَيْطَانٌ»[1]، وقال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام:١١٢].

• ● ۞ ● •

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الصلاة، يرد المصلي من مر بين يديه، رقم (٥٠٩)، ومسلم: كتاب الصلاة، باب منع المار بين يدي المصلي، رقم (٥٠٥)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.



الآية (٢٢)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [لقمان:٢٢].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: يُقبل على طاعته ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ مُوحِّد ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾] (مَن) هذه شَرْطية جوابها قَولُه تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ﴾ وقُرِن الجَواب بالفاء؛ لأنَّه اقترَن بـ(قَدْ)، والجوابُ يقترِن بالفاء إذا كان أحَدَ أمور سَبْعة:

اسْمِيَّةٌ طَلَبِيَّةٌ وَبِجَامِدِ ... وَبِـ(مَا) وَ(قَدْ) وبـ(لَنْ) وَبِالتَّنْفِيسِ

وهنا اقترَن بالجواب (قَدْ)، فوجَب أن يُقرَن بالفاء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مَعناه: يَنقاد له تَمام الانقِياد، بحيثُ يُسلِمه إليه، وهذا غاية ما يَكون من التَّذلُّل والتَّوكُّل فقال تعالى: ﴿يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ولم يَقُل: لله؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ أَبلَغُ، كأنه أَعطاه الله عَزَّوَجَلَّ وبلَغ غايته بالوصول إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَجْهَهُۥٓ﴾ المُراد: وجهُ قَلْبه، وليس وجهَ بدَنِه، يَعنِي: اتِّجاهَه، فهو من الوجهة أي: مَن يَتَّجِه إلى الله قَصْدًا وتَوكُّلًا واعتِمادًا.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ الجُمْلة هذه حالية، حال من فاعِل ﴿يُسْلِمْ﴾،

يَعنِي: والحـال أنه مُحسِـن. والمُراد بالإحسان؛ يَقـول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مُوحِّد] أي: التوحيد، ولكن الصواب خِلاف كلامه، لأنَّ التَّوْحيد مَفهوم من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، لكن قوله تعـالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: مُحسِن باتِّباع شريعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيَكون في الآية إشـارة إلى الحُكمين الأَساسِيَّين في العِبادة، وهما: الإخلاص والمُتابَعة؛ فقـوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ يَعنِي: في اتِّبـاع الشريعة، يَعنِي: مُتَّبِع لشريعته على وجهِ الإحسان.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ﴾ استَمْسَك بمَعنَى: تَمَسَّك، لكنها أَتَتْ بهذه الصِّيغةِ (استَفعَل) للمُبالَغة، أي: للمُبالَغة في التَّمسُّك؛ لأن (استَمْسَك بكذا) أَقوَى من قولك: تَمَسَّك به؛ لأنهم يَقـولون: إن زيادة المَبنى تَدُلُّ على زِيادة المَعنَى؛ فلَمَّا كثُرَت حروف (استَمْسَك) صارت أَقوى في مَعناها من: (تَمَسَّكَ).

وقـوله تعالى: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ يَقـول المُفَـسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ بالطرف الأَوْثَق، الذي لا يُخاف انقِطاعه] الإنسـان عندما يَتمَسَّك بالحَبْـل؛ فتارةً يَتمسَّك به بطرَفه وليس له عُروة، وتارة يَتمَسَّك به بطرَفه وهو مَعقود، وتارةً يَتمسَّك به بطرَفه وهو مَثـنِيٌّ كالعُروة؛ فالأَبلَغُ العُـروة؛ لأنَّ الإنسـان لو تَمسَّك بطرَفه ربما يُزلَق فيَسقُط، وكذلك بطرَفه مَعقودًا لا يَتمَكَّن مثلما يَتمكَّن بطرَفه إذا كان عُروة.

و﴿ٱلْوُثْقَىٰ﴾ مُؤنَّث (أَوثَق)؛ لأنَّ العروة التي هي أَوْثَق شيء، ولا ريبَ أن مَن أَسلَم وجهه لله تعالى وهو مُحسِن فإنه سيَنجو من كل مَكروهٍ، ويَفوز بكُلِّ مَطلوب؛ لأنَّ هذا هو الطريق الأمثل الذي يُوصِل إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: أن تُسلِم وجهَكَ إليه وأنت مُحسِن.

وورد مِثـلُها في القُرآن قال تعـالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ

فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٥].

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ لَمَّا بيَّن أنَّ الذي يُسلِم وجهَه إلى الله تعالى وهو مُحسِن أنه مُستَمْسِك بالعُروة الوُثْقى، وأن الإنسان في حال الإسلام إلى الله تعالى والإحسان قد يَعتَريه أمورٌ يَشُكُّ هل هو مُستَمْسِك بالعُروة الوثقى أم لا؟ مثل أن يَتَخلَّف عنه النَّصر في يوم من الأيام وما أَشبَه ذلك، فيَخشَى أن يَكون على غير حَقٍّ، فبَيَّن الله تعالى أنَّ عاقِبة الأمور إلى الله تعالى.

وهذا كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج:٤٠-٤١]؛ لأنَّ الإنسان قد يَقول: ما قيمة هذه الأشياءِ بالنِّسبة للقَنابل والصواريخ، وما أَشبَه ذلك؟ فبيَّن الله تعالى أن عاقِبة الأمور لله تعالى؛ فأنت ما دُمْت قُمْت بأسباب النَّصْر التي بيَّنها الله تعالى لك؛ فلا يَخْدَعنَّك ما أُعطِيَ أعداءُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من القُوَّة المادِّية؛ لأنَّ هذه القُوَّة المادِّية تَتَضاءَل بكلِمة من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فإذا أَراد عَزَّوَجَلَّ أن يَخسِف بهم جميعًا الأرض، أو يُفسِد عليهم مُعدَّاتهم قال: (كُنْ فيكون)؛ ولهذا أَعقَبها بقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾، حتى لا يَستَبعِد الإنسان نَصر الله عَزَّوَجَلَّ بسبب ما أُوتِيَ أعداؤُه من القُوَّة؛ لأنَّ العاقِبة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ وهذه مِثْلُها أيضًا، فيُسلِم الإنسان وجهَه لله تعالى وهو مُحسِن، ويَنتابُه بعضَ الأحيان شُكوك، وهل هو على حَقٍّ أم على غير حَقٍّ، وهل هذا الاستِمْساك حقيقيٌّ أم لا؟ فبيَّن الله تعالى أن عاقِبة الأمور إلى الله تعالى، وأنك متى أَسلَمْت وجهَك إلى الله تعالى وأنت مُحسِن فلا بُدَّ أن تَنجوَ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾: (إلى) تُفيد الغاية؛ يَعني:

غاية عاقِبة الأمور إلى الله تعالى لا إلى غيره، فهو الذي يُدبِّر الأمور كيف يَشاء حتى تَصِل إلى ما يُريده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْأُمُورِ﴾ جَمْع أَمْر، واحِد الأمور، يَعنِي: الشُّؤون، كل الشُّؤون الدِّينية والدُّنيوية العامة والخاصة، كلُّها عاقِبَتها إلى الله تعالى.

هذا قِسْم من الناس: الذي أَسلَم وجهَه إلى الله تعالى وهو مُحسِن؛ والثاني: الكافِر؛ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ﴾ يا مُحمَّدُ ﴿كُفْرُهُۥٓ﴾ لا تَهتَمَّ بكُفْره ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾...] إلخ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: الفائِدةُ العَظيمة في الإخلاص والمُتابَعة؛ الإخلاص من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾، والمُتابَعة من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ مَن لم يَكُن كذلك فهو هالِكٌ لا مُتَمَسَّكَ له؛ لأنه رَتَّب الاستِمْساك على هَذَيْن: إسلام الوجهِ لله تعالى مع الإحسان؛ وعلى هذا فمَنْ لم يَأْتِ بهما فلَيْس له نَجاةٌ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ أَوْثَقَ ما يَستَمْسِكُ به الإنسان من نَجاة هو الإخلاصُ والمُتابَعة؛ لأنَّ كلِمة (الوُثْقَى) اسمُ تَفضيل، فهي مِثْل (أَوثَق) في المُذكَّر.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: فضيلة الإحسان؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، وقد سبَقَ لنا أنَّ الإِحْسان يَكون في عِبادة الله تعالى، ويَكون في مُعامَلة عباد الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنَّ عواقِبَ الأُمور إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فهو الذي بيَدِه مَلَكوت السمَواتِ والأَرْض، وكَمْ مِن إنسان يُقدِّر، ولكن أَمْر الله تعالى يَأْتي على خِلاف

تَقديره؛ والدَّليلُ قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الإشارة إلى أنَّه يَنبَغي لمَن أَسلَم وجهَهُ لله تعالى وهو مُحسِن أن يَصبِر؛ لأن العاقِبة له، فلا يَتعَجَّل أو يَستبعِد الفرَجَ، أو يَستَبْعِد النَّصْر؛ لأنَّ الأمورَ كلَّها تَرجِع إلى ربِّ العِزَّة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه لا أحَدَ يَستَطيع أن يُدبِّر في الكون، ويُؤخَذ ذلك من تَقديم الخبَر الدالِّ على الحَصْر.

• ● ۞ ● •



قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [لقمان:٢٣].

قوله تعـالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ﴾: (مَن) هذه شَرْطية، وفِعْل الشَّرْط ﴿كَفَرَ﴾، وجوابه قوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾، وقُرِن بالفاء؛ لأنَّ (لا) ناهِية.

وقوله تعـالى: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ هذا عامٌّ من الأقارِب والآباء، لأنَّ الرسول ﷺ يَحزَن لكُفْر الكافِرين سواء كانوا أقارِبَ له أم أباعِدَ.

وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ يا مُحَمَّدُ] أَبانَ المُفسِّر أنَّ الخِطاب في قوله تعـالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ للرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ويُحتـمَل أن يَكون مُوجَّهًا للرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولكل مَن يَصِحُّ خِطابـه ممَّن شأنه أن يَحزَن إذا كفَر عِباد الله تعالى؛ فيَكون على هذا المَعنَى أعمَّ ممَّا قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقوله تعـالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ الحُزْن هو ضِدُّ السرور، وإذا قيل: حُزْن وخَوْف؛ صار الحُزْن على الماضي، والخَوْف للمُستقبَل. وقد يُطلَق الحُزْن على الخَوْف، كما في قوله تعـالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠]، يَعنِي: لا تَحزَن، أي: لا تَخَفْ، فإنَّ الله تعـالى معَنا، على أنه يُحتَمل أن يَكون المَعنَى: لا تَحزَن على ما فعَلْنا من اللُّجوء إلى هذا الغارِ، فيَكون على الأصل.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [لا تهتَمَّ بكُفْرهم] وظاهِر كلامه: أنَّ الحُزْن هنا بمَعنَى الاهتِمام بالشيء، يَعنِي: لا يُهِمَّنَّك أَمرُهم، ولكن الحزن أَخَصُّ من الاهتِمام، فإبقاء الآية على ظاهِرها وهو أن الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يَحزَن إذا كفَر الناس، وكذلك مَن كان ناصِحًا لله تعالى ولرسوله ﷺ يَحزَن إذا كفَر الناس؛ أَقول: إن حَمْلها على ظاهِرها أَوْلى.

وفِعْلًا فإن الإنسان الناصِح يَحزَن إذا كفَر الناس، يَحزَن لأَمْرين:

أَوَّلًا: رحمةً بهؤلاء الذين كفَروا.

وثانيًا: حُزْنًا على ما فات الإسلامَ من كثرة المُتَّبِعين؛ لأن كَثْرة مُتَّبِعي الإسلام عِزٌّ للإسلام.

والدليل آيتان تَدُلَّان على أن الكَثْرة عِزَّة: قال شُعَيْبٌ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لقومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف:٨٦]، وقال تعالى مُمتَنًّا على بني إسرائيلَ: ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء:٦].

فالكثرةُ عِزٌّ في الدليل الشَّرْعيِّ والواقِعيِّ.

أمَّا أعداء المُسلِمين الآنَ فيُحبِّذون المُسلِمين أن يُقلِّلوا النَّسْل، فتارةً يَقولون: إذا كثَّرْتمُ النَّسْل ضاق الرِّزْق؛ كقَوْل الكُفَّار الذين يَقتُلون أولادهم خَشْية الإملاق، وتارة يَقولون: إذا كثُرَ الأولاد عجَزْتم عن تَرْبيتهم، إساءةَ ظَنٍّ بالله عَزَّوَجَلَّ، وتارة يَقولون: إذا كبُر السِّنُّ ضعُفَتِ المرأةُ، ولَحِقها الضَّعْفُ. وهكذا؛ وهذا لا بُدَّ منه، فلا بُدَّ أن تَضعُف المرأة، كما قال تعالى: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ [لقمان:١٤].

والحاصِلُ: أنَّ كثرة الأُمَم عِزٌّ لها.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ جُمْلة خَبْرية قُدِّم فيها الخبَر لإفادة الحَصْر.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْنَا﴾ يَعنِي: نحن الله عَزَّوَجَلَّ، لا إلى غَيْره.

وقوله: ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ مَصدَر مِيميٌّ؛ أي: رُجوعهم؛ فرُجوعهم إلى الله عَزَّوَجَلَّ لا إلى غيره، وهو الذي يُحاسِبهم على أعمالهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ نُخبِرهم، وإذا أُخبِروا بذلك يُجازَوْن عليه، فإن الكافِر لا بُدَّ أن يُجازَى على ذَنْبه، ولكنه يُجازَى بالعَدْل؛ ولهذا كانت النار دركاتٍ بحسَب جُرْم الكافِرين، والمُنافِقون في الدَّرْك الأسفَل من النار؛ فقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ أي: نُخبِرهم على سبيل التَّوْبيخ والإهانة، ثُمَّ نُجازيهم بما يَستَحِقُّون.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْنَا﴾ و﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾ هنا ضَمير جَمْع، لكن المُراد به التَّعْظيم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ هذا تكميل للتَّهديد، يَعنِي: أنَّ الله عليم بذات الصُّدور، وذات الصُّدور هي القلوب؛ لأنها فيها، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦]، فمَعنَى ذاتِ الصُّدور أي: صاحِبة الصُّدور، وهي القُلوب؛ وقال تعالى: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دون القُلوب؛ لأنَّ ما كان داخِلَ الصَّدْر محَجوب عن الخَلْق، لا يَعلَمه إلَّا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دليلٌ على أنَّ الكافِر يُحاسَب على عمَل القَلْب، وهو كذلك؛ لأنه لولا أنه يُحاسَب لم يَكُن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ كبيرُ فائِدةٍ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يَحزَن لكُفْر مَن يَكْفُر؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾.

فإن قال قائِل: هذا ليس بصريحٍ على ذلك!

قلنا: إذا لم يَكُن صَريحًا فإنه يَدُلُّ على أنَّ ذلك مُتَوقَّع من الرسول ﷺ، إذ لو لم يَكُن مَوْجودًا أو مُتوقَّعًا، لكان النَّهيُ عنه لا فائِدةَ منه، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أُخرَى ما يَدُلُّ على أنه كان يَحزَن كما في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ﴾ [هود:١٢]، وما أَشبَهَ ذلك مِمَّا يَدُلُّ على أن الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كان يَحزَن.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ كلامه عَزَّوَجَلَّ بصَوْت مَسموع؛ لقوله تعالى: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾؛ لأنَّ ما لا يُسمَع لا يَكون فيه إنباءٌ؛ فلا إنباءَ إلَّا بصَوْت مَسموع، وهذا الصوتُ ليس كأصواتِ المَخلوقين، بل هو أَعظَمُ وأَجَلُّ؛ ولهذا إذا تَكلَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالوَحْي صَعِق أهلُ السَّمواتِ وارْتَجفَتِ السموات، ومَعلوم أنَّ صَوْت أَحَدٍ منَ الخَلْق لا يَحدُث منه هذا الشيءُ، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ أَعظَمُ وأَجَلُّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثباتُ عِلْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: التَّخويفُ من مُخالَفة الإنسان باطِنًا؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فإيَّاكَ والمُخالَفةَ في الباطِن، لا تَقُلْ: إنني لم أُظهِر، ولا أَحدَ يَعلَم،

فإنه وإن لم يَعلَمِ الخَلْقُ؛ فالله تعالى يَعلَم مَهما تَكتُمِ الشيءَ، فإن الله تعالى يَعلَمه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أنه يَنبَغي للإنسان مُراقَبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى دائمًا؛ لقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾؛ ولهذا جاء في الحديث: «**أَفْضَلُ الْإِيمَانِ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ اللهَ مَعَكَ حَيْثُمَا كُنْتَ**»(١)؛ لأنك إذا علِمْت بذلك، وأيْقَنْت به، أَوْجَب لك ذلكَ مُراقَبةَ الله عَزَّوَجَلَّ والرَّغْبة إليه، وأن تكون هِمَّتُك دائمًا في طلَب ما يُرضِي اللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

فإذا كان الإنسانُ يُؤمِن بهذا الأمرِ، وبمُراقَبة الله عَزَّوَجَلَّ لِما في قَلْبه؛ فإنه لو هَمَّ بمَعصية في أَخفَى ما يَكون في الأرض، فسيَردَعه ذلك الإيمانُ عن هذه المَعصيةِ؛ ولهذا حِماية الإيمانِ لمُعتَنِقيه أعظَمُ بكَثير من حِماية السُّلُطات لِما تُوجِّهُ إليه؛ فالشَّعْب المُؤمِن لا يَحتاج إلى مُراقَبة السُّلُطاتِ؛ لأنه يَعلَم أنه مُراقَب من قِبَل مَن يَعلَم خائِنة الأَعْيُن وما تُخفِي الصُّدور؛ لكن إذا ضعُف الإيمان احتاج إلى قُوَّة السُّلْطان، فإنْ ضَعُف الإيمان والسُّلْطان فسَدَتِ الأَدْيانُ والبُلْدان؛ فإذا اجتَمَعَتِ القُوَّتان: قوَّةُ الإيمان وقوَّةُ السُّلْطان؛ فهذا هو الكَمال، وإن ضَعُفا جميعًا فهذا هو الهَلاك، وإن ضعُف أَحَدُهما دون الآخَر ففيه حَياة ومَوْت.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط رقم (٨٧٩٦)، واللالكائي في اعتقاد أهل السنة رقم (١٦٨٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٢٧)، من حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآية (٢٤)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [لقمان:٢٤].

قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ ﴾ يعني: نَجعَلهم يَتَمتَّعون؛ يَأكُلون ما شاؤُوا، ويَلبَسون ما شاؤُوا، ويَركَبون ما شاؤُوا، ويَسكُنون ما شاؤُوا، ويَتنَعَّمون بكل نعيم الدنيا، ولكنَّ هذا قليل وقليل وقليل، يَقول الرسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**المَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ فِي الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»[1]، فمَوضِع السَّوْط خير من الدُّنْيا، وليسَت هي دُنيـاك التي أنت فيها فقط، بل من أوَّلِهـا إلى آخِرها: «**مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**».

فهؤلاء -والعِياذُ بالله- يُمتَّعون قليلًا، وما أقلَّ الدنيا ومَتاعَها! كلُّ ما مضَى من الدنيا إلى ساعَتِك الحاضِرة كأنه لم يَكُن، كأنه أضغاث أحلام؛ يُعَمَّر الإنسان فيها ما يُعمَّر، ومع ذلك يوم يَرَوْن ما يُوعَدون؛ قال تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ ﴾ [يونس:٤٥]، فيُمَتَّعون قليلًا.

والقِلَّة هنا باعتِبار نَوْع المَتاع، وباعتِبار زمَنه؛ فنَوْع المَتاع بالنِّسْبة لمَتاع الآخِرة قليل جِدًّا، وليس يُنسَب، قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «لَيسَ في الدُّنْيا مِمَّا في الآخِرة

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

إِلَّا الأَسْماءُ»[1]؛ كذلك بالنسبة للزمَن، فالزمَن قليل جِدًّا، ولا يُنسَب أيضًا، يَعنِي: لا يُنسَب إلى زمَن الآخِرة الأَبَديِّ.

وقد بيَّنَ الله تعالى في آية أُخرى صِفة هذا التَّمتيع، وقال جلَّ ذِكْرُه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ [محمد:١٢]، ثُمَّ النَّارُ مَثْوًى لهم، هذا صِفة هذا التَّمتُّعِ، فهم شَهْوانيُّون ليس لهم إلَّا شَهْوة البَطْن وشَهْوة الفَرْج، كما تَفعَل الأنعام تمامًا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾: ﴿ثُمَّ﴾ يَعنِي: بعد هذا التَّمتيعِ القليل نَضطَرُّهم في الآخِرة إلى عَذاب غَليظ، وهو عذاب النار، ولا يَجِدون عنه مَحيصًا؛ فقوله تعالى: ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ يَعنِي: نُلجِئُهم، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ﴾ [النحل:١١٥] يَعنِي: فمَنْ أُلجِئَ، وأَصلُه مَأخوذ من الإِلْجاء إلى الضَرَر؛ لأنَّ (نَضْطَرُّ) أصلها (نَضْتَرُّ)؛ ولهذا كل شيء يُلجِئ الإنسانَ يُسمَّى ضَرورة؛ لأنه يُلجِئه إلى هذا الشيء.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾؛ لأنهم هم لا يُريدونه، فلا يُريدون النار، ولا يُريدون هذا العذابَ، لكنهم يُجبَرون عليه -والعِياذُ بالله-؛ لأنهم عمِلوا أَسبابه.

وقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ في الآخِرة] المُراد بالآخِرة يوم القِيامة، ويَدخُل فيه القبر؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابنُ تيميَّةَ[2] رَحِمَهُ اللَّهُ في العَقيدة الواسِطية:

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/ ٤١٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٦٦)، وأبو نعيم في صفة الجنة رقم (١٢٤).

(٢) العقيدة الواسطية (ص٩٥).

«ومِمَّا يَدخُل في الإيمان باليوم الآخِر كلُّ ما أَخبَرَ به النبيُّ ﷺ مِمَّا يكون بعد الموت»، كلُّه من اليوم الآخِر، فهم بعد هذا المَتاعِ يُلجَؤُون إلى العَذاب -والعِياذ بالله-.

وقوله تعالى: ﴿نَضۡطَرُّهُمۡ إِلَىٰ عَذَابٍ﴾ العَذاب: العُقوبة، و﴿غَلِيظٍ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنه [عَذاب النار] وضِدُّ غَليظ: رقيق.

وغِلَظ عذاب النار في كَيْفيته وفي نَوْعه -والعِياذُ بالله-:

أمَّا الكيفيةُ؛ فإنَّ الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦]، ويَقول فيما يُعذَّبون فيه: ﴿كُلَّمَا خَبَتۡ زِدۡنَٰهُمۡ سَعِيرًا﴾ [الإسراء:٩٧] -والعِياذُ بالله تعالى-.

أمَّا نَوْعه: فإنه لا يَخطُر بالبال ولا بالخَيال؛ فيُسْقَوْن ماءً حميمًا، فإذا ماتوا من العطَش واستَغاثوا وطلَبوا الغَوْث فإنهم يُغاثون: ﴿بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ [الكهف:٢٩]، وهو الرَّصاص المُذاب -والعِياذُ بالله- ﴿يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَ﴾ [الكهف:٢٩]، فإذا أَقبَل على الوجه شَوَى الوَجْه؛ وإذا نَزَل إلى الأمعاء: ﴿وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ﴾ [محمد:١٥] وأحيانًا يُسقَوْن من ماء صديد: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ [إبراهيم:١٧].

فهذا العَذابُ -والعِياذ بالله- بأنواعه الشديدة العَظيمة، يَستَحِقُّ أن يُوصَف بأنه عَذاب غَليظ، ليس فيه رِقَّة ولا دِقَّة، بل هو غَليظ شديد.

وقول المُفَسِّر: [وهو عَذاب النار ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا﴾ [النساء:١٢١]] قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا﴾ هكذا في القُرآن، يَعنِي: لا يَجِدون مَفَرًّا

﴿ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ [الكهف:٥٣]، بل إنهم -والعِياذُ بالله- يَأْتون إليها وِرْدًا عِطاشًا، وتُمَثَّل لهم كأنها سَراب ماء، والعَطْشان إذا رأَى الماء ولو كان سَرابًا يَظُنُّه ماءً لشِدَّة التِفاتِه إلى الماء، فيَرِدونها على هذا الوجهِ -والعياذُ بالله- ويَتَساقَطون فيها.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الكافِر قد يُمتَّع في الدنيا أكثَرَ مِمَّا يُمتَّع المُؤمِن؛ لأنه تعالى قال: ﴿ نُمَتِّعُهُمْ ﴾ وهذا هو الواقِعُ؛ فإنَّ بعضَ الكُفَّار يَكون أَشَدَّ تَمَتُّعًا في الدنيا من المُؤمِنين، ولكنه كما قال اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَلِيلًا ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن التَّمتيع في الدُّنْيا قليل في زمَنه ونَوْعه، أمَّا زمَنه فظاهِر؛ قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦]، وقال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:٣٥]، وأمَّا نوعُه فقد قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا**»(١).

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أنَّ عَذاب الكُفَّار عَذاب غَليظ، لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الكُفَّار يُضطَرُّون ويَلْجؤون إلى دُخول هذا العذابِ؛ لقوله تعالى: ﴿نَضْطَرُّهُمْ ﴾.

واعلَمْ أنَّ هذا الاضطِرارَ يَكون عند خُروج الرُّوح، ويَكون كذلك في الآخِرة:

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله، رقم (٢٨٩٢)، من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

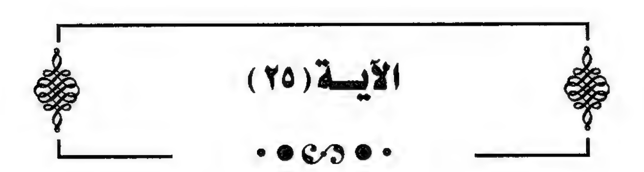
أمَّا عند خُروج الرُّوح فإنه قد ورَد في حَديث البَراء الطويل: «أَنَّهُ إِذَا حَضَرَ المَوْتُ إِلَى هَـؤُلَاءِ الْكُفَّارِ وَبُشِّرَتْ رُوحُهُ بِالْغَضَبِ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَإِنَّهَا تَتفَرَّقُ فِي بَدَنِهِ؛ تَتَشَبَّثُ فِيهِ، حَتَّى يَنْتَزِعُوهَا مِنَ الْبَدَنِ، كَمَا يُنْزَعُ السَّفُّودُ مِنَ الصُّوفِ المَبْلُولِ»[1] يَعنِي: بشِدَّة.

ويَدُلُّ على ذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ [الأنعام:٩٣]، فقوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓا۟﴾ يدُلُّ هذا الأمرُ على أنهم كانوا أَشِحَّاءَ في إِخْراجها؛ ثُمَّ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ...﴾ إلى آخِره؛ هذا مَعنَى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿نَضْطَرُّهُمْ﴾ أي: لا يأْتون مُختارِين مُنقادِين، وهذا واضِح.

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الآخِرة: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣] يُدفَعون بعُنْف، حتى يَدخُلوها والعِياذُ بالله تعالى.

• • ۞ • •

(١) أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٨٧-٢٨٨).



الآيـة (٢٥)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان:٢٥].

• ● ● •

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَلَئِن﴾ لام قسَم ﴿سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾]، قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يقول: [لام قَسم]، مَقرون بـ(إنِ) الشَّرْطية، حُذِف جَواب الشرط، وبَقِيَ جواب القَسَم؛ وهو ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، وقد قال ابنُ مالِك:

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ   جَـوَابَ مَـا أَخَّـرْتَ فَهْـوَ مُلْتَـزَمْ[1]

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ يُحتَمَل أنه الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أو مَن يَتَأَتَّى خِطابه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ﴾ هذا هو صِيغة السُّؤال: مَن خلَق السمواتِ والأرضَ؟ خلَقها اللَّات أو العُزَّى أو مَناة أو هُبَل أَمْ مَنْ؟

الجَوابُ: ﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ فهم يَعترِفون بأنَّ خالِق السمواتِ والأرضِ هو الله عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) الألفية (ص٥٩).

وقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ جواب القسَم، قال المُفسِّر: [حُذِف منه نون الرَّفع؛ لتَوالِي الأمثال، وهو الضمير لالتِقاء الساكِنَيْن] أصله: (لَيَقولُونَنَّ)، هذا أصلُه؛ لأن هذا فِعْل مُضارِع من الأفعال الخمسة، لا بُدَّ فيه من الواو والنون، فنَقول: ليَقولون. وإذا أَرَدْت أن تُؤكِّد المَعنَى: (لَيَقولُونَنَّ)، فاجتَمَع عِندنا ثلاثُ نونات كلُّهن زائِدات، ونَفصِل بينهن بحُكْم، يَقول: إن حذَفْنا نون الرَّفْع بَقِيَت نونُ التوكيد، وإن حذَفْنا نون التوكيد بقِيَت نون الرَّفْع؛ فنَحذِف نون الرَّفْع لسببَيْن:

السبَب الأوَّل: أنَّ نون الرفع اعتِيدَ حَذْفُها، فيما إذا كان الفِعْل مَنصوبًا أو مجزومًا، بل إنها قد تُحذَف في غير حالَيِ النَّصْب والجَزْم، فتُحذَف للتَّخفيف، كما في قول الرسول ﷺ: «وَاللهِ لَا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا»[1] «لَا تَدْخُلُوا» هذه ليس فيها لا ناصِبٌ ولا جازِمٌ، حُذِفَت للتخفيف، وأصله: (لا تَدْخُلونَ) حُذِفَت النون للتخفيف.

السبَب الثاني: أن النون تُحذَف مع الوِقاية كثيرًا؛ إِذَنْ فهي أحقُّ بالحذف، فتَبقَى نون التَّوْكيد؛ لأننا لو حذَفْنا نون التوكيد فات المَقصود، ونحن نُريد أن نُؤكِّد الفِعْل، وتوكيد الفِعْل هنا واجِب؛ لأنه مُثبَت، في قَسَم، مُستَقبَل، لم يُفصَل بين لامه وبين فِعْله؛ فيَكون تَوكيدُه واجِبًا.

أمَّا الواو مع نون التَّوْكيد، الواو ساكِنة ونون التوكيد مُشدَّدَة، فالحَرْف الأوَّل منها ساكِن، فاجتَمَع ساكِنان، ولا يُمكِن اجتِماع ساكِنَيْن؛ لأن السُّكون والحرَكة نَقيضان، فلا يُمكِن أن يَجتَمِع الشيء ساكِن وساكِن، فإذًا لا بُدَّ من أن نَعمَل عمَلًا

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، رقم (٥٤)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

يُخرِجنا من اجتِماع الساكِنَيْن؛ فإن كان الحرف الذي قبل الساكِن صحيحًا كسَرْناه، إذا كان الحرف الصحيح الذي قبل الساكِن صحيحًا كسَرْناه، وإن كان الحرف غيرَ صحيح -حرف لين- فإننا نَحذِفه.

قال ابنُ مالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:

إِنْ سَاكِنَانِ الْتَقَيَا اكْسِرْ مَا سَبَقْ ... وَإِنْ يَكُنْ لَيْنًا فَحَذْفُهُ اسْتَحَقْ [1]

فهنا الساكِنُ الأوَّل الواو حَرْف لين؛ إذن نَحذِفه، فتَلتَقي اللامُ مع النون، (ليَقُولُنَّ).

فصار عندنا في هذا الفِعْلِ حَذْفان: حَذْف النون؛ لتَوالي الأمثال، وحَذْف واو الرَّفْع؛ لالتِقاء الساكِنَيْن، وعلى هذا يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [حُذِف منه نونُ الرَّفْع؛ لتَوالِي الأمثال، وواوُ الضَّمير؛ لالتِقاء الساكِنَيْن].

إعراب قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ﴾ في ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ فاعِل لِفِعْل محذوف، والتَّقدير: (خلَقَهُنَّ الله)، ويَدُلُّ لذلك قولُه تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزُّخرُف:٩] ﴿لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ﴾ فذكَر الله تعالى الفِعْل، أمَّا هنـا فالمَحذوف الفِعْل، ويَصِحُّ أن نَقول: إن المَحذوف اسمٌ، التَّقدير (هو الله)، لكِنْ خِلاف الأَوْلى؛ لأن السؤال مُعاد في الجَواب، والسُّؤال بلَفْظ الفِعْل: مَنْ خلَق؟ فيَقتَضِي أن يَكون الجَواب كالسُّؤال؛ بالفِعْل: خلَقَهن.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ﴿قُلِ﴾ يَعنِي: إذا أَقرُّوا واعتَرَفوا.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ مُبتَدأ، و﴿لِلَّهِ﴾ خبَره، فالحمد لله تعالى

---

(١) ذكره الصبان في حاشيته على شرح الأشموني (١/ ١٣٤).

على بيان الحُجَّة، وظُهور المَحجَّة، فالآنَ هُمُ اعترَفوا بأنهم على ضَلال في شِرْكهم، فالحَمْد لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هنا على بَيان الحُجَّة وإظهارها؛ لأنهم خُصِموا في ذلك؛ فإنهم إذا أَقَرُّوا واعترَفوا أن خالِق السموات والأرض هو الله تعالى، وأن هذه الأَصنامَ لا تَخلُق؛ فقَدْ أَقَرُّوا على أنفسهم بأنَّ هـذه الأصنامَ لا تَستَحِقُّ العِبادة؛ ولهذا: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

كما يُمكِن أن نَقول مع ذلك: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على خَلْق السَّموات والأرض، أي: أنه يُحمَد على أنه الخالِقُ عَزَّوَجَلَّ دون غيره؛ فيُحمَد على ما له من صِفات الكَمال، ومن جميل الأفعال.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ظُهور الحُجَّة عليهم]، الحَمْد تَقدَّم لنا مِرارًا وتكرارًا بأنه وَصْف المَحمود بالكَمال، مع المَحبَّة والتَّعظيم، واللَّام في قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ﴾ للاستِحْقاق والاختِصاص، للاستِحْقاق؛ لأنه هو المُستَحِقُّ للحَمْد، كما قال النـبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**أَهْلَ الثَّنَاءِ وَالمَجْدِ**»[1]، وللاختِـصاص؛ لأن الذي يَستَحِقُّ الحمد المُطلَق هو الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله تعـالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بل هنـا للإِضْراب الانتِقاليِّ، فهو انتِـقال مِمَّا سبَق للتَّسجيل عليـهم بالجَهْل التامِّ؛ ولهذا قـال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وجوبَه عليهم]؛ يَعنِي: التَّوْحيد، وإنما نَفَى العِلْم عنهم؛ لانتِفاء فائِدته، والشيء قد يُنفَى لانتِفاء فائِدَته؛ قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا﴾ يَسمَعون بآذانهم، ﴿وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١] نفَى السَّمْع عنهم؛

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الصلاة، باب ما يقول إذا رفع رأسه من الركوع، رقم (٤٧٨)، من حديث ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

لانتِفاء فائِدتـه بالنِّسبة إليهم، ففي قـوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفَى العِلْم عنـهم، وإن كانوا يُقِرُّون بأن الله تعالى هو الخالِق، لكنهم لم يَنتَفِعوا بهذا العِلْم، وعالِم لم يَنتَفِع أشَدُّ قُبْحًا من جاهِل لا يَدرِي؛ لأنه جاهِل مُركَّب، وذاك جاهِل بسيط؛ ولأنه مُعانِدٌ مُستكبِر، والآخرُ غير مُعانِد، فالجَهْل المُركَّب أَشَدُّ قبحًا، والعِناد عن عِلْم أشَدُّ من العِناد عن جَهْل، يَقول الشاعِرُ بيتين:

وَمَـنْ رَامَ الْعُلُـومَ بِغَيْـرِ شَـيْخٍ ... يَضِـلُّ عَـنِ الصِّـرَاطِ الْمُسْـتَقِيمِ

وَتَلْتَـبِسُ الْعُلُـومُ عَلَيْـهِ حَتَّـى ... يَكُونَ أَضَلَّ مِنْ تَوْمَـا الحَكِيـمِ[1]

(تُومَا) جاهِل مُركَّب يُسمُّونه الحَكيمَ، لكنه غرَّه أنهم سمَّوْه الحكيمَ، وبدَأَ يُفتِي في كل شيء، حتى أَفتَى بأنه مَن تَصدَّق على إنسان بابنَتِه فإنه يَدخُل الجَنَّة، فقيل:

تَصَـدَّقَ بِالْبَنَـاتِ عَـلَى رِجَـالٍ ... يُرِيـدُ بِـذَاكَ جَنَّـاتِ النَّعِـيمِ!

فلو قال قائِل: ما الفَرْقُ بين الجَهْل المُركَّب والجَهْل البَسيط؟

فالجَوابُ: الجَهْل المُركَّب والبَسيط نَظْمُه في البَيْتَيْن الآتِيَيْن:

قَـالَ حِمَـارُ الحَكِـيمِ تُومَـا ... لَوْ أَنْصَفَ الدَّهْرُ كُنْتُ أَرْكَـبْ

لِأَنَّنِـي جَاهِـلٌ بَسِـيطٌ ... وَصَـاحِبِي جَاهِـلٌ مُرَكَّـبْ[2]

---

(١) ذكرهما ابن مفلح في الآداب الشرعية (٢/ ١٢٥)، وعزاهما لأبي حيان النحوي، وانظر: نفح الطيب للتلمساني (٢/ ٥٦٤).

(٢) غير منسوب، وانظره في: نهاية الأرب للنويري (١٠/ ١٠٠)، والآداب الشرعية (٢/ ١٢٦)، وزهر الأكم للحسن اليوسي (١/ ١٩٨).

فالحِمار يَقول: إني جاهِل بَسيط، وصاحِبه الذي هو تُوما جاهِل مُركَّب، فالجاهِل هو الذي لا يَدرِي أنه جاهِل، هذا مُركَّب، والبَسيط هو الجاهِل الذي يَعلَم أنه جاهِل.

ويَتَّضِح بالمِثال: إذا قال لك قائِل: متى كانت غَزوةُ بَدْر؟ فقلتَ: لا أَدرِي، نُسمِّي هذا جاهِلًا بَسيطًا، فإنسانٌ لا يَعرِف وعرِف أنه لا يَعرِف، وقال: لا أَعرِف. وقال رجُلٌ لآخَرَ: متى كانت غَزوةُ بَدْر؟ قال: الحمد لله الذي فتَحَ على الجاهِلين، كانت غَزوةُ بَدْر في جُمادَى الآخِرة سَنَةَ تِسْع من الهِجْرة؛ فالآنَ هو جاهِل وهو لا يَدرِي أنه جاهِل؛ ولهذا استَفْتَح بقوله: الحمدُ لله الذي فتَحَ على الجاهِلين، فيُقال: أنت لم يَفتَحِ الله عليك! لأنك جاهِل.

ومعنى مُركَّب أنه مُركَّب من جَهْلَيْن؛ جهلِه بالواقِع، وجهلِه بحاله.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن فيها دَليلًا على أنَّ المُشرِكين في عهد الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُقِرُّون برُبوبية الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ هذا التَّوْحيدَ -تَوحيدَ الربوبية- لا يَنفَع مَن أَقَرَّ به فقَطْ؛ لأن هؤلاءِ المُشرِكين لم يَنتَفِعوا بهذا الإقرارِ، بَلْ لا بُدَّ من أن يُضاف إليه تَوْحيد الأُلوهية والأسماء والصِّفات.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات أن خالِق السمَواتِ والأرضِ هو الله عَزَّوَجَلَّ.

فإن قال قائِل: هل المَخلوق يَخلُق؟

قُلْنا: لا، المَخلوق لا يُمكِن أن يَخلُق، وخَلْق المَخلوق إنما هو تَحويل شيءٍ إلى

شيءٍ، فيَجعَل الخشَبَ بابًا، ويَجعَل المَدَر بيتًا، وما أَشبَهَ ذلك، ولكن لا يَخلُق خشَبةً ليَجعَلها بابًا، ولا يَخلُق مَدَرًا كي يَجعَله بيتًا؛ فكُلُّ ما في الإنسان من مَصنوعات ومُبتكَرات ومُبتَدَعات إنما هو تَغيير وتَحويل من شيء إلى شيء، أمَّا إيجاد ذواتِ الأشياء فهو إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ ولهذا يَتبيَّن مَعنَى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وإلَّا فالإنسان يَخلُق، لكن خَلْقه ليس مَعناهُ: إبداعًا وإيجادًا بعد عدَم، ولكن -كما أَقولُه وأُكرِّره حتى يَتبيَّن لكم- مَعنَى قولِه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤]، فأَثبَت أنَّ مع الله تعالى خَلْقًا، لكنَّ هذا الخَلْق ليس خَلْقَ إيجاد، ولكنه خَلْق تَحويل وتَغيير لبعض الأَشْياء، حسَب ما أَعطاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من قُدْرة عِلْمية وبدَنية.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: إثبات أنَّ السماءَ مُتعدِّدة؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وقد بُيِّن في آية أُخرى أنَّ عددها سَبْع: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون:٨٦-٨٧].

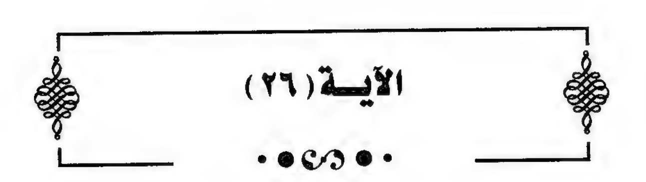
الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن اعتِراف الإنسان بالحَقِّ ممَّا يُحمَد الله تعالى عليه؛ لقوله للرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لأنه لا شَكَّ أنَّ إقرار الإنسان واعتِرافه بالحَقِّ إظهار للحُجَّة، وإذا ظَهَرتِ الحُجَّة كان في ذلك من الثَّناء على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ما هو أَهْل له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أنَّ أكثَرَ هَؤلاء المُعانِدين والمُشرِكين كانوا لا يَعلَمون: إمَّا للجَهْل، وإمَّا لعَدَم الانتِفاع بعِلْمهم؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أنَّه يَنبَغي تَأكيد الكلام في مَوْضِع التأكيد؛ لأنه قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾، ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ فأكَّد الله عَزَّوَجَلَّ أنهم سيقولون ذلك؛ لئَلَّا يَقول قائِل:

هل هَؤلاء يُقِرُّون بتَوْحيد الرُّبوبية أو لا يُقِرُّون، فبَيَّن الله تعالى أنهم يُقِرُّون به وأَكَّد ذلك، حتى لا يُقال: كيف يُقِرُّون بتَوْحيد الرُّبوبية ثُمَّ يُنكِرون تَوْحيد الأُلوهية؟!

• ● ۞ ● •



الآية (٢٦)

قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان:٢٦].

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ الجُمْلة هنا خبرِيَّة وفيها حَصْر، وطريقه تَقديمُ الخَبَر؛ لأنَّ تَقديمَ ما حَقُّه التَّأخير يُفيد الحَصْر، فـ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ﴾ يَعنِي: لا لغيرِه، بل هو له وحدَه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقوله تعالى: ﴿مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: ما كان فيها، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ كذلك، وأَتى بـ(ما) التي لغير العاقِل؛ لأنه يُراد بها مِلْك الذَّوات والصِّفات، وإذا أُريد بها مِلْك الذوات والصِّفات أُتِيَ بـ(ما)؛ لأنَّها أَكثَرُ؛ فإن كلَّ ذاتٍ لها صِفة، وأيضًا ليس كلُّ الذوات عاقِلة، بل الدوابُّ والبَهائِمُ وشَبَهها من قَسْم غير العاقِل.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [مِلْكًا وخَلْقًا وعَبيدًا] والمِلْك يَشمَل مِلْك الذوات، والتَّصرُّف في هذه الذواتِ؛ ولهذا قال: [وعَبيدًا] والمُراد بالعُبودية هنا العُبُودِية العامَّة دون الخاصَّة؛ لأنَّ العُبودية الخاصَّة تختصُّ بالطائِعين الذين تَذلَّلوا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى طاعة بالمَعنى الشَّرْعي، وأمَّا العِبادة العامَّة فهي تَشمَل كل الخَلْق؛ لأنَّ جميع الخَلْق مُتذلِّل لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى باعتِبار الكَوْن.

والتَّقـديرُ: لا أحَدَ يَستَطيع أن يُعارِض قَضاء الله تعالى وقَـدْره؛ لكن الكُفَّار يَستَطيعون أن يُعارِضوا شَرْع الله تعالى؛ ولهذا عارَضوا وأَنكَروا الشَّرْع واستكْبَروا عن الحقِّ.

قال المفسر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [فلا يَستَحِقُّ العِبادة فيهما غيرُه] في السَّموات والأرض لا يَستَـحِقُّ العِبادة إلَّا الله تعالى؛ لأنه بمُقتَضى العَقْـل والفِطْرة: أنَّ المالِك الخالِق المُدبِّر يَجِب أن يَكون هـو المَعبودَ؛ ولهذا يَستَدِلُّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على وُجوب العِبادة بالرُّبوبية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة:٢١]، وتَقدَّم قوله تعـالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وهـذا ظاهِر أنَّ مَن له الخَلْق يَجِب أن تَكون له العِبادة وحدَه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ﴾ عن خَلْقه ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ المَحمود في صُنْعه] الجُمْلة هنا استِئْنافية؛ لبيان ما لله عَزَّوَجَلَّ من هَذَيْن الاسمَيْن، وما تَضمَّناه من الصِّفة؛ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ﴾ الضَّمير ضَمير فَصْل، ولِضَمير الفَصْل ثلاثُ فَوائِدَ:

الفائِدةُ الأُولى: التَّوكيدُ.

والثانيةُ: الحَصْر.

والثالِثة: التَّمييز بين الخبَر والصِّفة.

فإذا قُلْت: زيدٌ الفـاضِل. فـ(زَيْد) مُبتَدأ، و(الفاضِل) يُحتَمَل أن تكون صِفة لـ(زَيْد)، وأنَّ الخبَر لم يَأتِ بعدُ، وأن التَّقدير: زَيْدٌ الفاضِل محبوبٌ مثلًا، فإذا قلت: زَيْـد هو الفاضِل. لا يُحتَمَل أن يَكون صِفـة، بل يَكون خبَرًا؛ ولهذا سُمِّي ضَميرَ فَصْل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [عن خَلْقه] وهو كذلِكَ: غَنِيٌّ في نَفْسه غَنِيٌّ عن غيره؛ فهو غَنِيٌّ في نَفْسه؛ لكَثْرة ما عِنده؛ لأن كل شيء فهو لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا تَمام الغِنى، وهو غَنِيٌّ عن خَلْقه؛ فلا يَحتاج إلى أَحَد؛ والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧].

أمَّا مَن سِواه فإنه مُفتَقِر إلى الله عَزَّوَجَلَّ قبل كلِّ شَيْء، ثُمَّ إن الناسَ بعضهم مُفتَقِر إلى بعض، كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزُّخرُف:٣٢]؛ فالناس بعضُهم إلى بَعضٍ في حاجة، بل في ضَرورة أحيانًا، والجميع إلى الله تعالى في حاجة وضَرورة.

أمَّا الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ فإنه في غِنًى عن غيره، كما أنه غَنِيٌّ بنَفْسه أيضًا.

إِذَن: غِناه يَتَضمَّن شَيْئين: الغِنَى الذاتي، بمَعنى: كَثْرة ما يَملِكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إذ كلُّ شيء فهو مِلْكه، الثاني: الغِنَى عن الغير؛ بحيثُ لا يَحتاج إلى أحَد، وغيره مُحتاج إليه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المَحمود في صُنْعه] فقَصَّر في التَّقْدير من وَجْهين:

الأوَّل: قال الحَميد بمَعنَى: المَحمود، والصحيح: أنها بمَعنَى: المَحمود والحامِد؛ فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حامِدٌ مَن يَستَحِقُّ الحمد، وما أَكثَرَ الثَّناء على مَن يَستَحِقُّون الثَّناء في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو كذلك مَحمود على كَمال صِفاته وتَمام إنعامه، فيُحمَد على أمرين: على كَمال صِفاته، وعلى تَمام إِنْعامه.

الوجهُ الثاني ممَّا قصَّر فيه المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه قال: [المَحمود في صُنْعه].

والصوابُ: أنه محمود في صُنْعه وفي شَرْعه أيضًا؛ فإن شَرْعه عَزَّوَجَلَّ أكمَلُ الشَّرائع وأَنفَعُها للعِباد، ومَن سنَّ للخَلْق طريقًا تَستَقيم به أُمورهم فهو أهلٌ للحَمْد؛ فالآنَ لو أنَّ أحَدًا دلَّك على طريق بلد في سَفْرة واحِدة من سفراتك فإنك تَحمَده؛ فكيف بمَن دلَّكَ على طريق الآخِرة في كلِّ ما تَحتاج إليه؟!

فالصَّوابُ: أنَّ حَميد بمَعنَى حامِد ومَحمود، وحَميد في صُنْعه وفي شَرْعِهِ؛ فصُنْعه الذي هو الخَلْق يُحمَد عليه عَزَّوَجَلَّ على إيجاده، وعلى إعداده وعلى إِمْداده، وهو أيضًا حَميد في شَرْعه، يُحمَد عليه؛ لِمَا في شَرْعه من العَدْل والحِكْمة والرحمة التي لا نَظيرَ لها.

وما أعظَمَ الفائِدةَ في اقتِران الحَميد بالغَنيِّ! لأنه -كما تَقدَّم- أسماء اللهِ تعالى كلُّها حُسنَى، وتَدُلُّ على مَعنًى أَحسَنَ؛ لكن قد يَدُلُّ الاسْمان على صِفة ثالِثة حصَلَت باقتِرانهما؛ فالغِنَى مع الحَمْد يَزداد كَمالًا، لأنه قد يَكون الغَنيُّ غنيًّا، ولكن غِنًى لا يُحمَد عليه، مِثْل البَخيل الغَنيِّ، فإنه غَنيٌّ لكن لا يُحمَد على غِناه؛ لأنه لا يُستَفاد من ماله، وقد حرَم نَفْسه من مَصلحة ماله، لكن الله عَزَّوَجَلَّ له الغِنَى المُقتَرِن بالحَمْد؛ لكمال إِحْسانه على خَلْقه من هذا الغِنَى؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن مُلْك السَّمَوات لله تعالى، وأنه خاصٌّ به، يُؤخَذ من تَقديم الخبَر؛ لأنَّ تَقديم ما حَقُّه التَّأخيرُ يُفيد الحَصْر والاختِصاص.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أنَّ الناس لا يَملِكُون أموالهم مِلْكًا مُطلَقًا؛ فمثَلًا: أنا أَملِك بَيْتي وسيَّارتي. وما أَشبَه ذلك، لكن مِلْكي لها ليس مُطلَقًا؛ لأنَّ المِلْك المُطلَق لله عَزَّوَجَلَّ؛

ولهذا تَصرُّفي فيـها على حسَب ما أَذِن الله تعـالى به، ما هو على حسَـب ما أُريدُ أنا، وبهـذا يَزول الإشكالُ الَّذي يُورَد فيُقال: إذا قُلْتـم: إن مِلْك السمَوات والأرض خاصٌّ بالله تعالى، أَلَيْس الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى قد أَضاف المِلْك إلى الإنسان: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء:٣].

إِذَنْ: فهذا المِلْكُ ليس مِلْكًا مُطلَقًا بدليل أنه مُقيَّد بإِذْنِ الله تعالى بما أَذِن اللهُ تعالى فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات اسمَيْن من أسماء الله تعـالى، وهُما: الغَنيُّ والحَميد. وما دلَّا عليه من الصِّفة، وهي: الغَناء والحَمْد. وما دلَّ عليه اجتِماعُهما من الصِّفة أيضًا، وهو أنَّ غِنَى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى مَقـرون بكَوْنه محمودًا، فيَـدُلُّ على أنه غِنًى ذاتِيٌّ، وأنه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى مع كونه غَنيًّا جَوادٌ يَجود بما عِندَه، إذ ليس كل غَنيٍّ حَميدًا.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: بَيـان أنَّ مِلْك الله للسمَـوات والأرض مِلْكٌ مُشتَـمِل على الفَضْل والحَمْد؛ لأنه ذكَره بعد قولِه تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾، فكونه غَنيًّا يُتمَدَّح سُبْحَانَهُوَتَعَالَى بغِناه بعد ذِكْر مِلْك السمَوات والأرض؛ يَدُلُّ على فَضْله بهذا الغِنَى، وعلى حَمْده على هذا المِلْكِ، أنه مِلْك مَبنيٌّ على الحَمْد، وهذا كقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] حَمِد نَفْسه لكونه ربًّا للعالَمين؛ لأن رُبوبيته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى رُبوبية يُحمَـد عليها، لما فيها من كَمال الفَضْل والإحسان والعَدْل إلى غير ذلك.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: افتِـقار ما في السمَوات والأرض إلى الله؛ لأنَّ قوله تعـالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ دليل على أن ما في السمَوات والأرض مُحتاجون إليه فُقراءُ، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: إثبات أنَّ السمَوَاتِ جَمْع، وعدَدُها سَبْع، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أمَّا تَعيين العَدَد بالسَّبْع؛ فمِن آياتٍ أُخرى.

• ● ۞ ● •



الآية (٢٧)

• قَالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧].

• • • •

﴿وَلَوْ﴾ هذه شَرْطية، وفِعْل الشَّرْط محذوف؛ أي: ولو ثبَت أن ما في الأَرْض من شجَرة.. إلى آخِره، و(ما) اسمٌ مَوْصول بمَعنَى: الذي، و﴿فِى الْأَرْضِ﴾ جارٌّ ومَجرور مُتعَلِّق بمَحذوف صِلة المَوْصول، يَعنِي: ولو أنَّ الذي استَقَرَّ في الأرض، و﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ جارٌّ ومَجرور بيانٌ لـ(ما) الاسْمِ المَوْصول؛ لأن الاسمَ المَوْصول مُبهَم يَحتاج إلى بيانٍ؛ فـ﴿مِن شَجَرَةٍ﴾ بيانٌ له؛ يَعنِي: لو أن الذي في الأَرْض من الشجَر.

وقوله تعالى: ﴿أَقْلَٰمٌ﴾ خبَر (أن)، يَعنِي: ولو أنَّ الذي في الأرض من الأشجار كان أقلامًا هذا المَعنَى، كان أقلامًا يُكتَب بها، (والبَحْرَ) يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [عطف على اسم (أنَّ)]، وفي قِراءة: ﴿وَالْبَحْرُ﴾ وهي المَوْجـودة في المُصحَف، لكن المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ هنا قال: مَنْصوبة. قال: [عطف على اسْمِ (أنَّ)]، ﴿وَالْبَحْرُ﴾ إذا كانت بالرَّفْع فهي مُبتَدَأ، قال ابنُ مالِك رَحِمَهُ اللَّهُ[1]:

وَجَـائِزٌ رَفْعُـكَ مَعطُوْفًـا عَـلَى ... مَنْصُـوبِ إِنَّ بَعْـدَ أَنْ تَسْـتَكْمِلَا

وَأُلْحِقَـتْ بِـإِنَّ لكِـنَّ وَأَنْ ....

(١) الألفية (ص:٢٢).

وهذه (أن).

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [(والبَحْرَ) عطف على اسم (أنَّ)]، فتكون بالنَّصب.

وقوله تعالى: ﴿يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ﴾ الخبَر محذوف قدَّره المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: [مِدادًا] يَعني: لو أن ما في الأرض من الأشجار أقلامٌ، وما فيها من البِحار مِدادٌ، يَعنِي: حِبرًا يُكتَب به، وجوابُ الشَّرْط قوله تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ المُعبَّر بها عن مَعلومات... إلى آخِره.

قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾: (نفِد) مَعناه: انتَهى، و﴿كَلِمَٰتُ﴾ فاعِل؛ فـ﴿نَفِدَتۡ﴾ الكَوْنية، وأمَّا الشَّرْعية فلا تَنفَد؛ لأنه عَزَّوَجَلَّ لم يَزَل ولا يَزال مُتكلِّمًا، والخَلْق لا نِهايةَ له؛ لأنَّه إذا دخَل الناس الجَنَّة أو النار يَكون خُلودًا دائِمًا سَرْمَديًّا أبدِيًّا.

فإِذَن: كل شيء يَخلُقه الله تعالى فإنما يَخلُقه بالكلِمة: (كُنْ فيكون).

فإذا كانَتِ المَخلوقاتِ لا تَنتَهي، وكذلك أيضًا أفعال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في الأزَل لا نِهايةَ لها، فإنها لا يُمكِن أن تَنفَد أبدًا، حتى لو فُرِض أنَّ البَحْر ومِن بعده سَبْعةُ أبحُرٍ تمُدُّه، والشجَر -كل الشجَر الذي في الأرض- أَقْلام وصار يُكتَب بها، فإن كلِماتِ الله تعالى لا تَنفَد.

ووجهُ ذلك واضِح؛ لأن المَخلوقاتِ لا تَنفَد، وكلُّ مَخلوق فإنه يَكون بالكلِمة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

إِذَنْ: يَتبيَّن لنا وَجْه كَوْن هذه الجُمْلةِ الخبَرية صِدْقًا مَحضًا، وهي صِدْق لا شَكَّ، فخبَرُ الله تعالى صِدْق.

لكن قد يَقول قائِل: كيف؟ وما وجهُ هذا؟

فنَقول: هذا وجهُه؛ إذ إن الإنسان قد يَستَعظِم أن تكون البِحار -البحر المُحيط ومِن ورائِه سَبْعة أبحُر- مِدادًا، وما في الأرض من الشجَر أقلامًا يُكتَب بها ثُمَّ لا تَنفَد الكلماتُ، قد يَستَعظِم هذا الشيءَ، ولكنه إذا عرَف كَمال قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وعظَمته لم يَستَعظِم هذا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [المُعبَّر بها عن مَعلوماته بكَتْبها بتِلْك الأَقْلام بذلك المِدادِ، ولا بأَكثَرَ من ذلك، لأنَّ مَعلوماتِه تعالى غير مُتَناهِية]، عفا الله عن المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، هذا تَحريف! فقد عبَّر بقوله: إن المُراد بالكَلِمات المعلوماتُ، مَعلوماتُ الله تعالى. يَعنِي: ما نَفِد لا يَعلِمه.

لكن هذا تَحريف ظاهِر للقُرآن، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَقول: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ﴾ والكلِمات هي التي تُكتَب، أمَّا المَعلوماتُ فقَدْ تُكتَب وقد لا تُكتَب، فهل كل المَعلومات تَكتُبها؟! لكِنَّ كلِماتِك إذا أَرَدْتَ أن تُعبِّر عنها للغَيْر تَنطِق بها وتَكتُبها.

فالمَعنَى: ما نفِدَت كلماتُ الله تعالى، أي: كلِماته بالحَقِّ حقيقة، يَعنِي: الكلِمات الحقيقية لو أُمليت على أحَدٍ، وصارت البِحارُ مِدادًا لها، والأشجار أقلامًا لها، ما نفِدَتْ. ووجهُ ذلك ظاهِرٌ، وهذا يَدُلُّ على عظَمة الله عَزَّوَجَلَّ وكَمال قُدْرته.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يُعجِزه شيء، ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يَخرُج شيءٌ عن عِلْمه وحِكْمته].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عَزِيزٌ﴾ يَقول: [لا يُعجِزه شيء] وأحيانا يُعبِّر المُفسِّر نَفْسه، يَقول: عزيزٌ لا يَغلِبه شيءٌ. وذلك لأنَّ العِزَّة -كما سبَق- تَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام:

عِزَّة القدَر، والثاني: عِزَّة القَهْر وهي الغلَبة، والثالِث: عِزَّة الامتِناع، وهي: أنه عَزَّوَجَلَّ لا يَناله شيء بسُوء أبدًا، فهو مُمتَنِع عن كل سُوء لِقُوَّته سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾ فهو هنا قال: [لا يَخرُج شيء عن عِلْمه وحِكْمته] ففَسَّر الحِكْمة بالعِلْم، وقد سبَق لنا أن الحكيم مُشتَقَّة من الحُكْم والحِكْمة؛ فهو حَكيم لا يَخرُج عن مُلكِه شيء وحُكْمِه، وحَكيم لا يَخرُج عن حِكْمته شيء، إِذَنْ هو حاكِم مُحكَم، كلها تُؤخَذ من كلِمة حَكيم.

وفي قَرْن العَزيز بالحَكيم إثباتُ صِفة ثالِثة غير العِزَّة والحِكْمة، وهي: أن عِزَّته عَزَّوَجَلَّ مَقرونة بحِكْمة، فتكون عِزَّةً أكمَلَ، وتكون حِكْمةً أكمَلَ، وذلك أن العزيزَ من الخَلْق قد تَأخُذه العِزَّة بالإِثْم، فلا يَكون حَكيمًا في تَصرُّفه، لكن الله عَزَّوَجَلَّ عِزَّته مَقرونة بالحِكْمة، لا يُمكِن أن تَخْرُج أفعاله عن الحِكْمة التي هي مُوافَقة الصَّواب.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يَتكَلَّم؛ لقوله تعالى: ﴿كَلِمَتُ ٱللَّهِ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: قال بعضُهم: إنَّ كلِماتِه تعالى مَسموعة؛ لأنها تُكتَب، ولا يُكتَب إلَّا ما كان مَسموعًا.

وهذه الفائِدةُ فيها نظَر؛ لأنه يُمكِن أن تكتُب الشيءَ مُجرَّد كِتابة؛ يَعنِي: أن الإنسان يُمكِن أن يَكتُب كلِماتِه هو دون أن يُسمِع غيرَه.

إِذَنْ: هذه الفائِدةُ فيها نظَرٌ، لكن يُؤخَذ من إثبات أن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يَتكلَّم بصَوْت: أنَّ الكَلام لا يُسمَّى كلامًا إلَّا حيث يَكون صوتًا، أمَّا مُجرَّد ما في النَّفْس فليس بكَلام.

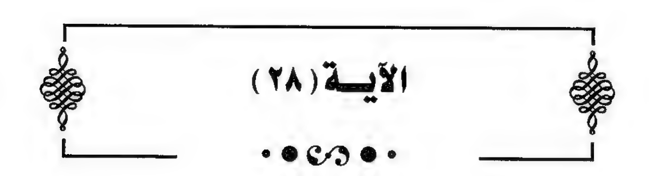
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان أنَّ كلِماتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا نَفادَ لها، تُؤخَذ من قوله تعالى: ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ ووجهُ ذلك ما تَقدَّم في التَّفسير: أنَّ الله تعالى لم يَزَل ولا يَزال خَلَّاقًا، فعَّالًا لما يُريد، ومن لازِمِ ذلك أن يَكون مُتكَلِّمًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: تَمامُ قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ حيثُ كان قادِرًا على كلام لا يَنفَد.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثباتُ العِزَّة والحِكْمة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ وإثبـاتُ الحُكْم أيضًا من قوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾، وإثبـات هَذَيْن الاسمَيْن عَزيز وحَكيم.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: ما دَلَّ عليه اجتِماع العِزَّة والحِكْمة من صِفة الكَمال، قُلْنا: إن الاسم قد يَكون له مَعنًى في ذاتِه، ومَعنًى باجتِماعه إلى غيره؛ فاجتِماع العِزَّة مع الحِكْمة يُفيد كَمالًا أكثَرَ ممَّا لوِ انفرَدَتِ العِزَّة أو الحِكْمة، وهو أنَّ عِزَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مَربوطة بالحِكْمة.

• ● ❁ ● •



الآية (٢٨)

۞ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [لقمان:٢٨].

•••

ثُمَّ قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مُبيِّنًا كَمال قُدْرته بعد أن بَيَّن عُموم مِلْكه، وكمال كلماته قال: ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ خَلْقًا وبَعْثًا؛ لأنه بكلِمة (كُنْ) فيَكون؛ لأنه يَعلَم الخَلْق والبَعْث؛ فما خَلْقكم جميعًا إلَّا كنَفْسٍ واحِدة، وما بَعثُكم جميعًا إلَّا كنَفْسٍ واحِدة.

إِذَنِ: الكَثْرة لا تُعجِز الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ؛ لأنَّ الكَثْرة عِنده والقِلَّة على حَدٍّ سَواءٍ، إذِ الكُلُّ تَتعلَّق به القُدرةُ، وهذا كلُّه سَهْل عليه؛ لأنه يَكون بكلِمة (كُنْ) فالله عَزَّوَجَلَّ لَمَّا خَلَق السمواتِ والأرضَ لم يَحتَجْ إلى عمال وعوامِلَ؛ ولهذا يُقال: إذا كان البِناء واسِعًا كان أشَقَّ، وإذا كان ضَيِّقًا كان أهوَنَ؛ لكن عند الله تعالى فلا؛ إنما هو بكلِمة (كُنْ)، وما كان بكلِمة (كُنْ)، فلا فَرْق بين أن يَكون كثيرًا، أو قليلًا؛ ولهذا قال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أُخرَى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل:٧٧]، يَعنِي: بل هو أَقربُ من لَمحِ البصَر، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، وهذا غاية ما يَكون من السُّرْعة والإنجاز. وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣-١٤]، فكُلُّ هذا يَدُلُّ على

كَمال قُدْرته عَزَّوَجَلَّ.

والجَوابُ عمَّا يُورَد على المَرءِ: لماذا خلَقَ الله تعالى السَّمواتِ والأرضَ في سِتَّة أيام؟ ولماذا يَخلُق الجَنين في بَطْن أُمِّه لمُدَّة تِسْعة أشهُرٍ؟ وما أَشبَهَ ذلك؟

والجَوابُ: أنَّ أفعاله مَقرونة بحِكْمة، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ جعَل الأسباب مَربوطةً بمُسبَّباتها؛ فلا بُدَّ من أن يَكون هناك سبَب ويَنتُجُ عنه مُسبَّب، ولا بُدَّ من أن يَكون هذا السببُ مُطابِقًا مُوافِقًا؛ حتى يَتِمَّ الخَلْق على كَماله.

فهذا الخَلْق يَحتاج إلى أشياءَ، مُقدِّمات وأَسْباب يَحصُل بها كَمال الخَلْق، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادِر على أن يَخلُق الجَنين في بَطْن أُمِّه بدون أن يَتناوَلها الرَّجُل كما حصَل في عيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومع هذا فإن الله تعالى قد جعَل لهذا أسبابًا: اتِّصال ماء الرَّجُل بالمرأة، ثُمَّ بعد ذلك الجَنينُ يَتطَوَّر شيئًا فشيئًا حتى يَصِل إلى الغاية، ثُمَّ إذا كان قابِلًا لأَنْ يَخرُج إلى الدنيا خرَج، ثُمَّ مع ذلك يَنمو شيئًا فشيئًا، لا يَأتيه العَقْل كامِلًا دفعة واحِدة، ولا يَأتيه النُّموُّ دفعة واحِدة، ولكنه على وَفْق الحِكْمة.

وقوله تعالى: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ يَسمَع كلَّ مَسموع، ﴿بَصِيرٌ﴾ يُبصِر كل مُبصَر، لا يَشغَله شيء عن شيءٍ]؛ قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: [﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ يَبصُر كلَّ مُبصَر] وكلُّ مُبصَر فهو خَلْق مَخلوق، فما ثَمَّ إلَّا خالِق أو مَخلوق، فكل مُبصَر يَعنِي: كل ما مِن شَأْنه أن يَتعَلَّق به البصَر، ولو أني أنا ما أُبصِره، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُبصِره، فنَتَفاوَت؛ فهناك شيء يُبصِره زَيْد ولا يُبصِره عَمرٌو.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ تَقدَّم أنَّ السميع يَنقَسِم إلى قِسْمين: قِسْم: بمَعنَى مُجيب، وقِسْم: بمَعنَى سامِع، يَعنِي مُدرِك للأصوات؛ فالسَّميع الذي بمَعنَى مُجيب.

مثل قول إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم:٣٩]، أي: مُجيبُه، ومن المعلوم أيضًا أنه لا يُجيبه إلَّا بعدَ أن يَسمَعه سَمْعَ إدراكٍ، ولكن الفائِدة من الدُّعاء هي إجابة الداعِي، أمَّا مُجرَّد أن يُسمَع دُعاؤُه؛ فلا فائِدةَ له من ذلك حتى يُجاب.

وتَقدَّم أنَّ سَمْع الإدراك يَنقَسِم إلى ثلاثة أقسام:

ما يُفيد التهديد.

وما يُفيد التَّأْييد.

وما يُفيد سَعةَ سَمْع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وإدراكُه لكل مَسموع.

فمِما يُفيد التَّهديد: قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزُّخرُف:٨٠].

ومِمَّا يُفيد التأييد قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لموسى وهارونَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: ﴿لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه:٤٦].

ومِمَّا يُفيد الشُّمول؛ أي: شُمول سَمْع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لكل ما يُسمَع مثل قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾ [المجادلة:١]؛ ولهذا قالَتْ عائِشةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: تَبارَكَ الَّذي وَسِعَ سَمْعُه الأصواتَ، إني فِي طَرَفِ الحُجْرة وإنه ليَخفَى عليَّ بَعضُ حَدِيثِها[1]، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِن فَوْقِ سَبْع سَمَواتٍ يَسْمَعُ هَذا الحَديثَ والتَّحاوُرَ كُلَّهُ، ولَمْ يَفُتْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شَيْءٌ.

---

(١) علقه البخاري: كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾، (٩/ ١١٧)، ووصله الإمام أحمد (٦/ ٤٦)، والنسائي: كتاب الطلاق، باب الظهار، رقم (٣٤٦٠)، وابن ماجه: في المقدمة، باب فيما أنكرت الجهمية، رقم (١٨٨).

أمَّا قوله تعـالى: ﴿بَصِيرٌ﴾ فالبَصير بمَعنَى: مُبصِر، أَيْ: مُدرِك ببَصَره عَزَّوَجَلَّ فلله تعالى بصَرٌ يُبـصِر به المُبصَرات، كما جاء في الحديثِ الصحيـح: «حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ»[1].

وقد يَكون البَصير أيضًا دالًّا على العِلْم، مثل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٦٥]، أي: عَليم به، وعند الناس الآنَ إذا قالوا: فُلان بَصير بالأشياء، يَعنِي: عنده عِلْم بها وخِبْرة.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبات الخَلْق والبَعْث؛ لقوله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: كَمال قُدْرة الله تعالى حيث جعَل جَلَّجَلَالُهُ الخَلْقَ والبَعْث لجميع الخَلْق كنَفْس واحِدة، وهذا في غاية ما يَكون من القُدْرة.

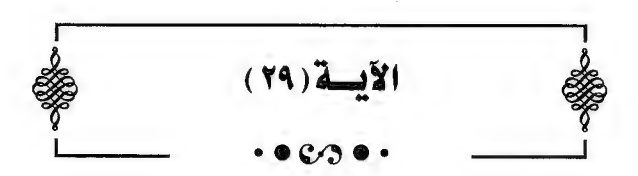
الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: إثبات البَعْث؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا بَعْثُكُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: الاستِدْلال بالمَشهود على المَوْعود، فالمَشهود الخَلْق، والمَوْعود البَعْث، وقد قرَنَهما الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَميعًا؛ لإثباتِ كلِّ واحِد منهما، وأنه كما قَدَر على الخَلْق أوَّلًا فهو قادِر على البَعْث ثانيًا.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: إثبات اسمَي (السَّميع) و(البَصير) لله تعالى، وإثبات ما دَلَّا عليه من صِفـات، وإثبات الكَمال باجتِماعهما السَّمع والبَصْر، إِذْ ليـس كلُّ سَميع بَصيرًا، وليس كلُّ بَصير سميعًا، وقد سَبَق لنا مَعنَى السَّميع ومَعنَى البَصير.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله ﷺ: «إن الله لا ينام»، رقم (١٧٩)، من حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.



الآيـة (٢٩)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان:٢٩].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الهَمْزة هنا للاستِفْهام التَّقريريِّ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمَعنَى: قد رأَيت، فهو يُقرِّر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ هذه القَضيةَ المُشاهَدةَ المَعلومة لكل أحدٍ.

والخِطاب في قوله: ﴿تَرَ﴾ إمَّا للرسول عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ، أو لكُلِّ مَن يَصلُح للخِطاب. والمَعنَى الثاني أَشمَلُ وأعَمُّ؛ فتكون شامِلة لكُلِّ مَن يَصلُح له الخِطاب.

وقوله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرَّائي المُخاطَب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾ يُدخِل ﴿ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ﴾ يُدخِله ﴿فِى ٱلَّيْلِ﴾، وهذا الإيلاجُ والإِدْخال لا يكون إلَّا بقُدْرة عَظيمة، يُولِج الليل في النهار، ويُولِج النهار في الليل، فهل المُراد إقبال الليل وإقبال النَّهار؛ لأنك تَرَى الليل إذا أَقبَل يَدخُل سوادُه في النهار، فيَدخُل على النهار ويَطرُده، وتَرَى النهار أيضًا إذا أَقبَل يَلِج في الليل فيَطرُده؛ فيكون هذا عِبارة عن تَقرير طُلوع الفجر وإقبال اللَّيْل.

وقد أَقسَم الله تعالى بذلك في القُرآن الكَريم ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ﴾ [المدَّثر:٣٣-٣٤]، ولا يُقسِم بشَيْء من المَخلوقات إلَّا لعِظَمه، فيَكون مَعنَى الإيلاج الإِدْخال به؛ أي: إدخال الليل بالنهار أو العَكْس عند كل صَباح وعند كل مَساء.

هذا وَجْه.

أو أنَّ المَعنَى: يُولِج الليل في النَّهار، بمَعنَى أنه يَزدادُ النَّهار مُدَّةً حتى يَدخُل في الليل، ويَزداد الليل مُدَّة حتى يَدخُل في النهار، يَعنِي: يَطول النهار؛ فإذا طال أَخَذ من الليـل، فمَعنَى ذلك أنه دخَل عليـه، ويَطول الليـل فإذا طال أَخَذ من النَّهار، فيَكون قد دخَل عليه واختَلَس منه، هذا أيضًا مَعنَى لكلِمة الإيلاج.

وكلاهما مَعـنًى صَحيحٌ، ففي إقبـال الليل وإدباره آية عَظيـمة من آيات الله تعالى، وفي كون هذا يَزيد وهذا يَنقُص أيضًا آيةٌ من آيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ لأن الخَلْق لوِ اجتَمَعوا كلُّهم على أن يَأْتوا بالليل في النهار، أو بالنهار في الليـل لا يَستَطيعون، لوِ اجتَمَعوا كلُّهم على أن يَزيدوا في النهار دَقيـقةً واحِدةً، أو في الليل دَقيقة واحِدة لا يَستَطيعون، مَهما أُوتوا من قُوَّة.

إذَنْ: فهذا دليل على كَمال قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ.

ثُمَّ إنَّ في إيلاج الليل بالنَّهار على المَعنى الثاني والعكس فيه دَليل على رحمة اللهِ تعـالى؛ لأن تَناوُب الليل والنهار بالزيادة والنَّقْص فيه مَصلَحة عَظيـمة جِدًّا؛ لأن الليل إذا طال حصَل البَرْد والشِّتاء وظهَرَت أَشجار الشِّتاء، وماتَت الحشَرات التي قد يَكون بَقاؤُها ضارًّا بالإنسان والنَّبات.

وكذلك إذا ازداد النَّهار ازداد الحَرُّ فنَضِجت الثِّمار وزال البُخار من الأرض، وماتَتْ بذلك حشَراتٌ كثيرةٌ من أَجْل الحَرِّ، لو أنها بقِيَت وتَنامَت لأَضَرَّت بالناس، فيَكون هذا أيضًا فيه دَليل على كمال الحِكْمة والرَّحْمة مع القُدْرة.

قوله تعـالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ أي: ذلَّلَهما لمَصالِح العِبـاد، والدليل

على ذلك قوله تعالى في الآية العامة الشامِلة: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم﴾ كلِمة ﴿لَكُم﴾ إِذَن كل ما ذُكِر من التَّسخير في الكون فهو لبني آدمَ؛ ولهذا يُقال في بعض الآثار: «يَا ابْنَ آدم خَلَقْتُكَ مِنْ أَجْلِي، وَخَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ أَجْلِكَ»، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، ويقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]، أي: لكم أنتم.

وذكَر الشمسَ والقمَرَ بعد ذِكْر الليل والنهار؛ لأن الشَّمْس آيةُ النَّهار، والقمَر آيةُ الليـل؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ﴾ وهو القمَر ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢]؛ ولذلك القمَرُ لا نُورَ فيه، إنما يَستَفيد نُورَه من الشَّمْس، كلَّما قابَلـها ازداد نُورُه، فإذا تَمَّتِ المُقابَلة بيـنه وبين الشَّمْس في ليلة من ليال الإِدْبار كمَلَ نُوره، ثُمَّ كُلَّما ضعُفَتِ المُقابَلة ضعُف نُورُه.

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ﴾ مِنهما ﴿يَجْرِيٓ﴾ في فَلَكه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القِيامة] ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ﴾: ﴿كُلٌّ﴾ هذا التَّنوينُ؛ يَقول النَّحويون: إنه عِوَض عن محذوف، عن كلِمة، يَعنِي: كل واحِد من الشَّمْس والقمَر يَجرِي إلى أَجَل مُسمًّى، العَجيب أنه رُوِيَ عن ابن عبَّـاس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: إن الشَّمْس والقمَر يَجريان في فلَكهما في النهار، ويَجريان في فلَكهما تَحتَ الأرض في اللَّيْل[1]. وهذا يَدُلُّ على أنَّ ابن عبَّـاس يَرَى الأرض كُروية؛ لأنَّ إذا كان يَجرِي تَحت الأرض فمَعنـاه

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٤/ ١١٥٠-١١٥١)، وعزاه ابن كثير في تفسيره (٦/ ٣١٣) لابن أبي حاتم، وانظر: الدر المنثور (٥/ ٤٣).

أنها كُروية، وهو كذلك؛ لأن الشمس والقمَر بالليل يَجريان تَحتَ الأَرْض، كما قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

والأرضُ هي أرضُنا هذه، والأَرَضون السِّتُّ الباقية تَحتَها، يَعنِي: الأرض طبَقات مثل السماء طبَقات بعضُها فوق بَعْض، أَلَمْ تَرَ إلى البَيْضة فيها القِشْرة الأعلى، ثُمَّ القِشْرة الثانية والتي يَليها البَياض، ثُمَّ البَياض، ثُمَّ قِشْرة رقيقة، ثُمَّ الأَصْفَر؛ فطبَقات الأرض مثل البَيْضة هكذا، كذلك أيضًا السموات نَفْس الشيء طبَقات مُكوَّرَة.

فإن قال قائِل: هل هي مُنفَصِلة؟

فالجَوابُ: فيه خِلافٌ؛ بعض العُلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ يَقول: إن بَينَهُنَّ فَصْلًا وهَواءً، يَعنِي: مثل ما أنَّ السمَواتِ بينها هَواءٌ وفَصْل. وبعضُهم يَقول: لا فَصْلَ بينها.

فإن قيل: إذا قُلْنا: إنه تَدور الشمس والقمَر من تَحت الأَرَضين السَّبْع كلِّها؛ فكيف ذلك؟

فالجَوابُ: الأرَضون السبعُ هي الكُتْلة، فكُتْلة الأرض هذه التي يُسمُّونها الكُرةَ الأَرْضية، هذه مُتَضمِّنة للسَّبْع، فالسَّبْع في جَوْفها، والدليلُ على هذا قولُه ﷺ: «**مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طُوِّقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ**»[1]؛ لأنه إذا ظلَم الأرض العُليا التي نحن عليها الآنَ، فيَكون قدِ اعتَدى على التي تَحتَها، والتي تَحتَها، والتي تَحتَها إلى السَّبْع.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المظالم، باب إثم من ظلم شيئا من الأرض، رقم (٢٤٥٣)، ومسلم: كتاب المساقاة، باب تحريم الظلم وغصب الأرض، رقم (١٦١٢/ ١٤٢) من حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هنا: الرُّؤْية بمَعنَى العِلْم في المَوْضِعين، كما قدَّرها المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يَعنِي: أَوَلَمْ تَعلَم أنَّ الله تعالى بما تعمَلون خَبير.

فإن قال قائِل: عِلْمي بأنَّ الله تعالى يُولِج الليل في النهار، وأنه سخَّر الشمس والقمَر، عِلْمٌ طريقُه الحِسُّ، فأنا أُشاهِد ذلك، لكن: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ما طريق هذا العِلْمِ، هل هو الحِسُّ الشاهِدُ أو الخبَرُ الصادِقُ؟

فالجَوابُ: الخبَر الصادِق لا شَكَّ، نحن نَعلَم أن الله تعالى بما نَعمَل خَبير؛ لأنه أَعلَمنا بذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهو أَصدَق القائِلين، ونحن نَعلَم ذلك أيضًا عن طريق الحِسِّ الشاهِدِ؛ لِما نُشاهِد من عُقوبات المَعاصِي مثَلًا، ومن ثواب الطائِعين، ومِمَّا يَحدُث للإنسان نَفْسِه من أَثَر الطاعة، ومِن أَثَر المَعصية، فالإنسان المُؤمِن يَحصُل له من المَعصية أثرٌ سَيِّئ في نَفْسه، حتى إن بعض الناس يَضيق صَدْره، ولا يَدرِي ما السبَبُ، لكن سببَه مَعصية خَفِيَت عليه كما قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ مِئَةَ مَرَّةٍ**»[1] أو كما قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، فالإنسانُ يُحِسُّ بعِلْم الله عَزَّ وَجَلَّ وخِبْرته بما يَعمَل من الآثار.

والحاصِلُ: في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أن نَقول: نحن نَعلَم ذلك عن طَريقين هُما: الخبَرُ الصادِق والحِسُّ الشاهِد؛ فنُحِسُّ بذلك بما نَرى من آثار أعمالنا الصالِحة، أو آثار أعمالنا السَّيِّئة، ومن الفرَج عند الكَرْب، فهذا أيضًا من العَلامات، فالحاصِلُ من هذا: أن يَكون هذا التَّقديرُ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَعلَم، وقيل: للأَمْر الواقِع المُشاهَد المَحسوس، والأَمْر المَعلوم عن طريق الخبَر الصادِق.

---

(١) أخرجه مسلم: كتاب الذكر والدعاء، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، رقم (٢٧٠٢)، من حديث الأغر المزني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: إثبـاتُ قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ بإِيلاج اللَّيْـل في النَّهار وإيلاج النَّهار في اللَّيل.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان رَحْمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنَّ هذا الإيلاجَ فيه من المَصالِح الكثيرة، ما هو مُشاهَد مَعلوم، وما ليس بمَعلوم.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: بَيان نِعْمة الله عَزَّوَجَلَّ على عِباده، بتَسخير الشَّمْس والقمَر؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أنَّ الشَّمْس والقمَر يَجريان؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: بَيانُ كَمال النِّظام في أفعـال الله تعالى؛ لِقَوْله تعالى: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مُعيَّن لا يَختلِف لا تَقدُّمًا ولا تَأَخُّرًا.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: الرَّدُّ على مَن قال: إنَّ الشمسَ والقمَر ثابِتـان؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ﴾ وهذا خبَر مِن خالِقهما سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو أَعلَمُ بما خلَق، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [المُلك:١٤]، فيَكون فيـه رَدٌّ واضِح على الذيـن يَقولون: إنهما ثابِتان لا يَجريان.

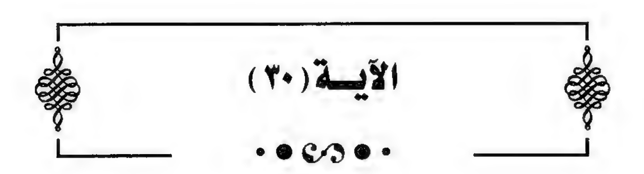
الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن لكُلِّ مَوْجود مِن الخَلْق غايةً؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلَّا الجَنَّة والنار؛ فإنهما باقِيان أَبَدَ الآبِدِينَ؛ لإبقـاء الله تعالى لَهُما، وليس بَقاؤُهُما ذاتِيًّا؛ لأن (ما جازَ حُدوثه جازَ عدَمُه)، ولكن الله عَزَّوَجَلَّ قضَى بأَبَدية الجَنَّة والنار، كما تَدُلُّ على ذلك الأدِلَّة الصريحة الصَّحيحة.

إِذَنْ: فكُلُّ مَوْجود له غاية، نَأْخُذه بالقِياس على هذا: جَرَيان الشَّمس والقَمَر مع أنهما دائِمًا وأبَدًا كما قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [إبراهيم:٣٣]؛ فمَعَ كونهما دائِبَيْن لهما غايةٌ؛ فما سِواهُما مِثْلهما.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: إثباتُ اسمِ الخَبير من أسماءِ الله تعالى؛ لِقَوْله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: تَحذير المَرْء من المُخالَفة؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ يَعنِي: فاحْذَرْ أن تُخالِف في عمَلِك، فإن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عَليم به، وقوله تعالى: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ لا يُستَفاد منه الحَصْر؛ لأنه قدَّم المَعمول: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ لأن أَصلَه: وأن الله خَبير بما تَعمَلون. فنَقول: هذا الحَصْرُ إضافيٌّ، والغرَض منه التَّحذير، فكأنه يُقال: لو لم يَكُن خَبيرًا بالشيء لكان خَبيرًا بأعمالكم، فإفادةُ الحَصْر هنا: لتَمام التَّحذير، يَعنِي: كأَنْ يُقال: لو لم يَكُن خَبيرًا بشيء لكان خَبيرًا بأعمالكم فاحْذَرُوا المُخالَفةَ.

• • ۞ • •



الآيـة (٣٠)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان:٣٠].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه ما ذُكِر من تَسخير الشَّمْس والقمَر، والقُدْرة على البَعْث والخَلْق، أي: ذلك المَذكورِ السابِقِ.

وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الباء للسَّبَبية، أي: بسبَب أنَّ الله تعالى هو الحقُّ؛ ولكونه جعَله هو الحقَّ صارَت هذه الأُمورُ وتَنَظَّمَت هذه النُّظُمُ؛ لأنه جَلَّوَعَلَا حَقٌّ في ذاته، وحَقٌّ في أفعاله، وحَقٌّ في أحكامه، وحَقٌّ في أسمائه وصِفاته؛ فرُسُله حَقٌّ، وكِتابه حَقٌّ، ووَعْده حَقٌّ، وثوابه حَقٌّ، وعِقابه حَقٌّ، وكل ما صدَر عنه فهو حَقٌّ.

والحَقُّ هو ضِدُّ الباطِل، والباطِل هو اللغوُ والعبَث الذي لا خَيْرَ فيه؛ فيَكون المَعنى: أن كل ما صدَر عن الله عَزَّوَجَلَّ فإنه حَقٌّ وخَيْر ثابِت.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾: ﴿وَأَنَّ﴾ معطوفة على (أنَّ) المَفتوحة.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَا يَدْعُونَ﴾: ﴿مَا﴾ هذه اسمٌ مَوْصول، يَعنِي: وأن الذي يَدْعون، وقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ﴾ يَشمَل دُعاء العِبادة، ودُعاء المَسألة؛ لأنَّ الأصنام التي تُعبَد من دون الله تعالى تُدْعى بمَعنَى: تُعبَد، وتُدْعَى بمَعنى: تُسْأَل.

والدُّعاء له مَعنَيان: دُعاء عِبادة، ودُعاء مَسألة؛ فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦] دُعاءَ مَسْألة، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، هذا دُعاءُ عِبادة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَـٰٓؤُا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ [غافر:٥٠]. أَيْ: ما عِبادتُهم إلَّا في ضَلال.

فالدُّعاء إِذَنْ: يَكون بمَعنَى دُعاء المَسأَلة، ودُعاء العِبادة؛ فقوله تعالى: ﴿مَا يَدْعُونَ﴾ يَشمَل المَعنيَيْن؛ يَعنِي: ما يَعبُدون، وما يَطلُبون منه الحوائِج.

قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ بالياء والتاء] يَعنِي قِراءَتانِ سَبْعيَّتان: (وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ)، ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ وكِلاهما صحيح، لكن في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَـٰطِلُ﴾ خِطاب، ولا يَكون إلَّا للكافِرين؛ لأنَّ الخِطاب في مِثْل هذا لا يُمكِن أن يَكون للرسول ﷺ ولا للمُؤمِنين من أصحابه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ أي: مِن سِواهُ، وقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [يَعبُدون] هذا فيه قُصور، والصواب: يَعبُدون ويَسأَلون، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يَدعو يَعنِي: يَسأَل؛ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأحقاف:٥].

فهنا يَنبَغي أن يُضاف: يَعبُدون ويَسأَلون.

وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: مِن سِواهُ.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْبَـٰطِلُ﴾ يَقول المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [الزائِل] وهذا فيه نظَر؛ لأنَّ المُراد الباطِل يَعنِي: الذي لا خَيرَ فيه، ومنه حَديثُ: «أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ

كَلِمَةُ لَبِيدٍ: أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللهَ بَاطِلُ»[1] «بَاطِل» يَعنِي: لا خيرَ فيه.

وهلِ المُرادُ الباطِل في عِبادتهم إيَّاه، أو الباطِل حتى في نَفْسه؛ فليس مُستَحِقًّا للعِبادة؟

الجَوابُ: كِلَا الأَمْرين؛ فهو باطِل بالنِّسبة لعِبادتهم إيَّاه، وهو باطِل في نَفْسه لا يَستَحِقُّ من الأُلوهية شَيْئًا.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ على خَلْقه بالقَهْر ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العَظيم]، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ هذه الجُملةُ جُملةٌ خبَرية مُؤكَّدة بضَمير الفَصْل.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْعَلِىُّ﴾ يَعنِي: لا غيرُه، والعَلِيُّ صِفة مُشبَّهة؛ لأنها على وَزْن فَعيل، والصِّفة المُشبَّهة يَقول أهلُ العِلْم باللُّغة العرَبية: إنها تُفيد الثُّبوت والاستِمْرار.

ومَعناهُ: العَلِيُّ بذاته والعَلِيُّ بصِفاته، فعُلُوُّه ذاتِيٌّ لازِمٌ أبدًا سواءٌ كان عليًّا بذاته أو عليًّا بصِفاته؛ وتَقدَّم لنا من أهل البِدَع مَن يُنكِر العُلوَّ الذاتِيَّ، وأمَّا عُلوُّ المَعنَى فهو مُتَّفق عليه بين المُسلِمين.

وقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ على خَلْقه بالقَهْر] هذا فيه قُصور؛ لأن الصواب أنه عليٌّ بذاته وصِفاته.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [العَظيم] فهو كبير بمَعنَى: عظيم في ذاته وفي صِفاته؛ قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة:٢٥٥]،

(١) أخرجه البخاري: كتاب مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية، رقم (٣٨٤١)، ومسلم: كتاب الشعر، رقم (٢٢٥٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخبرَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن السموات: ﴿مَطْوِيَّتُ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧]، وأن الأرضَ: ﴿جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر:٦٧]، وأنه يَطوِي ﴿ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء:١٠٤]، فكُلُّ هذا يَدُلُّ على عِظَم ذاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كما أنه عَظيم في صِفاته.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ﴾: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هنا لَمَّا ذكَر أن له الحَقَّ، وأن ما دونَه دونَ الباطِلِ قال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، فلِعُلُوِّه وكِبْرِيائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَتبيَّن أن هـذه الأصنامَ على الضِّدِّ من ذلـك، فهي سافِلة لا عُلوَّ فيـها، وهي ذَليلة وصغيرة ليس فيها شيء من الكِبْرياء.

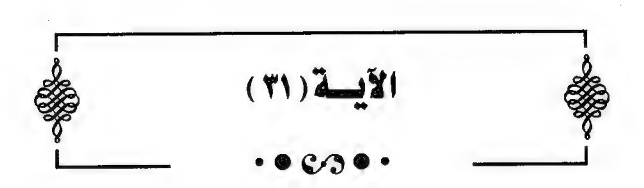
من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن الله هو الحَقُّ، والحقُّ ضِدُّ الباطِل، والباطِل كل شيء لا فائِدةَ منه، ولا خَيرَ فيه.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن كل ما يَصدُر عن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فهُوَ حَقٌّ؛ لأنه لا يَصدُر عن الحَقِّ إلَّا حَقٌّ.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن عِبادة غيرِ الله تعالى باطِلة.

• ● ۞ ● •



الآيــة (٣١)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [لقمان:٣١].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ السُّفُن ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم﴾ يا مُخاطَبِين بذلك ﴿مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ﴾ عِبَرًا ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن مَعاصِي الله تعالى ﴿شَكُورٍ﴾ لنِعْمَته].

قوله تعـالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ هذا الاستِفْـهامُ للتَّقرير؛ لأن هذا أَمْرٌ مَرئِيٌّ، فلا يَسأَل عن ثُبوته، ولكن يُقرِّر ثُبوتَه، والخِطاب في قوله تعالى: ﴿تَرَ﴾ يَعود إمَّا للرسولِ ﷺ، وإمَّا لكُلِّ مَن يَصِحُّ منه الخِطاب، وهذا أَعَمُّ.

وقوله تعـالى: ﴿أَنَّ ٱلْفُلْكَ﴾ قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [السُّفُن]، فكأنـه حمَلَه على الجَمْع مع أنه يُحتَمَل أن يُراد به المُفرَد؛ لقوله تعالى: ﴿تَجْرِى﴾ والفُلْك كما سبَق كلِمة تُطلَق على الجَمْع وعلى الواحِد قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس:٢٢]، فالفُلْك هنـا للجَمْع، فقوله: ﴿وَجَرَيْنَ﴾ نونُ النِّسـوة جَمْع، ولم يَقُل: وجَرَتْ، وأمَّا هنا أن (الفُلْك تَجرِي) فظاهِر الآية الكَريمة أن المُرادَ بها المُفرَد، إذ لم يَقُـلْ: (أَلَمْ تَرَى أن الفُلْك يَجرِينَ)، ومع ذلك فالمُفرَد يُراد به الجَمْع من حيثُ المَعنَى؛ لأن الفُلْك ليس واحِدًا بالعَيْن، لكنه واحِدٌ بالجِنْس.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ﴾: ﴿فِى﴾ للظَّرْفية، وهل هي على بابها أو بمَعنَى (على)؟

الجَوابُ: أن الفُلْك التي تُحمَل الأنعام هذه على سَطْحه، لكنها في الحَقيقة في وسَطه في الواقِع لا يُغطِّيها، لكن أَسفَلها مُغطًّى بالماء.

وقوله تعالى: ﴿فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ الباء مُتعَلِّقة بـ﴿تَجْرِى﴾ يَعنِي: تَجرِي بالنَّعَم أي: حامِلةً النَّعَم، ويُحتَمل أن تكون الباء للسبَبِيَّة، أي: تَجرِي بسبَب نِعْمة الله تعالى، أي: أن الله تعالى أَنعَمَ على عِباده بجرَيانها، وبين المَعنيَيْن فَرْق؛ لأنها على المَعنَى الأَوَّلِ تُفيد أن هذه السُّفُنَ تَحمِل النَّعَم، وأَمَّا المَعنَى الثاني تُفيد أن السُّفُن تَجرِي بنِعْمة الله تعالى، يَعنِي: أن جَريانها من إنعام الله تعالى علَيْنا.

والآية تَحتَمِل المَعنيَيْن بدون مُناقَضة، وقد ذكَرْنا مِرارًا وتَكرارًا: أن الآيَةَ إذا كانَتْ تَحتَمِل المَعنيَيْن بدون مُناقَضة حُمِلَت على المَعنيَيْن.

فإنها قد تَجرِي فارِغةً ليس فيها شيء، ومُجرَّد تَمكين الله عَزَّوَجَلَّ لهذه السُّفُن من أن تَجرِي في الماء والماء ليس جِرْمًا صُلْبًا يَحمِل، بل هو جِرْم ليِّن، لولا أن الله تعالى أن يَسير عليه هذه السُّفُنِ تَمشِي عليه ما مشَتْ، وإذا كانت رُكَّابًا فقط فهي تكون في المَعنَى الأَوَّلِ بإنعام الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والغالِب أنه يَكون فيها من نِعَمِ الله تعالى مِن الأرزاق ما هو شيء كثير؛ لكن -واللهُ أَعلَمُ- أنها المَعنَى الثاني.

قوله تعالى: ﴿تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ اللَّامُ مُتعلِّقة بـ﴿تَجْرِى﴾ وهي لامُ التَّعليل، أي: لأَجْل أن يُرِيكم، ومَعنَى ﴿لِيُرِيَكُم﴾ يُظهِرَه حتى تَرَوْه؛ يَعنِي: لأَجْل أن تَرَوْا من آيات الله تعالى ما يُبهِر عُقولكم.

وقوله تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾: ﴿مِّنْ﴾ هنا للتَّبْعيض؛ إِذْ إن السُّفُن والراكِبَ عليها لا يَرَى كلَّ آيات الله تعالى، ولكنه يَرَى بعضًا منها.

وقوله تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ﴾ أي: ممَّا يَدُلُّ على كَماله في القُدرة والإنعام وغيرِ ذلك، والآياتُ جَمْع آيةٍ وهي في اللُّغة: العَلامة، والمُراد بها كلُّ ما يُستَدَلُّ به على كَمال الله عَزَّوَجَلَّ في ذاته وصِفاته.

والآياتُ التي تُرَى: ما في البَحْر من الأسماك والحِيتان العَظيمة المُتنَوِّعة، وكذلك أيضًا من آياته ما يُشاهَد في البَحْر في أَمواجه وشِدَّتها وخِفَّتها، وكذلك أيضًا ما يُشاهَد من البحر من الأبخِرة التي تَتَصاعَد وتَتكوَّن سَحابًا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ.

المُهِمُّ: أن هذه الآياتِ العَظيمةَ أيضًا هي ليسَتْ كلَّ الآيات، ولكنها من آيات الله تعالى بعض آياتِه.

وقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ المُشار إليه: ما ذُكِر في البَحْر من جرَيان السُّفُن بنِعَم الله، وما يُشاهَد في البَحْر من آيات الله تعالى.

وقولُه تعالى: ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ أي: لعَلاماتٍ كَثيرة و﴿آياتٍ﴾ هذه اسمُ (إنَّ) مُؤَخَّر و﴿فِى ذَٰلِكَ﴾ جارٌّ ومجَرور خبَرها مُقدَّمٌ.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ عِبرًا] يَعتَبِر بها الإنسانُ، ويَستَدِلُّ بها على كَمال قُدْرة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ [﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن مَعاصِي الله ﴿شَكُورٍ﴾ لنِعَمِه].

وقوله تعالى: ﴿صَبَّارٍ﴾ صِيغة مُبالَغة، يَعنِي: كثير الصَّبْر.

وقوله تعالى: ﴿شَكُورٍ﴾ صِيغة مُبالَغة أيضًا، أي: كثير الشُّكْر.

والمُناسَبة لذِكْر (الصَّبَّار الشَّكور) بعد ذِكْر أن (الفُلْك تجري في البَحْر بنِعْمة الله)

ظاهِرة جِدًّا؛ لأن هذه الفُلْكَ التي تَجرِي في البَحْر تارةً تَعصِف بها الأمواجُ ويَتأَذَّى الإنسان بذلك وربها يَتضرَّر فيُقابِل ذلك بالصَّبْر، وقد يَكون الأمر بالعَكْس فيَشْمَل العبورَ على البَحْر، ويَحصُل بذلك خير كثير، فيُقابِل ذلك بالشُّكْر؛ فلَمَّا كانت هذه السُّفُنُ بها سرَّاءُ وضرَّاءُ ختَمَ الله تعالى الآية بقوله: ﴿لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

وعلى هذا فنَقول في قول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن مَعاصِي الله] فيه شيء من القُصور، بل نَقول: لكل صبَّار عن مَعاصيه وعلى أقدارِه المؤلِمة.

وفي قوله: ﴿شَكُورٍ﴾ أي: [لنِعَمِه]؛ كما قال المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

من فوائد الآية الكريمة:

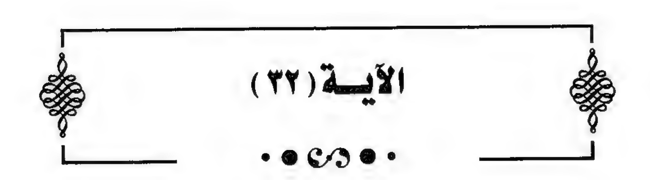
الْفَائِدَة الأُولَى: تَقريرُ المُخاطَب بهذه النِّعْمةِ وهي جرَيانُ الفُلْك في البَحْر بنِعْمة الله تعالى.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: أن جرَيانَ الفُلْك على هذا الماءِ السَّيَّال مع أنها تَحمِل الأثقال الثَّقيلة، من نِعْمة الله؛ بِناءً على أن الباء للسَّببية.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: حِماية الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للخَلْق في إظهار آياته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن الآياتِ إنما يَنتَفِع مَن جَمَع بَيْن الصَّبْر والشُّكْر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾؛ صبَّار عند الضَّرَّاء وشَكور عند السَّرَّاء.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن آياتِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في خَلْقه: حِسِّيَّة ومَعْنوية؛ فالفُلْك الذي في البَحْر حِسِّيٌّ، وقد جعلَه الله تعالى مِن آياته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾.



الآيــة (٣٢)

• ● ● •

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان:٣٢].

• ● ● •

قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أي: علَا الكُفَّارَ ﴿مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أي: كالجِبال التي تُظلِّل مَن تحتَها]؛ قوله تعالى: ﴿غَشِيَهُم﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [أي: علَا الكُفَّارَ] وأَصْل التَّغْشية أي: التَّغْطية، ومنه قوله تعـالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ [الرعد:٣] أي: يُغطِّيه، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل:١] أي: يُغطِّي ويَستُر؛ فأمثِلة ذلك كثيرة، فمَعنَى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ أي: غطَّاهم، ولا يُغطِّيهم إلَّا بعد عُلُوِّه عليهم.

و(المَوْجُ): ما يَحصُل من الماء المُتجمِّع الذي يَعلُو حتى يُغطِّيَ السُّفُن ويُغرِقها.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَالظُّلَلِ﴾ يقول المُفسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [كالجِبال التي تُظلِّل مَن تحتَها]، وهذا مُشاهَد، فإذا رأَيْت البَحْر في شِدَّة الأمواج تَجِد المِياه تَأتِي كأنها جِبال، وأحيانًا تَتلاطَم ثُمَّ يَعلو منها زُمْرَةٌ كبيرة عالية جِدًّا في البَحْر.

وهـذه الأَمْواجُ إذا غشِيَتْـهم: ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ وهـمُ الكُفَّار؛ فيَدْعون الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يسأَلونه ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لا يَسأَلون غيرَه؛ ففي هذه الحالِ لا يَقول عابِدو اللاتِ: يا لاتُ أَنقِذينا؛ لأنه يَعرِف أنها لا تُنقِذ، ولا عابِدُ العُزَّى ومَناة،

ولا عابِدُ هُبَل ولا غيرها من الأصنام؛ فلا يُمكِن أن يَدْعوَ الأصنام في هذه الحالِ؛ لأنه يَعرِف أنها لا تُنقِذُه، وإنما يَدعو الله تعالى مُخلِصًا له الدِّينَ.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلدِّينَ﴾ المَقصود به [أي: الدُّعاء بأن يُنجِّيهم أي: لا يَدْعون معَه غيرَه] أَخَذ المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ قولَه: [دونَ غيرِه] من قوله تعالى: ﴿مُخْلِصِينَ﴾؛ لأن الإخلاص بمَعنَى التَّخليد يَعنِي: أنه يُجعَل لهذا الشيءِ وحدَه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيِّنة:٥]، فهُـمْ في هذه الحالِ يَعرِفون الله تعـالى ويَدْعونه، وهذا يَدُلُّ على أن شِرْك مَن سبَق أخفُّ مِن شِرْك مَن لحِق، فهناك أُناس الآنَ إذا غَشِيـهم مَوْج كالظُّلَل أو أَصابَتْهم الضَّرَّاء مَن يَدْعون مخلوقًا، فتَجِده بدَلًا من أن يَقـول: اللَّهُمَّ أَنقِذْني! يَقول: يا عليُّ أَنقِـذْني! يا عبدَ القادِر أَنقِـذْني! يا فلانُ أَنقِذْني! فصار شِرْك هؤلاءِ أقبَـح من شِرْك الأوَّلِين؛ لأن الأوَّلِين يَعرِفون الحَقَّ إذا أَصابَتْهمُ الضرَّاء، وأنه لا يَكشِف هذه الضَّرَّاءَ إلَّا اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأمَّا هؤلاءِ فإنهم يَزدادون عمًى إلى عَماهُمْ.

ومن المَعلوم أنه لا يُمكِن أن يَكشِف به مِن الضَّرَّاء لا عَبْدُ القادِر ولا البدَويُّ ولا عليُّ بن أبي طـالِب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ولا غـيرهم؛ بل كـلُّ هَؤلاءِ -وهُمْ بأنفـسهم- لو أَصابَتهم الضَّرَّاءُ ما استَطاعوا أن يَكشِفوها عن أنفسهم، فكيف يَكشِفونها عن غيرهم، وهذا مع أنهم قد ماتوا وانقَطَع الرجاء بهم من كل وَجْه؛ لكن لو كانوا أحياءً حاضِرين ربَّما يَستَعين الإنسان بهـم، فيَنتَقِل، لكن إذا كانوا أمواتًا فلا يُمكِن أن يَستَغيث بهم إلَّا جاهِـلٌ، ولا يُمكِن أن يَأتِيَ عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من قَبْره من أَجْل أن يُنقِذَك أو عبدُ القادر يَأتِي من قَبْره لأَجْل أن يُنقِذك أو البدويُّ من قَبْره لأَجْل أن يُنقِذك، أو غيرهم ممَّن يُدْعَى عند الشدائِد ليُنقِذ!! والله أَعلَمُ.

وقوله تعـالى: [﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ يَعنِي: [لا يَدْعون غيره] ﴿فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾] هذه ضُمِّنت مَعنَى الإيصال، يَعنِي: نجَّاهم وأَوْصَلهم إلى البَرِّ لم يَقُل: فلمَّا نجَّاهم من هـذه الظُّلَل فقَطْ؛ بل نَجَّاهم إِنجاءً وصَلوا فيه إلى شاطِئ السلامة إلى البَرِّ، والبَرُّ هنا ضدُّ البَحْر، فيَشمَل ما لو نجَّاهم إلى بلد، فإن البلد في هذه الآيةِ من البَرِّ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾: (لَمَّا) هنا شَرْطية؛ والجَوابُ: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ يَعنِي: ومِنهم غير مُقتَـصِد؛ فالجوابُ إِذَنْ مَحذوف دل عليه قوله تعـالى: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: فلما نجَّـاهم إلى البَرِّ انقَسَموا قِسْـمين: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ ومِنهم كافِر.

و(لَمَّا) لها عِدَّة مَعـانٍ: تَأتِي شَرْطية، وتَأتِي جازِمة نافيـة، وتَأتِي بمَعنَى (إلَّا)، وتَأتِي بمَعنَى حين، هذه أربعةُ مَعانٍ.

فتَأتِي شَرْطية كما في هذه الآيةِ، ومثل قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ [الأعراف:١٦٦].

وقد تَأتِي بمَعنَى (إلَّا) كما في قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ [الطارق:٤] أي: إلَّا عليها حافِظ.

وتَأتِي جازِمة نافِية كقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ [ص:٨]، أي: بل لم يَذوقوا عَذابي.

وتَأتِي ظَرْفًا بمَعنَى حين فقُلْ: زُرْتُك لَمَّا سمِعْت بقُـدومك أي: حين سمِعْت بقُدومك.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ﴾ انقَسموا إلى قِسْمين، هذا الجَوابُ محذوف ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ هذه (من) للتَّبعيض يَعنِي: فبعضُهم مُقتَصِد؛ قال المُفسِّر: [مُتوسِّط بين الكُفْر والإيمان، ومنهم باقٍ على كُفْره] هذا القَسِيمُ الثاني؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: [مُتوسِّط] والاقتِصاد في كل شيء هو التَّوسُّط فيه؛ فالمعنى أن منهم مَن صار لا مُؤمِنًا ولا كافِرًا إذا ذُكِر عليه نِعْمة الله بالإيمان جاء آمَن وشكَر ربَّه، وإن غرَّته السلامة كفَر وطغَى فيكون مُقتَصِدًا.

ومنهم المُقابِل وهو الكافِر، والدليل أن المُراد بالمُقابِل هنا كافِر قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ وإلَّا فقَدْ يَقول قائِل: مَن الذي يَدُلُّكم عن أن المُقابِل هو الكافِر؛ ألَا يُمكِن أن يَكون المُقابِل هو المُؤمِنَ؟ كما في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر:٣٢]؟

قُلْنا: هذا مُمكِن؛ لكن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ يَدُلُّ على أن المُقابِل للمُقتَصِد هو الكافِر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ الجَحْد بمَعنَى النَّفْي والكِتْمان، وقد يُضمَّن مَعنَى التَّكذيب كما هنا، فإنه ضُمِّن مَعنَى التَّكذيب؛ لأن الجَحْد الذي بمَعنَى الكِتْمان يَتعدَّى بنَفْسه فيُقال: جحَدَه. أي: كتَمَه، لكن هنا ضُمِّن مَعنَى التَّكذيب؛ ولذلك تَعدَّى بالباء فقيل: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ أي: ما يُكذِّب بها.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ ومنها الإِنْجاء من الموت ﴿إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدَّار ﴿كَفُورٍ﴾ لنِعَم الله] أَيْ: ما يَجحَد بآيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويُنكِرها ويُكذِّب بها، والمُراد بـ(الآيات) هنا كل ما يَدُلُّ على نِعَمه وتَوحيده من الآيات الشَّرْعية والآيات الكَوْنية: ما يَجحَد بها ويُكذِّب إلَّا من جَمَع هذين الوَصْفين:

الخَتْر وهو الغَدْر، والثاني الكُفْر وهو الاستِكْبار.

فإذا قال قائِل: كيف الغَدْر هنا؟

قُلْنا: لأن كل إنسان قد عاهَدَ ربَّه قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠]، فكل إنسان قد عاهَد ربَّه بمُقتَضى فِطْرته أن يُؤمِن به، فإذا كفَر صار غادِرًا لم يَفِ بالعَهْد.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: أن إرسالَ الأَمْواج من الله عَزَّوَجَلَّ امتِحان لعِباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ حتى رحِمَهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات رِسالة الرسول ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾؛ والرسولُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ما ركِبَ البَحْر حتى يَعرِف هذه الأمواجَ، وأنها كالظُّلَل، ولكنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ علِم بها مِن خَبَر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾؛ ولهذا قال بعضُ العُلَماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: إن كونَ هذه الآيةِ تُفيدُ كأنَّ الرسول ﷺ في وسَط البَحْر وهذا المَوجُ يَغشَى: يَدُلُّ على أنه رسولُ الله حَقًّا، لأنه لم يركَب البَحْر، ولا يُقال: إنه ربَّما أُخْبِرَ بذلك؛ لأن الله أَبطَلَ هذا في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل:١٠٣].

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هؤلاءِ المُشرِكين إذا وقَعوا في الشِّدَّة عرَفوا الله تعالى.

فيتفرَّع على ذلك: أن مَعرِفة الله تعالى في مِثلِ هذه الحالِ لا تُجْدي؛ ولهذا قال النبيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «تَعرَّفْ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ»[1].

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن المُشرِكين يُقِرُّون بالرُّبوبية؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿دَعَوُاْ ٱللَّهَ﴾ ولا يَدْعونه إلَّا لأنهم يَعلَمون أنه قادِر على إِنْقـاذهم، وإلَّا فلا يُمكِن أن يَدْعوا مَن لا يَعتَقِدون أنه قادِر.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن المُشرِكين فيما سبَـقَ أحسَنُ حالًا من المُشرِكين الآنَ؛ لأن المُشرِكين الآنَ إذا أَصابَتْهم الشِّدَّةُ يَدْعون آلهتَهم أيًّا كان! ولا يَدْعون الله تعالى، بل يَدْعـون الوليَّ الفُلانيَّ والصَّحابيَّ الفُلانيَّ، وما أَشبَـه ذلك؛ أمَّا المُشرِكون السابِقون فإنهم يَدْعون الله تعالى.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الله عَزَّوَجَلَّ يُجيب دُعاءَهم مع عِلْمه بأنه سيَكفُرون؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ وهو يَعلَم ذلك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: إجابةُ دَعْوة المُضطَرِّ ولو كان كافِرًا؛ فهؤلاءِ أَجاب اللهُ تعالى دَعْوتهم مع عِلْمه بأنهم كُفَّار وسيَكفُرون؛ ويُؤيِّد هذا عُمومُ قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ ولم يَقُلِ: المُؤمِن. بلِ قال: المُضطَرَّ، وهو عامٌّ، وكذلك أيضًا المَظلوم تُستَجاب دَعْوته ولو كان كافِرًا؛ لعُموم قول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لمُعاذِ ابنِ جبَل: «اتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[2].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/ ٣٠٧)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) أخرجه البخاري: كتاب الزكاة، باب أخذ الصدقة من الأغنياء، رقم (١٤٩٦)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، رقم (١٩)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أن مَن نجا من نِقْمة من النِّقَم فإنه إمَّا أن يَقوم بما يَجِب عليه فيَكون مُقتَصِدًا، أو يَرجِع إلى كُفْره فيَكون غَدَّارًا خدَّاعًا؛ لأنه لَمَّا دَعا الله تعالى مُخلِصًا له الدِّينَ في هذه الشِّدةِ كان مُقتَضى ذلك أن يَكون بينَه وبين الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَهْد بأن يَبقَى على إخلاصِه، فلو كفَرَ صار غَدَّارًا ختَّارًا.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: قُدْرة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ﴾.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: إثباتُ عِلْمه عَزَّوَجَلَّ.

الْفَائِدَةُ الحَادِيَةَ عَشْرَةَ: إثباتُ سَمْعه عَزَّوَجَلَّ.

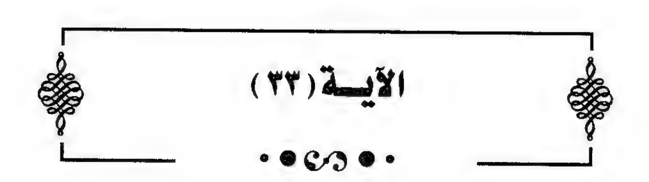
فالسَّمْع والعِلْم والقُدْرة تُؤخَذ من قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا نَجَّـٰهُمْ﴾؛ لأنه لا يُنَجِّيهم إذا دَعَوْا إلَّا بعد أن يَسمَع دُعاءَهم ويَعلَم بحالِهم ويَقدِر على إزالة ضَرَرِهم.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ: أن مَن كان وفيَّ العَهْد فإنه لا يَجحَد بآيات الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ: التحذيرُ من الغَدْر؛ لأنه قد يَكون سببًا في الكُفْر والجَحْد؛ ولهذا قال الرسولُ ﷺ: «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ**» وذكَر منها: «**إِذَا عَاهَدَ غَدَرَ**»[1]؛ فإذا كان لا يَجحَد بالآيات إلَّا الغَدَّار فمَعنَى ذلك أن الغَدْر يَكون سببًا للجَحْد والكُفْر.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٣)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٩)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بلفظ: «**وإذا وعد أخلف**»، وأخرجه البخاري: كتاب الإيمان، باب علامة المنافق، رقم (٣٤)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (٥٨)، من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، بلفظ: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا... وإذا عاهد غدر**».



الآية (٣٣)

• قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان:٣٣].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ فما دام هو الربُّ فهو الخالِق، وما دامَ هو الخالِق فيَجِب أن يَكون هو الذي يُتَّقى؛ فكأنه يُعلِّل الأمر بالتَّقوى: (اتَّقُوا رَبَّكُم؛ لأنه ربُّكم الذي أَوْجَدكم وأَعَدَّكم وأَمَدَّكم) فهنا إيجاد وإعداد وإنزال، فالله تعالى (أَوْجَد) الناس، و(أَعَدَّهم): هيَّأَهم لما ينبَغي أن يَكونوا عليه؛ و(أَمَدَّهُم): أمَدَّهم بالعُقول وأمَدَّهم بالرسُل التي جاءَت بشريعة الله تعالى.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى﴾ لا يُغنِي ﴿وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ فيه شَيْـًٔا] قوله تعالى: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا﴾ الخَشْية تَقدَّم لنا أنها أَخَصُّ من الخَوْف؛ لأنها تَكون مع العِلْم بحال المَخشِيِّ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر:٢٨]؛ ولأن سببَها قُوَّة المَخشِيِّ، وأمَّا الخَوْف سببه ضَعْف الخائِفِ -وهذا هو الغالِب- أمَّا الخَشْية فأخَصُّ؛ يَعنِي: اخشَوْا هذا اليومَ العَظيمَ الذي صِفَته كيت وكيت، وقد بيَّنه الله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله الله: [﴿يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ فيه ﴿شَيْـًٔا﴾] ومَعنَى ﴿يَجْزِى﴾

يُغنِي؛ فلا أحَدَ يَستَطيع أن يَدفَع عن أولاده شَرَّ ذلك اليومِ أبَدًا مع أنه بالدنيا يُغنِي عنهم ويُدافِع ربَّما يُلقِي بنَفْسه للتَّهْلكة من أَجْل حَياة أولاده، لكن في الآخِرة لا؛ بل إنه كما قال: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٣-٣٥]؛ يَفِرُّ منهم خَشيةَ أن يَتَعلَّقوا به بتَقْصير حَقٍّ قصَّر فيه نحوهم؛ قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١]، فلا أحَدَ يُسأَل عن أحَد، فكُلٌّ يَقول: نَفْسي نَفْسي؛ لأن الأمر عظيم، إذِ الجِبال تَندَكُّ حتى تكُون كثيبًا مَهيلًا، ثُمَّ بعد ذلك تَكون كالعِهْن المَنفوش، ثُم تَتَطاير وتكون هَباءً مَنثورًا هَباءً يَطير في الجَوِّ، فالأمرُ أَعظَمُ من أن يُغنِي أو أن يَجزِي والِدٌ عن والِده شَيْئًا.

وكلِمة ﴿وَالِدٌ﴾ نكِرة في سِياق النفي، يَشمَل الأبَ والجَدَّ والأُمَّ والجَدَّة وإن علَوْا؛ وقوله تعالى: ﴿عَن وَلَدِهِۦ﴾ أيِ: الذَّكَر والأُنْثى؛ لأن الوَلَد يُطلَق على الذَّكَر والأُنثَى في اللغة العَربية؛ قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١].

وقوله تعالى: ﴿مَوْلُودٌ﴾ يَجوز في إعرابِها وَجْهان:

١- أن تَكون مُبتَدَأً و﴿هُوَ جَازٍ﴾ الجُمْلة هذه خبَرُ المُبتَدَأ، فـ﴿مَوْلُودٌ﴾ مُبتَدَأ، و﴿هُوَ﴾ مُبتَدَأ ثانٍ و﴿جَازٍ﴾ خبَر المُبتَدَأ الثاني، والجُمْلة من المُبتَدَأ الثاني وخبَرِه في محَلِّ رَفْع المُبتَدَأ الأوَّل؛ وسَوَّغ الابتِداءَ بالنَّكِرة في قوله تعالى: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ أنها وارِدة في مَقام التَّقسيم.

٢- ويَجوز أن يَكون قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ مَعطوفًا على قوله تعالى: ﴿وَالِدِهِۦ﴾ يَعنِي: ولا يَجزِي مَولود.

فعلى الوجهِ الأوَّلِ: لا إشكالَ فيه في المَعنَى، لكن فيه إشكال في تَغيير النَّظْم،

يَعنِي: في تغيير الأُسْلوب حيث أَتَى بالنِّسبة للوالِد في الفِعْل، وأَتَى بالنِّسبة للمَوْلود بالجُمْلة الاسمِيَّة، والجوابُ على هذا أن يُقال: إنه أَتَى بمَوْلود في الجُمْلة الاسمِيَّة؛ لئَلَّا يَطمَع أحَدٌ من المُسلِمين الذين قد أَسلَموا في كِفايتهم عن آبائِهم شيئًا أي: لئَلَّا يَطمَع المَوْلود المُسلِم في الإغناء عن أبيه الكافِر أَتَى بالجُمْلة الاسمِية للدَّلالة على الثُّبوت والاستِمْرار.

وعلى الوجهِ الثاني: إنه مَعطوف على والِد؛ وعلى هذا الوجهِ يَرِد إشكال في قوله تعالى: ﴿هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إِذْ إن المَعنَى يَكون ولا يَجزِي مَوْلود هو جازٍ عن والِده شيئًا قُلْنا: الجَواب على ذلك أن مَعنَى ﴿هُوَ جَازٍ﴾ أي: هو أَهل لكِفايته، ولكنه في ذلك اليَوْمِ لا يَدرِي وإن كان من أهل الإِجْزاء أو من أهل الجَزاء.

فإذا قال قائِل: لماذا لم يُقيِّد الوالِد بهذا القَيْدَ أيضًا؟

قُلْنا: لأن الوالِد غالِبًا أهلٌ لأَنْ يَجزِي؛ لأنه الوالِد هو الأكبَرُ، ويُمكِن أن يَجزِيَ بخِلاف الولَد، فالولَدُ يُمكِن أن يَكون صغيرًا لا يَجزِي شيئًا؛ ولهذا قُيِّدت بالنِّسبة للمَولود بكَوْنه أَهْلًا لأَنْ يَجزِيَ.

فقوله تعالى: ﴿هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ إذَنْ ما الذي يَنفَع الإنسان في ذلك اليومِ؟

الجَوابُ: يَنفَعه ما ذكَره الله تعالى عن إبراهيمَ الخليل ﷺ: ﴿وَلَا تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٧-٨٩]، هذا الذي يَنتَفِع؛ فقوله تعالى: ﴿مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: سَليم من كل ما يُنَقِّصه من الشِّرْك فما دونَه.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بالبَعْث] يَعنِي بالبَعْث وما فيه، وليس بالبَعْث فقَطْ، بل بالبَعْث والحِساب والجَزاء من خَيْر وشَرٍّ.

وقوله تعالى: ﴿حَقٌّ﴾ بمَعنَى: ثابِت واقِع، وهذا من ضِمْن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [لقمان:٣٠] من كونه حَقًّا: أن الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ حقٌّ، ووَعْدُ غيره قد يَكون حَقًّا وقد يَكون باطِلًا غير مُوفًّى به؛ لأن غير الله عَزَّ وَجَلَّ قد يَتَخلَّف مَوْعوده إمَّا لكذِبٍ في الواعِد وإمَّا لعَجْز فيه.

فمثَلًا: رجُل قال لك: سآتِي إليك بعد صلاة العَصْر مُباشَرةً بطبَق من الخُبْز وكَأْس من المَرَق، وبعد العَصْر لم يَجِئْ لك بشيء، وعنده أطباق الخُبْز وعِنده كُؤوس المَرَق؛ لكن لم يَجِئْ بشيء لكَذِبه؛ وفي اليوم الثاني ما جاء لك بشيء؛ لأنه ليس عنده شيء، لا عنده فُلوس يَشتَرِي بها، ولا عنده شيء في البَيْت، فهذا أيضًا أَخلَف المَوعِد للعَجْز.

ومِن العَجْز أيضًا النِّسيان؛ لأن النِّسيان في الحَقيقة نَقْص في الإنسان، فالله عَزَّ وَجَلَّ وَعْده حَقٌّ لا بُدَّ أن يَقَع.

فقول المُفَسِّر: [بالبعث] الصوابُ: بالبَعْث وغيرِه، ممَّا يَكون في ذلك اليومِ من الحِساب والجَزاء.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ هنا الفِعْل مُؤكَّد بنون التَّوْكيد، والتَّوكيد في الفِعْل من غير الواجِب؛ فإنه ليس واقِعًا في جواب القَسَم، فما دام في جَواب القَسَم ليس بواجِب فإِذَنْ: هو من غير الواجِب، لكنه كثير.

وقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ الغُرور: الخِداع؛ يَعنِي

لا تَخدَعَنَّكم بزُخْرفها ولذاتها ومَسَرَّاتها؛ وذلك عن [الإسلام] وشَرائعه؛ فـ(عن الإسلام): إن كان الإنسان كافِرًا، و(عن شَرائِعه): إن كان مُسلِمًا.

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ تزهيد في هذه الحَياةِ؛ لأنه قال: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ والدنيا فُعْلَى من الدُّنُوِّ، وهي دانية الزمَن، دانية المَعنَى والمَرتَبة، فهي دُنيا؛ لأنها سابِقة للآخِرة؛ ودنيا لأنها ناقِصة، كما تَقول: هذا دون هذا، يَعنِي: أَنقَصَ منه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ نون التَّوْكيد دليل على أن غُرورها شديد؛ ولهذا أكَّدَ النَّهيَ بالنون: ولا تَغُرَّنَّكم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿بِٱللَّهِ﴾ في حِلْمه وإمهاله] يَعنِي: لا يَغُرَّنَّكم بالله، والأمر -كما قال المُفسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ- بإِمْهاله وحِلْمه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ صِفَة مُشبَّهة، ويُراد بها [الشَّيْطان]، كما قال تعالى: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء:١٢٠].

والشيطانُ يَغُرُّ الإنسانَ بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ فمَثَلًا: يَقول له: لو أنك على باطِل لعاقَبَك الله تعالى؛ أو يَقول له: إن رحمة الله واسِعة والله غَفور رحيم؛ أو يُمنِّيه بالتَّوْبة يَقول: صحيحٌ أن هذه مَعصية، والإنسان مُعرِّضٌ نَفسَه للعُقوبة، لكن التَّوْبة أمامَك، فالآنَ تَمتَّعْ بهذه المَعصيةِ وبعدَئِذٍ تَتوبُ.

ومن ذلك ما يُمنِّيه بعض الناس بأن يَقول: لا تُصلِّ حتى تَبلُغ أربَعين سَنَةً. وهذا مَوْجود عند بعض الناس، فبعض الأجانب يَقولون: إن أهلَهم يَقولون:

ما تَجِب عليكم الصلاةُ إلَّا بعدَ بُلوغ أَرْبَعين سَنَةً؛ ولهذا يَسأَلون دائمًا عن الصَّلاة الماضية: هل يَقضُونها أم لا؟ فهذا من غُرور الشَّيْطان.

ومن غُرور الشَّيْطان أيضًا أنه يَقول في الشيء الذي يَعتَقِد الإنسان أنه مَعصية: هذه مَسأَلة خِلافية، وما دام فيها خِلافٌ تَجشَّمْها، مع أنه هو يَعتَقِد أنها مَعصية؛ وكذلك من غُروره أنه يَقول في الشيء الذي يَعتَقِد الإنسان أنه واجِب يَقول له: هذه المَسأَلةُ خِلافيةٌ، فيَكون هذا الرجُلُ إنِ احتاج لمُحرَّم قال: المَسأَلةُ خِلافية وافْعَلْهُ، وإن لم يَحتَجْ له قال: الذي أَدِين اللهَ به أن هذا مُحرَّم، ولا أَفعَلُه. فيَكون هذا الشيءُ دِينًا بالأمسِ غيرَ دِينِ اليومَ، أو يَقول مثَلًا إذا هَواهُ فِعْل واجِب: والله هذا واجِب، يَجِب عليَّ أن أَفعَله. فالمُسلِم يَلتَزِم بأحكام الله تعالى، وإذا صار له شُغْل ذاك اليومَ يَقول: المَسأَلة خِلافية، والأَمْر سَهْل ما دامَتْ خِلافية فليس مجزومًا بها.

مِثالُ ذلك: الصلاة في المَساجِد جماعةً هذه مَسأَلة خِلافية؛ فصلاة الجَماعة نَفْسُها خِلافية وكونها في المَسجِد خِلافية أيضًا، وهو يَعتَقِد أن الصلاة في المَساجِد جَماعةً واجِبةٌ، وأنه لا يَجوز لإنسان أن يَترُك الجَماعة، ولا يَجوز أن يُصلِّيَها جَماعةً في بَيْته، لكن إذا صار له شُغل يَختار: المَسأَلة خِلافية؛ فالحاصِل أن هذا من غُرور الشَّيْطان.

ومن غُرور الشَّيْطان أيضًا أن يُفتِيَ للناس بشيء ويُفتِيَ لنفسه بشيءٍ آخَرَ؛ فيُرخِّص لها ويُسهِّل لها، ولغَيْره يُشَدِّد، فمِثْل هذه المَسائِلِ كلِّها من خِداع الشَّيْطان، والواجِب أن يَكون الإنسان على دِين واحِد: على دِين الله تعالى لنَفْسه ولغيره وفي جميع أحواله.

مَسأَلَةٌ: إذا كان يُشدِّد على نَفْسه تَربيةً لنفسه فلا بَأسَ ما دامَ يَعتَقِد أن حُكْم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو التَّسهيل، لكن يُشدِّد على نَفْسه تَورُّعًا، وله من الأصل من الدَّليل فلا بأسَ؛ فمثَلًا: بعض الناس يَتَورَّعون عن بعض المأكولات، هو نفسه لا يَأكُل، لكن لا يَقول للناس: لا تَأكلوا؛ لأنه ليس عِنده دَليل، أو يَتورَّع عن بعض الأَطياب، لكن لا يُحرِّمها على النـاس؛ لأنه ليـس فيها دَليل، أو مثَلًا يُلزِم نَفْـسه بِفِعْل شيء ليستِ الأدِلَّة صَريحة بالوُجوب فيه، فهو لا يُوجِبه على الناس، لكن هو لا يُحِبُّ أن يَتأَخَّر، فهذا ليس فيه بأسٌ؛ لأن هذا ليـس فيه هوًى، فالمُشكِلة الهَوى: بأن يُسهِّل على نَفْسه ويُشدِّد على الناس.

فإن قال قائِل: أنا أُبيح لنَفْسي فِعْل هذا الشيءِ؛ لأني أَضبِطُ نَفْسي، فلا أَتَجاوَز الحَلال؛ وأَنهَى الناس عنه؛ لأَنَّني لو رَخَّصْت لهم فيه يَتَجاوَزون الحَلال فأنا أَمنَعُه؛ لئَلَّا يَتَجاوَزوا الحَلال، وأَمَّا بالنِّسْبة لنَفْسي فأنا ضابِط نَفْسي أني لا أَتعَدَّى الحَلال؟

فالجَوابُ: أن نَقول: لا تَقُلْ: (حرام) على الناس، لكن قُلْ: (أَخشَى عليك أن تَتَجاوَز) وما أَشبَه ذلك؛ هذا الواقِعُ؛ أَمَّا أن تَقول له: (حَرام) فتَمنَع هذا الرجُلَ من هذا الشيءِ وأنت تَتَمَتَّع به كما تَشاءُ، فهذا لا يَصلُح، لكن قُلْ له: (أنا أَخافُ عليك أن تَتَجاوَز الحَلال أو أن يَقتَدِيَ بك مَن يَتَجاوَز به)، وما أَشبَه ذلك حتى يَتبَيَّن له الأمر: أنَّ حُكْم الله تعالى فيه حلالٌ، ولكنه يَخشَى من أن يَزيد الناس فيه، والله أَعلَمُ.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَة الأُولَى: وُجوبُ تَقْـوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؛ لقـوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ ﴾ فالأمرُ ولا سِيَّما أنه قُرِن بالتحذير باليَوْم الآخِر؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا ﴾.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: إثبات اليومِ الآخِرِ؛ لقَوْله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا﴾، ولولا تَحقُّقه ما حذَّر منه.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: أن هذا اليَوْمَ لا يَنفَع فيه قَريبٌ قريبَه؛ فإذا قال قائِل: إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لم يَذكُر إلَّا الوالِد والولَد؟ فنَقول: إذا انتَفَى الوالِدُ بولَده والولَدُ بوالِده فغيرُه من بابِ أَوْلى؛ لأن الولَد بَضْعة من أَبيه، فإذا كان البَضعة لا يَنتَفِع بكُلِّه، والكُلُّ لا يَنتَفِع ببَضْعته فمِن بابِ أَوْلى مَن سِوى ذلك.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: تَأكيدُ هذا اليومِ ووقُوعه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

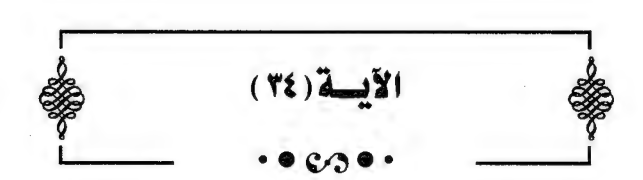
الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: التَّحذيرُ من الدُّنيا وغَدْرها وغُرورها؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

الْفَائِدَةُ الْخَامِسَةُ: أن الدُّنيا من أكبَرِ الأسباب التي تَحول بين المَرْء وبين خَشْيته لليَوْم الآخِر؛ لأنه فرَّع عليه قوله تعالى: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا﴾، ثُمَّ قال تعالى: ﴿فَلَا﴾ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾ وهو كذلك.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: التَّحذير من الشَّيْطان؛ لقوله: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: أن الشَّيْطان خَدَّاع؛ لقوله تعالى: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ فهي إمَّا صِيغة مُبالَغة، وإمَّا صِفَة مُشَبَّهة، وكِلاهما يَدُلُّ على الثُّبوت والكَثْرة.

ويُحتَمل أنها تَشمَل حتى شَياطينَ الإنْس، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:١١٢]؛ فإن غرَّه مالُه أو ولَدُه فإنه إذا غرَّه عن الحَقِّ فهو من الشَّياطين، ولكن ظاهِر الآية: ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ أن هذا الوَصْفَ لازِم، فيَكون هذا من الشَّيْطان.



الآيــة (٣٤)

❁ قالَ الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان:٣٤].

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ﴾ مَعروفٌ أنَّ الله -لفظ الجلالة- اسمُ ﴿ إِنَّ ﴾، و﴿عِندَهُۥ﴾ خبَر مُقدَّم، و﴿عِلْمُ﴾ مُبتَدأ مُؤخَّر، والجُمْلة خبَرُ (إنَّ) الجُمْلة الخبَرية فيها حَصْر، وهو مُستَفاد من تَقديم الخبَر؛ فقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ﴾ يَعنِي: لا عندَ غيره ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾.

ويَدُلُّ على هذا الحَصرِ قولُه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ [الأعراف:١٨٧] حَصْر بقَوْله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا﴾ ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ فلو أن مُدَّعِيًا قال: إن الحَصْر هنا في الخبَر لا في الجُملة كلها؛ قُلْنا: لكن الخبَر هو الذي دلَّ على انحِصار عِلْم الساعة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ ويَدُلُّ عليه ويُؤكِّده الآية التي ذكَرْناها؛ فإذا جاءَتْ مثل العِبارة هذه: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ فالمَعنَى: لا يَعلَمها إلَّا رَبِّي؛ كما إذا قُلْت: (إنَّما القائِمُ زَيد)؛ فمَعناهُ: لا قائِمَ إلَّا زَيْدٌ.

قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ متَى تكون؛ وفي أيِّ وَقْت؛ ولا يَعلَمه إلَّا اللهُ تعالى؛ ولهذا سأَل جِبريلُ النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: «**أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟**»

قال: «**مَا المَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**»[١]، فتَأَمَّلْ: رَسولان أحدُهما أفضَلُ المَلائِكة والثـاني أفضَلُ البَشَر، كِلاهما يَقول: لا عِلمَ عِنْـدي؛ لأن قوله ﷺ: «**مَا المَسْؤُولُ بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ**» يَعنِي: إذا كنتَ أنتَ لا تَعلَم فأنا من باب أَوْلى لا أَعلَمُ.

فإِذَنْ: عِلْمها يَختَصُّ بالله تعـالى، ولقَدْ كذَب مَنِ ادَّعى أنه يَعلَمـها، ولا سِيَّما بالواسِطة التي ذَكَر أنها دالَّة عليها، كما نُشِر عن شَخْص يُسمَّى رَشاد خَليفة، هذا رجُل في أمريكا، وهو رجُل عِنـده عِلْم، لكنه اغترَّ اغتِرارًا عَظيمًا بما يُسمِّيه (العدد التاسِعَ عَشَرَ)؛ حيـثُ ادَّعَى أن القُرآن كُلَّه مُركَّب على تِسعـةَ عَشَرَ حَرْفًا، وأن هذا الماثِلَ عنده: التِّسْعةَ عَشَرَ، استَدَلَّ به على أنه يَعرِف متى تَقوم الساعة، وحدَّدَها - أَظُنُّ- فوق الأَلْفَيْن بسَنوات قليلة.

وهذا الرجُلُ في الواقِـع الله أَعلَمُ: هل هو مُتَأَوِّل، أو مُعانِد؟! لكنَّ كلَّ مَنِ ادَّعى عِلْم الساعة فهو كافِر؛ لأنه مُكـذِّب لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ورسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وإجماع المُسلِمين، والمُسلِمـون مُجمِعون إجماعًا قَطعيًّـا على أنه لا يَعلَم متى تَقوم الساعةُ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ الساعة هي القِيامة، وسُمِّيَت الساعةَ؛ لأنها أَعظَمُ حدَثٍ يَكون، ولأن فيها وَعيدًا للمُكذِّبين؛ ولهذا يُتوعَّد بالساعة؛ فيُقال مثَلًا: (ساعَتُك عِندي) إذا أَرَدْت أن تُهدِّد إنسانًا تُهدِّده بكلِمة (الساعة)؛ لأنه يَقَعُ فيها حدَث عَظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ ولم يَقُل: ويَعلَم متى يَنْزِل الغَيْث، بل قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ فاختِلاف التَّعبير له مَعنًى عَظيمٌ، وإلَّا فإنَّ هذه الخَمْسةَ كلَّها

(١) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، رقم (٨)، من حديث عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

من عِلْم الغَيْب، فإن النبيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَسَّر قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ بهذه الخَمْسةِ، ولفظ الحَديث: «وَمَا يَدْرِي أَحَدٌ مَتى يَجِيءُ المَطَرُ»[1]، لكن في القُرآن يَقول الله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فكَيْف نَقول: إنه يُراد بها: (لَا يَعْلَمُ مَتى يَنزِل الغَيْثَ إلَّا اللهُ)؟

نَقول: لأن الله تعالى إذا كان هو الذي يُنزِّل الغَيْث، فلا يَعلَمه إلَّا اللهُ تعالى؛ لأنه هو المُنزِّل له، والمُنزِّل للشيء هو الذي يَعلَمه، وغيرُه لا يَعلَمه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿ٱلْغَيْثَ﴾ أي: المَطَر وسُمِّيَ غَيْثًا؛ لأن به تَزول الشِّدَّةُ، والاستِغاثة طلَب إزالة الشِّدَّة، ففي المطَر تزول الشدائِد؛ شَدائِدُ القَحْط وشدائِدُ الجَدْب، فيَبقَى الناس عندهم ماء ثُمَّ عِندهم مَزارِعُ.

وهناك إِشْكال في قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ فبَعضُهم يَقول: إنه سيَكون غدًا مطَرٌ في النشرة الجَويَّة؛ فهل هذا من عِلْم الغَيْب؟

الجَوابُ: لا، ليسَتْ من عِلْم الغَيْب، وأنها تَوقُّعات بواسِطة الآلات الدَّقيقة التي يَعلَمون بها تَكيُّف الجَوِّ وصلاحيته لأَنْ يَكون مُطِرًا أم غيرَ مُطِر؛ ولهذا أحيانًا لا يَكون الأمر كما تَوقَّعوا، ثُمَّ هُمْ لا يَستَطيعون أن يَتنبَّؤُوا بالأمطار بعد سَنَوات؛ غاية ما هناك أن يَكون في المُدَّة القَليلة.

قال المُفَسِّر رَحِمَهُ اللَّهُ: [﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بالتَّخفيف والتَّشديد] (يُنْزِل) و(يُنزِّل) وكِلاهما جاء في القُرآن؛ قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [البقرة:٢٢] هذه على قِراءة التَّخفيف، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ [غافر:١٣]

---

(١) أخرجه البخاري: أبواب الاستسقاء، باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله، رقم (١٠٣٩)، من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

هذه على قِراءة التَّشديد.

يَقول المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿ٱلْغَيْثَ﴾ بوَقْت يَعلَمه] هذا هو الشاهِدُ الذي بيَّن به المُفَسِّر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المُراد بتنزيلِ الغَيْث في الوقت الذي يَعلَمه؛ ليَكون هذا من عِلْم الغَيْب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾: ﴿وَيَعْلَمُ مَا﴾ أيِ: الذي في الأَرْحام، وعبَّرَ بـ﴿مَا﴾ لأنها أَعَمُّ وأشمَلُ من (مَن)؛ إذ إنَّ: (مَن) تختَصُّ بالعاقِل، هذا من جِهة، ومن جِهة أُخرى: أن ﴿مَا﴾ تَختَصُّ بالصِّفات و(مَن) بالذَّواتِ؛ أَلَمْ تَرَ إلى قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء:٣] ولَمْ يَقُلْ: مَن طاب. مع أن المَنكوحة من ذوات العَقْل، ولكنه قال: ﴿مَا طَابَ﴾ دون (مَنْ)؛ لأن النِّكاح يَرتكِز على صِفة المَرأة كما قال النبيُّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ»[1].

وهنا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا﴾ دون (مَن) لأن عِلْم ما في الأَرْحام من حيثُ الصِّفة أَبلَغُ من عِلْمه من حيث الذات، أي: أَبلَغُ من حيث كونه ذكَرًا أو أُنْثى، فالجَنين الذي في الرَّحِم ليس العِلْم المُختَصُّ به مُجرَّدَ كونه ذكَرًا أو أُنثَى، أو طويلًا أو قصيرًا، أو صغيرًا أو كبيرًا؛ بل هناك ما هو أَبلَغُ من ذلك، وهو صِفات هذا الجَنينِ، هل يَكون شقيًّا أم سَعيدًا، طويلَ العُمر أم قَصير العُمر، وهل عمَله صالِح أو عمَلُه فاسِد؛ ولهذا جاء التَّعبيرُ بـ﴿مَا﴾ التي يُلاحَظ فيها الصِّفات؛ لأن عِلْم ما في الأَرْحام من هذه الوِجهةِ أَعظَمُ من كَوْنه ذكَرًا أو أُنثَى؛ ومن هذا ما يَطَّلِعون على عِلْمه بكَوْنه ذكَرًا أم أُنثَى الآنَ فيَعرِفون ذلك قبل أن يُولَد.

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب النكاح، باب الأكفاء في الدين، رقم (٥٠٩٠)، ومسلم: كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم (١٤٦٦)، من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

فعلى هذا يَتبيَّن بلاغة القُرآن حيث عبَّر بـ﴿مَا﴾ دون (مَن)؛ لأن (مَن) تُحدِّد الشخصية شَخصيةَ عاقِلٍ، وإذا كان غَيرَ عاقِلٍ يُقال: (ما). أمَّا ما يَتعلَّق بالصِّفات والأعمال فهذه يُعبَّر عنها بـ(ما)، وأنا ضَرَبْتُ لكم شاهِدًا قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ﴾ [النساء:٣] دون مَن طاب.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ الأرحام جَمْع رَحِم، وهو وِعاء الجَنين، والجَنينُ مُحاط بثلاثة جُدران: البطْن، والرَّحِم، والمَشْيمَة، فالمَشيمة هذا القُمقُمُ الذي فيه الجَنين، وهذا القُمقُمُ -سُبحان الله العظيم- مادَّة غَريبة لا هي مائِيَّة مَحْضَة، ولا جامِدة مَحضة، ولكنها لَزِجة سَهْلة لأَجْل أن يَتيَسَّر حرَكة الجَنين؛ حتى أُمُّه لا تُحِسُّ بالتَّعَب وهو أيضًا لا يُحِسُّ بالتَّعَب؛ فالله عَليم حَكيم جَلَّ وَعَلَا.

وهذه الظُّلُماتُ الثَّلاثُ كما قال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ [الزُّمَر:٦]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المرسلات:٢١]، يَعنِي: لا يَدخُله أيُّ شيء يُؤذِي هذا الجَنينَ لا هَواءٌ ولا غَيرُه.

وقوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ مُتعلَّق هذا العِلْم كَونُه ذكَرًا أو أُنثَى، وكذلك ما يَتعَلَّق من صِفات كونُه: سَعيدًا أو شَقيًّا، وكونه عامِلًا عمَلًا صالِحًا أو عمَلًا سَيِّئًا، وكونُ رِزْقه واسِعًا أو ضَيِّقًا، وكون عُمرِه طَويلًا أم قصيرًا؛ فكل هذه تَتعلَّق بعِلْم الأَجِنَّة، فمِنها شيء لا يُمكِن أن يُعلَم أبدًا، ما يَعلَمه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، ومنها ما يُعلَم -كالأَمْر المُشاهَد- بالأَمْر المَحسوس، فهذا يُمكِن أن يُشاهَد ويُوصَل إليه الآنَ؛ ولكن هل يُمكِن أن يَعلَموا أن هذا الجَنينَ ذكَر أم أُنثى قبل أن يُخلَّق؟

الجَوابُ: إلى الآنَ ما وصَلوا إلى ذلك، ولا نَقول: (لا)، بل نَقول: (إلى الآنَ ما وصَلوا)، وقد سمِعْت أن بعضَهم يَستَدِلُّ على أن كَوْنه ذكَرًا أو أُنثى بنَفْس

الحَيوان المَنوِيِّ، وأنَّ الذكَر له صِفة خاصة والأُنثى لها صِفة خاصَّة، فإذا صَحَّ هذا فلا تَقُل: من أَيْن؟

فإن قال قائِل: كيف ذلك في نَفْس الحَيوان إذ لم تَتَلَقَّح نفسُ البُوَيْضة بعدُ؟

فالجَوابُ: هُـمُ الآنَ أَثبَتوا هـذا، وصَوَّرها أيضًا، صَوَّروا هذا؛ فقـالوا: إن الحَيوان المَنَويَّ الذكَر هذا له إشعاع خاصٌّ، يَنطَلِق بإشعاع خاصٍّ، واللهُ أَعلَمُ.

وعلى كل حال: هم إذا تَوَصَّلوا إلى ذلك فإننا نَقول: مَن يَعلَم أنه سيُقدِّر الذكَر أو الأُنثى إلَّا الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، ثُمَّ الأحوال الأُخرى التي ذكَرْنا أنها مُتعلِّق مَن عِلْم الأَجِنَّة لا يُمكِن أن يَعلَموها.

وأَقول: يَجِب أن لا نُعارِض الشيءَ هكذا، بل يَجِب أن نَتَرَيَّث؛ لأننا لو نَدفَع هذا الشيءَ ثُمَّ نَقول: هذا الشيءُ مُحال. ثُم يَكون ثابِتًا بمُقتَضى العُلوم الحَديثة، فإنه يُؤدِّي ذلك إلى رَدِّ القُرآن أو التَّشكيك فيه، ونحن نَعـلَم أنه لا يُمكِن أن يَتَناقَض أمران يَقينِيَّان، فكل أَمْرَيْن يَقينِيَّين فإنه لا يُمكِن أن يَتعارَضا أبدًا، فهذا مُستَحيل.

فإن قال قائِل: الإنسان الذي يُحاوِل بهذه الأُمور على أن يَعلَم هل يَأثَم أو لا؟

فالجَوابُ: لا، لا يَأثَم، قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ ولم يَقُلْ: لا تَعلَموا، فنحن نَعلَم الآنَ عندما نَتَوصَّل بهذه الوسائِل فليس عِلْمَ غَيْب.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْأَرْحَامِ﴾ أذكَر أم أُنْثى، ولا يَعلَم واحِدًا من الثلاثة غيرُ الله تعالى] اقتِصاره على [أذكَر أم أُنثى] فيه نظَرٌ؛ لأن عِلْم ما في الأرحام ليس مُتعَلِّقًا بالذكَر أو الأُنْثى فقَطْ، بل ما هو أَعَمُّ.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [وَلا يَعلَم واحِدًا من الثَّلاثة غيرُ الله] هذا قَبْل تَكوينه مُمكِن،

لكن بعد أن يَتكوَّن يَعلَمه غيرُ الله فهذا المَلَك يَعلَم أنه ذَكَر أم أُنثى.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾: ﴿نَفْسٌ﴾ نكِرة في سِياق النَّفي، و﴿تَدْرِى﴾ بمَعنَى: تَعلَم، والنَّفْس هنا نكِرة في سِياق النَّفي فتَعُمُّ كلَّ نَفْس، فأيُّ نَفْس لا تَدرِي ماذا تكسِب غدًا حتى لو كان من أَمهَر الناس في التَّدبير والتَّنظيم لوَقْته فلا يَدرِي ماذا يَكسِب غدًا؛ وإذا كانت النَّفْس لا تَدرِي ماذا تَكسِب فإنها لا تَدرِي ماذا يَكسِب غيرُها من بابِ أَوْلى؛ وإذا كانَتْ لا تَستَطيع أن تَعلَم ما يَتعَلَّق بعِلْم المَخلوق فكيف تَعلَم ما يَتعلَّق بعِلْم الخالِق؛ فمِن بابِ أَوْلى أن لا تَعلَمه.

إِذَنْ: فلا أحَدَ يَدرِي ماذا يَكسِب غَدًا من خيرٍ أو شَرٍّ أو مال أو ولَد أو غير ذلك؛ وقد يَتَوقَّع الإنسانُ الشيء، ولكنه لا يَحصُل له؛ إذ يُصرَف عنه أو يُحال بينَه وبَينَه بسبَب فلا يَصِل إلى كَسْبه.

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ ما المُرادُ بالغَدِ: اليَوْم المُباشِر ليَوْمك أو كل المُستقبَل؟

الجَوابُ: المُرادُ كل المُستقبَل، فلا تَدرِي ماذا تَكسِب فيه ولو كان بَعيدًا، لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨] فهل يَعنِي: ليوم الأَحَد بعد يوم السَّبْت؟

الجَوابُ: لا، بل ليوم القِيامة، فكُلُّ مُستقبَل يَصِحُّ أن يُطلَق عليه غَد.

وكلِمة ﴿غَدًا﴾ مَنصوبة، وهي مَفعول لـ﴿تَكْسِبُ﴾ مَفعول فيه؛ لأنها ظَرْف؛ يَعنِي: ماذا تَكسِب في غَدٍ؛ ومنه قول الشاعِرِ:

وَأَعْلَـمُ عِلْـمَ الْيَـوْمِ وَالْأَمْـسِ قَبْلَـهُ وَلَكِنَّنِي عَنْ عِلْمِ مَا فِي غَدٍ عَمِـي [1]

إِذَنْ: فهي ظَرْف.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خيرٍ أو شرٍّ]، ولكن الذي يَعلَمه الله تعالى؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [ويَعلَمه إلَّا الله تعالى].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ نقول في: ﴿نَفْسٌ﴾ مثل ما قُلْنا في (نَفْس) الأُولى: نَكِرة في سِياق النَّفي فتعُمُّ كلَّ نَفْس.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَدْرِى بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ هل هي بأَرْضها التي وُلِدت فيها أو بقَريب منها أو ببَعيد لا تَدرِي، ولا تَدرِي بأيِّ زمَنٍ تَموت، بل من بابِ أَوْلى؛ لأن المَكان للإنسان فيه اختِيار، فيَختار أن يكون هنا أو يَختار أن يَكون هناك؛ أو يَختار أن يَكون في محَلٍّ آخَرَ ثالِثٍ، لكن الزمَن ليس لك فيه اختِيار؛ فإذا كنت لا تَعلَم المكان الذي تَموت فيه مع أن لك فيه اختِيارًا فمن بابِ أَوْلى أن لا تَعلَم الزمَن الذي تَموت فيه.

وهذه من حِكْمة الله عَزَّوَجَلَّ: أَنْ أَخفَى على الإنسان اليومَ الذي يَعلَم أنه يَموت فيه أو المكان الذي يَعلَم الله تعالى أن الإنسان يَموت فيه؛ لأن الإنسان لو عَلِم بهذا لقَلِقَ في حَياته؛ فما يَكون همُّه إلَّا حِسَاب ما بَقِيَ؛ أي: ما بَقِي إلَّا كذا وكذا من السنَوات أو من الأَشهُر أو من الأيَّام، ويَتعَب تَعَبًا عظيمًا.

لكن الآنَ كلُّ يومٍ يَجيء على الإنسان يُؤمِّل فيه وقد يَكون الأجَلُ أَقرَبَ من شِراك نَعْله؛ لكنِ المُهِمُّ أن عنده أمَلًا في الطول، ولا يَلتَفِت إلى هذه المَسأَلةِ إطلاقًا؛

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى من معلقته المشهورة، انظر: ديوانه (ص٧٠).

لأنه يَعلَم أنه لا عِلمَ له فيها، وأن عِلْمها عند الله، وهذا من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ بِنا.

وهل الإنسانُ يُقَدِّر أنه يَموت بالأرض الفُلانية؟

الجَوابُ: قد يُقدِّر هذا، وأحيانًا إذا قيل له: ألَا تُسافِر؟ قال: أبَدًا أنا بلَدي فيها أَحْيا وفيها أَموتُ، ولكن عند قُرْب أَجَله يُسافِر؛ فتَحصُل له حاجة حتى يُحمَل إلى الأرض التي يَموت فيها.

وأنا أَعرِف رجُلًا ما خرَج من بَلَدِه عنيزةَ أبَدًا منذ سنَوات بعيدة، ولمَّا مَرِض قُدِّر أن يَكون عِلاجُه في مِصرَ، وهو ما خرَجَ من عنيزةَ عُمرَه إلَّا أَظُنُّه للحَجِّ مرَّةً ولا عِنده نِيَّة، فكَبِر وانتهى عُمُره، لكن سُبحانَ الله! لَمَّا أَراد أن يَنقُله الله تعالى إلى أَرْضه التي يَموت فيها نُقِل إلى مِصرَ ومات هناك.

وأَعرِفُ أُناسًا كَثيرين نُقِلوا إلى أماكِنَ بَعيدة ما كانوا يَحلُمون أنهم يَذهَبون إليها، وهناك قِصَّة حدَّثَني بها الثِّقة في المرأة المريضة التي رجَعوا بها من الحَجِّ، ولمَّا كانوا في الريع -الجِبال المُحيطة بالحِجاز- ونزَلوا ليلةً من الليالي، فلمَّا أَصبَحوا حمَلوا إبِلَهم على أنهم سيَمْشون، وهذا الرجُلُ كان معه أُمُّه مَريضة فبَقِيَ ليُوطِّئ لها المكانَ على الراحِلة، فمَشَى الناس وهو في مَكانه، ولمَّا أَنهَى ما أَحَبَّ أن يُنهِيَه من تَوْطِئة الرَّحْل لأُمِّه وركِبَت مشَى فضَيَّعهم، لم يَعرِف أين ذهَبوا؛ فدخَل في الريع وظَلَّ يَمشِي ويَمشِي ولا يَسمَع حِسًّا ولا حولَه أَحَدٌ حتى وصَل إلى خِباءٍ -خِدْر صَغير لبَدْوٍ- ونزَل عِندهم وسأَلَهم عن الطريق قالوا: الطريق وراءَك؛ فقال: سأَرْتاح قليلًا؛ فلمَّا نزَل -سُبحانَ الله العَظيمِ- ونزَّل والِدتُه ماتَتْ في ذلك المَكانِ الذي ما كان هو ولا غيره يَقدِر أن يَأتِيَ إليه، لكن من أَجْل أن تُحمَل هذه المَرأةُ إلى أرضِ مَوْتِها حَصَل ما حَصَل من الأسباب.

وهكذا أيضًا تَجِدون الحوادِثَ الآنَ؛ فالإنسان في البلَد لا يُقدِّر أنه سيَموت في مَكان ما من البَرِّ، ولكنه يُنقَل إلى المكان الذي يَموت فيه، حتى إنه يَموت في المَكان بالضَّبْط على نفس حَبَّات التُّراب التي قُدِّر أن يَموت فيها، وهذا أَمْر مُشاهَد.

وفي الزمَن كذلك: لا يَدرِي الإنسان متى يَموت، رُبَّما يَتأَخَّر لَحَظاتٍ من أَجْل أن يَستكمِل زمَنه ومُدَّته، وهذا له شَواهِدُ؛ منها أيضًا ما حصَل في عنيزةَ: أن رجُلًا جاءَ بسَيَّارته مع الطريق العامِّ، وهناك شَابَّان على (دبَّاب) (درَّاجة ناريَّة) قد أَتَيا من طريق آخَرَ مُعتَرِض، فلمَّا قرُب الكُلُّ من نِهاية نُقْطة المُلاقاة وقَفَ كلٌّ منهم يَنتَظِر أن يَعبُر الآخَرُ؛ فقال الآخَرُ: سأَمشِي فمشَوْا جميعًا فصَدَمت السيَّارة المُؤخَّر من (الدبَّاب) الذي فيه الشابَّان وماتا في الحال؛ فلماذا وَقَف هذه الوَقْفة التي هي لحظاتٌ؟ الجَوابُ: من أَجْل أن يُستكمَل الزمَن المُحدَّد.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾ ويَعلَمه الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكُلِّ شيء ﴿خَبِيرُۢ﴾ بباطِنه كظاهِره] وأَيُّهما أَخصُّ: الخَبير أو العَليم؟

الجَوابُ: الخَبيرُ أَخصُّ؛ لأن العِلْم يَتعلَّق بالظاهِر والباطِن، والخِبْرة تَتعلَّق بالباطِن؛ ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [﴿خَبِيرُۢ﴾ بباطِنه كظاهِره]؛ لأن العليم بالباطِن من باب أَوْلى أن يَكون عَليمًا بالظاهِر.

ثُمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: [روَى البُخارِيُّ عن ابنِ عُمرَ حديثَ: مَفاتِح الغَيْب خَمْسة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ...﴾[1] إلخ السُّورة] قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ﴾.

(١) أخرجه البخاري: كتاب الاستسقاء، باب لا يدري متى يجيء المطر إلا الله، رقم (١٠٣٩).

وقد بيَّنَّا في شَرْح صحيح البُخارِيِّ وجهَ كَوْنها مَفاتِحَ فقُلْنا: الساعة مِفتاح الآخِرة؛ وتَنزيل الغَيْث مِفتاح للحياة؛ حياة الأرض والنبات؛ وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ مِفتاح لحَياة الإنسان وابتِداء خَلْقه؛ فأوَّلُ ما يَمُرُّ بعد التَّكوين بالرَّحِم؛ ولهذا الإنسانُ له أربعُ دُور: الدار الأُولى في بَطْن أُمِّه، والثانية في الدنيا، والثالثة في البَرْزَخ، والرابِعة في الآخِرة؛ قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ مِفتاح للعمَل في المُستقبَل؛ وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ مِفتاح للآخِرة بالنِّسبة لمَوْت كل إنسان بعَيْنه.

من فوائد الآية الكريمة:

الْفَائِدَةُ الأُولَى: أن عِلْم الساعة من خَصائص عِلْم الله عَزَّوَجَلَّ وحدَه؛ لقوله تعالى: ﴿عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ فقوله تعالى: ﴿عِندَهُۥ﴾ تُفيد الحَصْر.

الْفَائِدَةُ الثَّانِيَةُ: بَيان فَضْل الله عَزَّوَجَلَّ في إنزال الغَيْث؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ والمُنزِّل للشيء هو العالِمُ به.

الْفَائِدَةُ الثَّالِثَةُ: اختِصاص الله تعالى بعِلْم الغَيْب.

الْفَائِدَةُ الرَّابِعَةُ: أن عِلْمَ ما في الأرحام إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وحدَه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾.

وإذا نظَرْنا إلى ظاهِر السِّياق ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ لا نَنفِي أن غَيْره يَعلَم؛ لأن كونَ الله تعالى يَعلَم نحن يُمكِن أن نَعلَم، لكن تَفسير الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

بأن هذه بعِلْم الغَيْب التي لا يَعلَمها إلَّا الله تعالى يَدُلُّ على أنه لا يَعلَم ما في الأَرْحام إلَّا الله تعالى.

فإن قال قائِل: لماذا لم تكُن بهذه الصِّيغةِ: (ولا يَعلَم ما في الأَرْحام إلَّا الله)؟

فالجَوابُ -واللهُ أَعلَمُ-: أنه لمَّا كان عِلْم الأَجِنَّة قد يُتمكَّن منه ببعض الأَحْوال قال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾.

الْفَائِدَةُ الخَامِسَةُ: أن الإنسان لا يَعلَم الغَيْب في المُستقبَل؛ لقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ فإذا كانت يَقصِد بـ(ماذا تكسِب) هو نَفْسه، فما يَقدِر عليه إلَّا الله تعالى فجَهْله به من بابِ أَوْلى، وما يَكسِبه غيرُه فجَهْله فيه من بابِ أَوْلى، وعلى هذا فلوِ ادَّعَى مُدَّعٍ أن الله تعالى يُقدِّر على هذا الرجُل كذا وكذا فإننا نَجزِم أنه كاذِب؛ لأنه لا يَعلَم ما في غَدٍ إلَّا اللهُ تعالى.

ولمَّا قالَتْ إحدى النِّساء في حَضْرة النبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَفِينَا نَبِيٌّ يَعلَم ما في غَدِ» نَهاها الرسولُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وقال ﷺ: «قُولي ببَعْضِ ما تقولِينَ»[1]؛ وهذا لا يَجوز على الرسولِ ﷺ ولا غيرِه أن يُدَّعَى أنه يَعلَم ما في الغَيْب.

الْفَائِدَةُ السَّادِسَةُ: أن الإنسان لا يَدرِي بأيِّ أَرْض يَموت؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

الْفَائِدَةُ السَّابِعَةُ: هل يُقال: إنه لا يُمكِن أن يَموت أحَد فَوقَ الجاذِبية في فضاء؟ فيه احتِمال؛ لكنه ضَعيف؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قال: ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ قد يَكون هذا مَبنِيًّا على الغالِب مع أن لدَيْنا آيةً في القُرآن يَقول الله عَزَّوَجَلَّ فيها: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب المغازي، رقم (٤٠٠١)، من حديث الرُّبَيِّع بنت معوذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:٢٥]، فتَقديم المَعمول الَّذي هو الظَّرْف ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ يَدُلُّ على الحَصْر، وهذا هو الأَصْل، فإن تَبيَّن فيما بعدُ أن يَموت أحَدٌ في الفَضاء ولا يَرجِع إلى الأرض فإننا نَقول: إن هذا احتِمال. بِناءً على الأَغلَب الكثير، وما سمِعْنا أن أحَدًا مات فوقَ الجاذِبية، بل حتى لو مات فالظاهِرُ أنه لا بُدَّ أن يُرَدَّ، وليس المَقصودُ الرُّوحَ.

الْفَائِدَةُ الثَّامِنَةُ: أنه لا يَعلَم أَحَدٌ متى يَموت؛ تُؤخَذ: من أن جَهْلنا بمَكان مَوْتنا يُبيِّن جَهْلنا بزمان مَوْتنا، فالجَهْل هنا بالزَّمان أَوْلى.

الْفَائِدَةُ التَّاسِعَةُ: إثبات اثنَيْن من أسماء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وهُما: العَليم والخَبير، وما تَضَمَّناه من صفتَيِ العِلْم والخِبْرة.

الْفَائِدَةُ الْعَاشِرَةُ: أن مَنِ ادَّعى عِلْم شيء ممَّا اختَصَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بعِلْمه فهو كافِر؛ لأنه مُكذِّب لله تعالى، والتَّكذيب لله تعالى كُفْر.

• ● ۞ ● •



فهرس الأحاديث والآثار

الحديث	الصفحة



فهرس الفوائد

• ● ❁ ● •



فهرس آيات السورة

الآية	الصفحة